مُختصر

مَطالِعِ السُعُودِ

بطِيبِ أخبارِ الوالي دَاود

لعُثمان بن سنَد

(ت ١٢٤٢هـ)

اختصَرَه

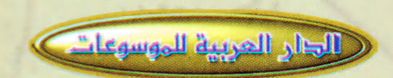
الشيخ / أمينُ بن حسن الحَلَواني المَدَني

(ت ١٣٣٠هـ)

وبهامشه تعليقاتٌ للعلّامة محب الدين الخطيب

(ت ١٣٨٩هـ)

عُني به / سليمان بن صالح الخراشي



مُختَصَر

مَطالِع السُعُودِ

بطِيبِ أخبارِ الوالي دَاود

لعُثمان بن سنَد

(ت ١٢٤٢هـ)

اسم الكتاب: مُختَصَر مَطالع السُعود بطيبِ أخبار الوالي داود
لعُثمان بن سنَد (ت ١٢٤٢هـ)

اختصره: الشيخ أمينُ بن حسن الحَلَواني المَدَني (ت ١٣٣٠هـ)

الطبعة الأولى: ٢٠١٩م - ١٤٤٠هـ

ISBN 978-614-424-314-5



الدار العربية للموسوعات

المدير العام: خالد العاني - KHALED AL ANI

الحازمية - مفرق جسر الباشا - بجانب بنك بيروت - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ١٣ الحازمية - هاتف: ٠٠٩٦١ ٥ ٩٥٢٥٩٤ - ٠٠٩٦١ ٥ ٩٥٥٦١٨
فاكس: ٠٠٩٦١ ٥ ٤٥٩٩٨٢
هاتف نقال: ٠٠٩٦١ ٧٦ ٣٨١٠٨١ - ٠٠٩٦١ ٣ ٣٨٨٣٦٣ - ٠٠٩٦١ ٣ ٥٢٥٠٦٦
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مُخْتَصَر

مَطالِع السُعُودِ

بطِيبِ أخبارِ الوالي دَاود

لعُثمان بن سنَد

(ت ١٢٤٢هـ)

اختصره

الشيخ أمين بن حسن الحلواني المدني

(ت ١٣٣٠هـ)

وبهامشه تعليقات للعلاّمة محب الدين الخطيب

(ت ١٣٨٩هـ)

عُني به

سليمان بن صالح الخراشي

الدار العربية للموسوعات

بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ باللهّ من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾.

أما بعد: فقد صنّف الشيخ عثمان بن سند كتابًا عن وزير بغداد



في زمنه: داود باشا[1]، سمّاه: "مَطالع السُعود بِطيب أخبار الوالي داود"، اشتمل على ترجمته ومسيرة حياته، مع كثيرٍ من الأحداث التاريخية والسياسية التي واكبت تلك الفترة في محيط جزيرة العرب والعراق والدولة العثمانية.

ثم قام الشيخ الـمَدَني: أمين الحلواني باختصار كتاب ابن سند، مُقتصرًا على الأحداث التاريخية، متجنبًا الأمور الأدبية التي فرّقها ابنُ سند في كتابه - من شعرٍ أو سجع -، وطبع كتابه بخط اليد في الهند (عام ١٣٠٤هـ).

ثم قام العلاّمة محب الدين الخطيب بطباعة مختَصَر الحلواني في مطبعته السلفية (عام ١٣٧٢هـ)، مع التقديم له، والتعليق عليه

---

(١) له ترجمة في "دوحة الوزراء" (ص٢٧٥ وما بعدها)، و"أعيان القرن الثالث عشر" (١٨٠-١٨٢)، و"الأعلام" (٢/ ٣٣١)، وموسوعة السياسة (٢/ ٦٥٣-٦٥٤). وانظر للتوسع: كتاب "داوود باشا والي بغداد" للدكتور عبدالعزيز نوار، وكتاب "داوود باشا ونهاية المماليك في العراق" ليوسف عز الدين. وسيأتي مزيدٌ عنه في مقدمة الشيخ محب الدين الخطيب، وفي ثنايا هذا المُختَصَر - إن شاء الله -.



بتعليقات نفيسة[1]، تنمُّ عن سعة اطلاعه، ونباهته.

ونظرًا لأن هذه الطبعة أصبحت عزيزةَ الوجود؛ فقد ارتأيت إعادة طبع المُختصَر، معتمدًا - بعد الله - على نسخة المؤلف التي طبعها في الهند[2] - كما سبق-[3]. والله الموفق.

تنبيهات:

(١): معاني بعض المصطلحات التي ستتردد في الكتاب:

- الآغا: لقبٌ تركي، بمعنى الرئيس والقائد، وقد أُطلِق على كبار رجالِ العَسكر في الدولة العثمانية، من الفرق المختلفة.

---

(١) أبقيتُ مُعظمها، مذيلاً إياها باسمه (الخطيب).

(٢) ولها نسخة أخرى مكتوبة في (١٥/ ١١/ ١٢٩٣هـ) نشرها الشيخ عبدالله البسام - رحمه الله - في "خزانة التواريخ النجدية" (٦/ ٢٣٩-٣٣٣). ولكن الحلواني اعتمد في الطبع على النسخة التي بين يديك.

(٣) وهي من محفوظات مكتبة الملك عبدالعزيز بالرياض، وتقع في (٦٤ صفحة)، زودني بها مشكورًا: الأستاذ المُفيد: إبراهيم بن عبدالعزيز اليحيى، رئيس قسم المخطوطات بالمكتبة -جزاه الله خيرًا-. كما لا يفوتني أن أشكر الدكتور المُفيد: عبدالله المنيف، وكيل التطوير والجودة بعمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، الذي اجتهد في جلب مخطوط الأصل "مطالع السعود" من العراق -جزاه الله خيرًا-.



- الأفندي: لقبٌ يُستعمل في الوظائف الدينية والعلمية الرفيعة.
- الخزندار: مسؤول الخزانة السُلطانية في إسطنبول.
- الكتخدا: كلمةٌ فارسيةٌ تعني: الوكيل.
- الـمُتسلِّم: هو نائب الأمير الذي يُنصب لتسلّم اللواءِ من الحاكم السابق.
- المهردار: حاملُ ختم الباشا.
- السِّرْدار: رئيس الجند، وقائدهم.
- إيـــاله: أي ولاية تابعة للدولة العثمانية.
- الدولة العَليَّة: أي: الدولة العثمانية.
- الفرَمان: القرار.
- الدَّفتردار: الـمُكلَّف بتسجيل مصادر خزينة الدولة.
- الكيخيا: الـمُشرف على القصر، أو رئيس التشريفات.

(٢):

سيمر بالقارئ أسماءُ مُدنٍ ومواضعَ وقبائلَ وعشائرَ عراقية، سيُفيد مَن أراد التعرف عليها من هذه الكتب:



١- عشائر العراق؛ للمحامي عباس العزاوي -رحمه الله-.

٢- موسوعة العشائر العراقية؛ للأستاذ: ثامر العامري.

٣- موسوعة المدن والمواقع في العراق؛ للأستاذ: بشير يوسف فرنسيس.

(٣):

حيث أن مؤلف الكتاب "ابن سند" كان من المناوئين للدعوة السلفية الإصلاحية التي جدّدها الإمام محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله-، فقد وصمَها بالوهابية[1]، وافترى عليها كثيرًا في كتابه -كما سيأتي-، لذا؛ يحسن بمن أراد التعرف على حقيقتها، وأنها دعوة الكتاب والسنة بفهم الصحابة ﷺ؛ فليرجع إلى هذه الرسالة المهمة: "عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي"؛ للشيخ الدكتور: صالح بن عبدالله العبود[2].

---

(١) هذا الوصف يُقبل من المُحب أو الباحث؛ إذا كان للتعريف، والأولى تركه، والاكتفاء بالدعوة الإصلاحية أو السلفية.أما المُبغض والحاقد من الغربيين أو أهل البدع فيقصدون به التنفير منها.

(٢) وهي موجودة على شبكة الإنترنت.



مقدمة العلاّمة مُحب الدين الخطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ ﴾.

لـمّا كانت مصرُ تُحكم بالمماليك، وعندما كان المملوك أحمد باشا الجزّار يلعب في سواحل الشام على الحَبلين، كانت العراقُ تُحكم بالمماليك كذلك، بل كان جيش الدولة العثمانية نفسه -الذي يُسمى بالينيجرية[1]- قائماً على هذا الأساس، برجالٍ إذا عَرَف الواحدُ منهم اسمَ والدِه، فقلّما يعرف أصلَ ذلك الوالد والأسرة التي ينتمي إليها، فهو نظامٌ يتولاه أناسٌ من أصولٍ مُنكَرة، مجهولة الأعراق.

وداود باشا (وزير بغداد ١٢٣٢ - ١٢٤٦) الذي ألّف ابنُ سند تاريخَه هذا على اسمه: كان مملوكًا جيء به من بلاد الكَرج على

(١) أي: الانكشارية. وهو الجيش العثماني القديم -كما سيأتي-.



الساحل الشمالي للبحر الأسود، وبِيع صبيًا في أسواق العراق، فاشتراه مصطفى بك الربيعي، أحد أعيان ذلك القطر، ثم اشتراه منه سليمان باشا الكبير (وزير بغداد ١١٩٤-١٢١٧) الذي كان هو كذلك مملوكًا لحسن باشا (وزير بغداد ١١١٦-١١٣٦)، وورثه عنه ابنه أحمد باشا (وزير بغداد ١١٣٦-١١٦٠) فأعتقه.

ومِن قبله كان علي باشا الإيراني (وزيرُ بغداد ١١٧٦-١١٧٨) ربيبَ أحمد باشا، وكان الوزيرُ عمر باشا (١١٧٨-١١٨٩) مملوكًا لأحمد باشا أيضًا.

كما أن مِن مماليك سليمان باشا الكبير أو ذوي قرابته ممّن تولوا وزارة بغداد: صِهرَه علي باشا (١٢١٧-١٢٢١)، وابن اخته سليمان باشا القتيل (١٢٢١-١٢٢٥)، وعبد الله باشا (١٢٢٥- ١٢٢٧) الذي نشأ مملوكًا له وعتيقًا.

فوزراءُ العراق في قَرنٍ كاملٍ ورُبعِ قَرن، تفرّعوا من بيت حسن باشا ابن مصطفى بك السباهي، إما مِن ذوي قرابته، أو مِن مماليكه، أو مِن أصهارهم وذوي أرحامهم.

وقد تخللتْ ذلك فتراتٌ قليلةٌ تولى الوزارة فيها رجالٌ أقحمتهم



القسطنطينيةُ على مماليك العراق، فكانوا أسوأَ مِن هؤلاء إدارةً، وأقلَّ اضطلاعًا بمهمة الحُكم.

وداود باشا كان آخرَهم وأعلَمهم، إلا أنه كان حريصًا على أن يأخذَ أكثرَ مما يُعطي، وعلى أن يُثنى عليه بلسان المجاملة، وأن يُنظر إلى تصرُّفاته بعينِ الرِّضا.

وقبل أن يُناط بابن سند تأليف هذا التاريخ في أواخر ولاية داود باشا، كان داود باشا قد ناط مثلَ هذه المُهمَّة بمؤرخٍ آخر، لعله كُردي، وهو رسول حاوي أفندي الكركوكلي[1]، فكتب باللغة التركية كتاب "دوحة الوزراء"، وطُبع سنة ١٢٤٦ بأمرِ داود باشا في أول مطبعةٍ عرفتها بغداد، وأغلب الظن أن هذا المؤلِّف الكركوكلي هو الذي يُسميه ابن سند: «المؤرخ التركي»، ويُصحح له بعضَ أخباره في هذا الكتاب. وكانت إقامة ابن سند في البصرة وبلدة الزبير، وكان يتردد على بغداد، ويجتمع بوزرائها وعلمائها وأعيانها وأمراء القبائل، فهو مِن شُهود العصر الذي أرَّخ له.

وقد امتاز كتابُه بدِقَّةِ أخبارِه عن جنوب العراق، وانفراده بحوادثَ

(١) المتوفى عام ١٢٤٢هـ.



وحقائقَ لا توجد عند غيره، وبصحة حُكمه على شؤون القبائل، وجمال وصفه لبعض أيامها، ومعرفته بأقدار فُرسانها وذوي أحلامها.

بل إنّه مع شدة تعصبه المذهبي على الدَّعوة السلفية التي قام الأئمة من آل سعود بنُصرتها، ومع إسرافه أحيانًا في غَمْطِ جانبهم، فإنَّ عروبَته الخالصة، وحُسنَ فهمه لنتائج الإصلاح الذي ترتب على هذه الدعوة، قد أطلق لسانَه بالثناء على ما صار إليه جميع العرب على اختلاف قبائلهم من حضرموت إلى الشام؛ كأنهم إخوان، أولادُ رجلٍ واحد. وهذا أمرٌ كانت جزيرة العرب محرومةً من خيراته بعد القرون الثلاثة الأولى من صدر الإسلام، أي منذ استعجم الإسلام.

وأظن أنَّ ابنَ سند لو كانت إقامته دائمًا في بغداد لا في البصرة؛ لكان توغله في معرفة دخائل الوزراء ومماليكهم وأعوانهم من الكتخدائية والخزندارية أدقَّ وأشمل، بل لو كان عزمه على تأليف هذا التاريخ متقدمًا على مدة وزارة داود باشا؛ لكانت المادة التي يُسجلها في مختلف السنين أدسمَ وأوضح.

وعلى كل حال؛ فإنه بهذا الكتاب ملأَ فراغًا في المكتبة العربية كنا في وحشةٍ منه.



وعندما يبسط أفاضلُ المؤرخين العراقيين في تمحيص ماضي بلادهم وأمتهم سيستفيدون من كتاب ابن سند في المقارنة بين نظراته إلى الحوادث من الناحية التي هو فيها، وبين نظرات المؤرخين الآخرين من النواحي التي هم فيها، فيَكمل لهم إن -شاء الله- بعثُ تاريخ تلك الحقبة، وبثُّ الحيوية والضوءِ في مجاهلها.

والاختصار الذي قام به العالِم المدَني: الشيخ أمين بن حسن الحلواني، كان يتوخى فيه المحافظة على جَوهر الحوادث، بل كان حريصًا على أن يزيدها وضوحًا بتعليقاته وزياداته التي مَيّزها عن الأصل، بأقواسٍ صان بها أصلَ الكتاب عن أن يَلتبس به ما ليس منه(١). أما الاختصار فقد تناول القصائدَ والاستطراداتِ التي لا دخلَ لها في بيان الحوادث.

---

(١) في غالب الأحيان. وإلا فإن زياداته عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله- قد اختلط بعضها بالأصل؛ لعدم وضعها بين قوسين -كما سيأتي-، ولعلّ ذلك من ناسخِ مُختَصَرِه. وكذلك زياداته عند حديثه عن دخول جيش محمد علي باشا للمدينة لإخراج أتباع الدعوة الإصلاحية منها، فقد أطال وفصّل فيه وهوّل! نظرًا لأنه من أهلها.



وكان تاريخُ ابن سند مُسجَّعًا على طريقة العتبي[1] في تاريخِ يمين الدولة ابن سُبُكتكين، وشرحِهِ للشيخ المنيني[2]، فأطلقه الشيخ أمين الحلواني من قيود السَّجع، لأن هذا هو اللائق بكُتب التاريخ.

وقد حاول كاتب هذه السطور أن يخدم الكتاب على قَدر ما يستطيعه ناشرٌ بعيدٌ عن آفاق العراق، فعَلّقتُ عليه بما تيسر لي، وأردفتُ هذا التصدير بترجمةٍ مستفيضة لابن سند، بقلم صديقي العالم الكبير السيد محمد بهجة الأثري[3]. ولابن سند تراجم أخرى في "حديقة الأفراح" للشرواني، وفي "المسك الأذفر" للسيد محمود

---

(١) هو أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي الرازي (ت ٤٢٧هـ) أديبٌ ومؤرِخٌ وشاعرٌ عربي، عاش في فارس زمن الخلافة العباسيّة.

(٢) وهو "الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبى"؛ للشيخ أحمد بن علي الحنَفي الطرابلسي الأصل، المنيني، الدِمشقي (ت ١١٧٢هـ) ، ومنين: قرية من قرى دمشق.

(٣) وقد استبدلتها بترجمةٍ أضفى منها، نقلتها من مقدمة تحقيقي لكتاب "الرد الدامغ على الزاعم أن شيخَ الإسلام ابن تيمية زائغ" ؛ للشيخ عثمان بن منصور، في الرد على ابن سند. دار التدمرية ١٤٢٥هـ.



شكري الألوسي، وفي "مختصر طبقات الحنابلة" للشطي[1]، وقصيدة ابن سند «إبطال الرابطة» في المجلد الثاني عشر من (المنار) (ص ٣٥٠).

أما ترجمة الشيخ أمين الحلواني فقد استنبطتُ بعضَها من تعليقاته في هذا الكتاب، واقتطفتُ البعض الآخر من الكتب التي نشرها واقتنيتها في خزانة كتبي، ومما كنتُ تلقفته عنه في عشرات السنين الماضية. وقد كتبتْ عنه دائرة المعارف الإسلامية أسطرًا معدودة، اكتفت بها؛ لأنها لم تجد مصادرَ تَرجِع إليها في توفية الترجمة حقَّها.

وإني تعبتُ كثيرًا في استخراج فِهرس الأعلام التاريخية لهذا الكتاب، ولاسيّما في تعيين شخصيات آل بابان[2] وأمثالهم، لتشابه أسماءٍ تختلف مسمياتها. وعند استخراج الأسماء تبينتْ لي من مقارنتها بياناتٌ كنتُ أُحبُّ لو أني علقتُ بها على مواضعها من متن الكتاب، فاستدركتُ ذلك بذكر الممكن منه في الفهرس نفسه.

---

(١) مع أن ابنَ سند كان مالكيًا. (الخطيب).

(٢) الأكراد.



ولم يهوّن عليَّ ما لقيتُ في خِدمة هذا التاريخ للعراق إلا إيماني بأن العراق جزءٌ عزيزٌ من صميم وطني، وطن العروبة والإسلام.

محب الدين الخطيب



ترجمة عثمان بن سند[1]

هو الشيخ عثمان بن سند بن محمد بن أحمد بن راشد بن حمد بن ناصر بن راشد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن مدلج بن حمد، الرّباعي، العَنَزي، الوائلي.

هاجر والده سند بن محمد من بلدة حريملاء بنجد عام ١١٦٨هـ إلى جزيرة (فيلكة) بالكويت لطلب الرزق، فوُلد له بها المترجم له عام ١١٨٠هـ، ثم انتقلت أسرته بعد ذلك إلى الأحساء وهو في سن الصغر.

---

(١) أبرز مصادر ترجمته: "أعيان البصرة" (١٥)، "مختصر طبقات الحنابلة" للشطي (١٨٠)، "حديقة الأفراح" (٢٨٥)، "هدية العارفين" (١/ ٦٦١)، "المسك الأذفر" للألوسي (ص٢١٣)، "تسهيل السابلة" لابن عثيمين (٣/ ١٦٨١)، "علماء نجد خلال ثمانية قرون" (٥/ ١٤٣)، "معجم المؤلفين" (٦/ ٢٥٥)، "مقدمة مطالع السعود"، "مقدمة مختصر مطالع السعود" لأمين الحلواني، "أعيان القرن الثالث عشر" لخليل مردم،ص١٦٩ ، "علماء الكويت وأعلامها خلال ثلاثة قرون" لعدنان الرومي، (ص٢٠)، "إمارة الزبير بين هجرتين" (٣/ ٧٦)، "الأعلام" (٤/ ٢٠٦)، "الشيخ عثمان بن سند البصري" مقال لكاظم الدُجيلي في مجلة لغة العرب (٣/ ١٨٠)، "تنوير السند بتراجم العلماء من آل سند" (ص٢)؛ لمحمد بن حسن المبارك.



وفي الأحساء طلب العلم على يد علمائها؛ من أمثال الشيخ: محمد بن عبدالله بن فيروز[1]، والشيخ النحوي عبدالله البيتوشي[2] الذي اختص به واستفاد منه كثيرًا.

---

(١) المولود عام ١١٤٢هـ والمتوفى عام ١٢١٦، كان حامل لواء المعارضة لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - السلفية، وملجأ خصومها، هرب من الأحساء إلى البصرة، مواصلًا تأليب الناس على الدولة السعودية. للتوسع عنه: انظر رسالة: "تحذير أهل الإيمان عمّا تضمنته رسالة ابن فيروز من البهتان"؛ للشيخ عبدالله بن سعد آل محمود (بتحقيقي). قال الشيخ سليمان بن سحمان: "قد كان من المعلوم أن محمد بن فيروز من أئمة الضلال، وممن شَرِق بهذا الدين، وأظهر عداوة المسلمين، وبالغ في عداوة التوحيد بكل ممكن..." "الأسنة الحداد..."، (ص٢٥٧).

(٢) نسبةً إلى قريبة (بيتوش) في شمال العراق، ثم استقر بالأحساء، وكان بارزًا في النحو والصرف، توفي عام ١٢١٠هـ. له ترجمة في كتاب ابن سند "سبائك العسجد" (ص٣٤)، و"معجم المؤلفين" (٦/ ١٣٨)، و"أعيان القرن الثالث عشر" لخليل مردم (١٦٨-١٦٩)، وانظر مقدمة "مطالع السعود" (٨-١٠)، و"شعراء هجر" لعبدالفتاح الحلو، (ص٥٤)، و"أعلام الفكر الإسلامي" لأحمد تيمور باشا، (ص٣٢١).



وفي عام ١٢٠٤هـ نزح مع أسرته من الأحساء إلى البصرة، وهناك أخذ عن علمائها؛ كالشيخ محمد بن سلوم[(١)]، والشيخ محمد بن فيروز، والشيخ إبراهيم بن جديد[(٢)]، والشيخ علي بن حسين بن كثير[(٣)]،

---

(١) وُلد عام ١١٦١هـ، وتوفي عام ١٢٤٦هـ، وكان كشيخه ابن فيروز من المعارضين للدعوة السلفية. له ترجمة في "السحب الوابلة" (٣/ ١٠٠٧)، و"علماء نجد" (٦/ ٢٩٢). قال عنه الشيخ سليمان بن سحمان: "من المعلوم عندنا لما تحققناه من مشايخنا أن محمد بن علي بن سلوم ليس هو من أئمة أهل الإسلام، ولا من الأفاضل الأعلام، بل كان ممن شرق بهذا الدين، ولم يرفع به رأسًا، بل عاداه وعادى أهله، واتبع غير سبيل المؤمنين" "تنبيه ذوي الألباب السليمة..، ص" وقال الشيخ عبدالله البسام: "والمترجَم معاصرٌ للدعوة السلفية التي جددها محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، فقد عاصرها في قوتها وضعفها حينما خرجت الجيوش العثمانية والمصرية لإطفائها، وهو من الموالين لأعدائها؛ كمحمد بن فيروز وأحزابه".

(٢) هو إبراهيم بن ناصر بن جديد، المتوفى عام ١٢٣٢هـ، من المعارضين لدعوة التوحيد. له ترجمة في "السحب الوابلة" (١/ ٧١)، و"علماء نجد" (١/ ٤٢٣).

(٣) المالكي، المتوفى سنة ١٢١٦هـ. انظر: "فتاوى علماء الأحساء" للأستاذ عبدالعزيز العصفور (٢/ ٤٧٤)، ومقدمة "مطالع السعود"، (ص١٢).



وأخذ عن الشيخين علي السويدي[1]، وزين العابدين المدني[2] حينما مرّا بالبصرة.

في سنة ١٢٣٢هـ تمكن داود أفندي (الوزير لاحقًا) من أن يتزعم جماعةً من أعوانه المماليك فيُعلن تمرده على والي بغداد سعيد باشا[3]، ثم عَزَلَه بفرَمَان عثماني من الحُكم، وتولّى الولاية بعده.

وكان داود قد أحاط بشيءٍ من العلم، مُقدِّرًا لابن سند، فقويت الصلة بينهما، حتى أن ابن سند وعده أن يصنع له تاريخًا؛ إلا أن إقامته بالبصرة بعيدًا عن المعلومات التي يحتاجها حالت دون هذا الأمر.

---

(١) توفي عام ١٢٣٧هـ، وله ترجمة في "المسك الأذفر" (ص١٤٠)، و"معجم المؤلفين" (٧/ ٢٠٠)، و"أعيان القرن الثالث عشر" لخليل مردم، (ص١٦)، و"أعلام الفكر الإسلامي" لأحمد تيمور باشا (ص٣٢٢).

(٢) المعروف بجمل الليل، المتوفى سنة ١٢٣٥هـ. روى عنه ابن سند الجامع الصحيح للبخاري. انظر: "أصفى الموارد"، (ص١٠٢)، ومقدمة "مطالع السعود"، (ص١٤).

(٣) ابن سليمان باشا، تولى عام ١٨١٣م إلى أن قُتل عام ١٨٧١م. انظر: "دوحة الوزراء" (ص٢٦٠ وما بعدها)، و"لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث" لعلي الوردي، (ص٢٢٥).



ثم دعاه الوجيه أحمد بن رزق[1] وطلب منه زيارة بلد "الزبارة" المعروف في قطر، فاستأذن ابن سند من الوالي داود، فأذن له، فاحتفى به ابن رزق احتفاءً بالغًا؛ فألف له عثمان بن سند كتابه "سبائك العسجد في أخبار أحمد بن رزق الأسعد".

ثم دعاه الوزير داود إلى بغداد عام ١٢٤١هـ، وألحّ عليه في إنجاز وعده السابق في تأليف تأريخٍ له، وأنزله في دارٍ خاصة، فشرع ابن سند في تأليف كتابه "مَطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود"، وأتمه عام ١٢٤٢هـ.

توفي ابن سند -على الراجح- سنة ١٢٤٢هـ[2]. ودُفن بمقبرة الشيخ معروف الكَرخي ببغداد، وخلّف ولدين هما: عبدالله وعبدالوهاب، توفيا بالطاعون سنة ١٢٤٧هـ في البصرة ودُفنا بها.

---

(١) المتوفى سنة (١٢٢٤ هـ). انظر ترجمته في "سبائك العسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد"؛ لابن سند.كان من المناوئين للدعوة السلفية الإصلاحية، حاول إقناع إمام مسقط "الإباضي" بالتعاون مع والي بغداد على محاربة الدولة السعودية! انظر: "تاريخ الوهابيين"؛ لكورانسيه (ص٨٩-٩٠).

(٢) انظر: مقدمة محقِقَيْ "مطالع السعود" (ص٢١).



مؤلفاته:

لعثمان بن سند مؤلفات عديدة، أحصاها أحد مُترجميه فذكر أنها بلغت "أربعين مؤلفًا ما بين صغير وكبير"[1] في علوم وفنون متنوعة، إليك بعضًا منها[2]:

١- بهجة النظر في نظم نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر.

٢- شرح نخبة الفكر. وهو شرح موسع، وصفه الألوسي بأنه "ما عليه من مزيد"[3].

٣- منظومة في مصطلح الحديث، نظمها سنة ١٢١٩هـ، أولها:

الحمـد لله الذي قد أرسلا	إنعامَـــه وللنبـــي أرسلا

وآخرها:

ومن يطلب التأريخ فإنني	أقول مجيبًا إنّ مسكًا ختامها

٤- هادي السعيد. وهي منظومة في العقائد، ضمّنها منظومة "جوهرة التوحيد" للشيخ إبراهيم اللقاني. وهي على مذهب الأشاعرة.

---

(١) أعيان البصرة، لعبدالله باش أعيان، (ص١٦).

(٢) نقلًا عن مقدمة "مطالع السعود" (٢٤-٣١) بتصرف يسير.

(٣) المسك الأذفر (١٤٣).



٥- أوضح المسالك على مذهب الإمام مالك. نظم فيه كتاب علي بن خضر العمروسي المتوفى سنة ١١٧٣هـ في فقه المالكية.

٦- الدرة الثمينة والأضحية المبينة في مذهب عالم المدينة. وهي منظومة في فقه الإمام مالك.

٧- تحفة التحقيق لمعرفة الصديق. في ألغاز الفرائض.

٨- الشذرات الفاخرة في نظم الورقات الناضرة. وهي منظومة في أصول الفقه.

٩- نظم قواعد الإعراب. والأصل لابن هشام النحوي.

١٠- نظم الأزهرية في النحو، والأزهرية شرحٌ مختصر لخالد بن عبدالله الأزهري المتوفى سنة ٩٠٥هـ لكتاب قواعد الإعراب.

١١- نظم مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، في النحو، والأصل لابن هشام النحوي.

١٢- هدية الحيران في نظم عوامل جرجان. والعوامل في النحو؛ للشيخ عبدالقاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١هـ.

١٣- رسالة في إعراب اثني عشر، ألفها ببغداد سنة ١٢١٤هـ.

١٤- منظومة في مسوغات الابتداء بالنكِرة.

١٥- تعليقات على شرح الكافية؛ للرضى الأسترابادي.



١٦- الغشيان عن مُقلة الإنسان. في النحو.

١٧- كشف الزبَد عن سلسال المدد. بحث عن العدد، تذكيره وتأنيثه.

١٨- منظومة في العدد.

١٩- رسالة في كسر همزة (إنَّ) وفتحها، منظومة في ٤٢ بيتًا.

٢٠- جيد العروض. منظومة في علم العروض.

٢١- الجوهر الفريد على الجيد. وهو شرح على منظومته السابقة.

٢٢- منظومة في البلاغة.

٢٣- فكاهية السامر وقرة الناظر.

٢٤- نسمات السحَر.

٢٥- روضة الفكر.

٢٦- نيل السعود.

٢٧- رسالة في التصوف.

٢٨- منظومة في إبطال الرابطة وعدم شرعيتها.

٢٩- الصارم القِرضاب. قصيدة يزيد عدد أبياتها عن ألفَي بيت، ردَّ فيها على قصيدةٍ لدعبل الخزاعي الشاعر الشيعي الهجّاء، المتوفى سنة ٢٤٦هـ.

٣٠- نظم خلاصة الحساب، والأصل للبهاء الدين العاملي.



٣١- شرح نظم خلاصة الحساب في النسخة الخطية المذكورة.

٣٢- تفهيم المتفهم شرح تعليم التعلم. الأصل لبرهان الدين الزرنوجي، المتوفى سنة ٦١٠هـ.

٣٣- مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داوود.

٣٤- سبائك العسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد، ترجم فيه لأحمد بن رزق الأسعد أحد أعيان الكويت المعاصرين له، ونحو أربعين عالمًا وأديبًا ووجيهًا من مشايخ الزبارة والبحرين والكويت ونجد والعراق، ممن اتصل بأحمد المذكور بوجهٍ من الوجوه.

٣٥- أصفى الموارد من سلسال أحوال الإمام! خالد. وهو في سيرة الصوفي خالد النقشبندي، وترجمة أساتذته وتلامذته ومريديه.

٣٦- الغرر في وجوه القرن الثالث عشر.

معتقده وموقفه من الدعوة السلفية:

كان عثمان بن سند من العلماء الذين خاصموا دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وألّبوا عليها؛ نظرًا لأنها تُخالف ما نشأ عليه من بدعٍ وضلالاتٍ جاءت الدعوةُ الإصلاحية بالنهي عنها والنكير على أهلها.



ويشهد لهذا عدة أمور:

الأول: أن سبب نزوحِه من الأحساء إلى البصرة هو الخوف من وقوع الأحساء بيد الدولة السعودية[1].

الثاني: أنه تشرّب المذهب الأشعري الذي كان سائدًا في عصره، حيث درّس "شرح جوهرة التوحيد"[2]، وهو أحد أهم شروح الأشاعرة المتأخرين، ومعلومٌ ما بين المذهبين الأشعري والسلفي من التباين[3]. قال صاحب كتاب "علماء الكويت وأعلامها خلال ثلاثة قرون" عن ابن سند: "أما عقيدته فأشعري العقيدة"[4].

---

(١) مقدمة محقق (مطالع السعود)، ص١١.

(٢) لمعرفة ما في هذا الكتاب من انحرافات عقدية انظر: "الرد الأثري المفيد على الباجوري في شرح جوهرة التوحيد"؛ للشيخ عمر بن محمود أبو عمر. ورسالة "عقيدة الأشاعرة - دراسة نقدية لمنظومة جوهرة التوحيد لبرهان الدين اللقاني على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة"؛ للشيخ حسان بن إبراهيم الرديعان.

(٣) انظر لمعرفة ما بين المذهبين من التباين: رسالة "منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى" لخالد نور.

(٤) ص٢٧.



وقد سبق في مؤلفات ابن سند أن له منظومةً في العقيدة على طريقة الأشاعرة.

وكذلك فإن ابنَ سند تشرّب أيضًا التصوف وأثنى على أهله.

قال الأستاذ عبدالعزيز نوار: "تلقى عثمان بن سند بعض علومه الدينية على يد ابن فيروز الأحسائي، العالم الصوفي المشرب[1]"[2].

الثالث: أنه نال من الدعوة السلفية وأهلها في كتابه هذا "مَطالع السعود" وألصق بهم التهم والمفتريات - كما سيأتي -.

الرابع: أنه عندما حاصر إبراهيم باشا الدرعية: بعث إليه برسالةٍ وقصيدةٍ يحثه فيها - كما يقول- "على المصابرة والمجالدة لأرباب تلك البدعة الفاجرة: أبشر أيها المصابر المجاهد، والفارس المغوار المُجالد، لفرقةٍ من الدين مرقتْ، وطائفة ما افتخرت إلا بكونها للإجماع خَرَقَتْ، بالفتح من الله، لغيرتك على لا إله إلا الله، فإن قوله

---

(١) وصفه بذلك الحيدري في "عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد"، (ص٢٢٧).

(٢) بحث: "رؤية بعض كبار مؤرخي القرن الثالث عشر الهجري لشبه الجزيرة العربية" منشور ضمن: "مصادر تاريخ الجزيرة العربية" (١/ ٢٦٦).



تعالى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾، كان بتأريخ عامك هذا زعيمًا ضمينًا[1]، فوقع الفتح في ذلك العام، وقرّت به عيون الخاص والعام!

وفي ضمن تلك الرسالة قصيدةٌ اشتملت على نصائح ومصالح عديدة؛ منها قولي:

ولا تُبقِ منهم واحدًا تستطيبُهُ إذا خَبُثَ الآباءُ لم يَطِبِ الوِلْدُ"[2]

قلت: فانظر مدى حقده على أهل التوحيد، فهو وإن لم يشارك بسِنانه في حربهم، فقد شارك بلسانه وتحريضه عليهم، ليبوء بإثم ذلك (ولا يظلم ربك أحدًا).

أما قصيدته الآنفة التي يقول في مطلعها لإبراهيم باشا:

لقد فُتحت للدين أعينُه الرمدُ لدى لاحَ مِن بين السيوفِ له السَّعدُ

---

(١) يشير إلى أن مجموع حروف الآية بحساب الجُمّل يوافق تاريخ سقوط الدرعية ١٢٣٣هـ.

(٢) مطالع السعود، ط١، (ص٣١٦).وقد حذفها الدكتور عماد رؤوف من ط٢!



فقد ردّ عليها الشيخ أحمد بن مشرف -رحمه الله- بقصيدة يقول في أولها[1]:

أليلٌ غشا الدنيا أم الأفقُ مُسوَدُ

أم الفتنة الظلماءُ قد أقبلت تعدو

أم السُرُج النجدية الزُهر أُطفئت

فأظلمت الآفاقُ إذ أظلمت نجدُ

إلى أن يقول:

وقد أقذع البصريُ في ذمِّ شيخنا

وأنصاره تبًا لما قاله الوغدُ

أيهجو إمامًا هاديًا أرشدَ الورى

إلى منهج التوحيد فاتضح الرشدُ

وأبناؤه الغُر الكرام قد اقتفوا

محجته المُثلى وفي نصرها جدُّوا

فلما مضت تلك العصابة لم يقم

بعدهمُ من ضمَّه الشام والسندُ

---

(١) ديوان ابن مشرف، (ص٤٥-٤٧).



فكم فتنةٍ عمّت وكم طَلّ من دمٍ
حرامٍ وكم ضلّت عصائبُ وارتدوا

وكم قطعَ السُبُلَ البوادي وأفسدوا
فصاروا بها مثل الذئاب التي تعدو

فإن كان هذا عنده الدينُ والهُدى
فقد فُتِحت للدين أعينُه الرُمدُ!

الخامس: ثناؤه على أحد رموز التصوف في عصره وهو خالد النقشبندي[1] وتصنيفُه كتابًا في مدحه -كما سبق-، وقد ذكر الألوسي في المسك الأذفر[2] أن ابن سند: "سلك عليه -أي خالد

---

(١) ألف ابن سند -كما سبق- كتابًا عنه سماه "أصفى الموارد من سَلسال أحوال الإمام خالد". وله ترجمة - أيضًا- في: "تاريخ السليمانية" (ص٢٢٥)، و"الدر المنتثر" (٢٠٨-٢١٠)، و"حلية البشر" (١/ ٥٨٧)، و"الأعلام" (٢/ ٢٩٤).
ولمعرفة انحرافات الطريقة النقشبندية الصوفية انظر: " النقشبندية- عَرض وتحليل-"؛ للدكتور عبدالرحمن دمشقية، فقد ذكر من عقائدهم الباطلة: دعاءهم غير الله، وقولهم بوحدة الوجود، وغلوهم في من يزعمونه من الأولياء... إلى غير ذلك.

(٢) (ص٢١٧)، وقد أشار الألوسي إلى أن قصيدة ابن سند في إبطال الرابطة النقشبندية كانت قبل سلوكه الطريقة النقشبندية وتأثره بها!



النقشبندي- ودخل في طريقته".

وقال الشيخ محمد بهجة الأثري في ترجمته: "ولما قدِم بغداد مال إلى دراسة التصوف، وسلك على الشيخ خالد النقشبندي الكُردي المشهور، ودخل في طريقته، وكان الشيخ المذكور من أساطين التصوف يومئذٍ في العراق، قدم بغداد وتوطنها، فانقسم العلماء في أمره قسمين: فخاصمه ناسٌ وخرجوا في خصومتهم له إلى تأليف الرسائل في ذمه والتشهير به، ووقف بجانبه آخرون يُعظمونه ويُجلون قدرَه ويذبون عنه، فانضم ابن سند إلى هذا الفريق، ومدح الشيخ بالقصائد الطِوال، وذبَّ عنه، وألف كتابًا في الثناء عليه..."(١)

وقال محققا مَطالع السعود: "إن أكثر مَن تأثر به ابن سند، بل وقع تحت تأثيره كان الشيخ خالد النقشبندي مُجدد الطريقة النقشبندية في العراق..."(٢)

---

(١) مقدمة "مختصر مطالع السعود" للحلواني، (ي).

(٢) مطالع السعود، (ص١٧).



ولأجل منابذة ابن سند للدعوة السلفية؛ فقد حذَّر علماؤها من مَسلكه، ولاموا مَن ارتضى طريقته:

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن - رحمه الله- في رده على عثمان ابن منصور: "فقصد الزبير والبصرة، فوجد بالزبير محمد بن سلوم[1] وابن جديد[2]، وكانا من أهل نجد، فتركاها كراهيةً لهذه الدعوة، وعداوةً لَمَن دعا إلى التوحيد، ووجد بالبصرة ابن سند، وهو أشد منهما عداوةً لكل موحد، وحبًا لكل ملحد، فتلقى عن هؤلاء الثلاثة هذه البلوى، التي ابتلي بها من عداوة شيخنا، ومَن استجاب له"[3].

وقال -أيضًا- عن ابن منصور بأنه "تردد إلى البصرة واجتمع بابن سند، وقرأ عليه، واتخذه له شيخًا، وهو من أشد الناس عداوة لهذا الدين، ومن دعا إليه، يُصرح بسبهم وعداوتهم"[4]

وقال - أيضًا- بأنه كان في مجلس مع بعض الإخوان: "فانجر

(١) سبق التعريف به، وأنه من أعداء الدعوة السلفية.

(٢) سبق التعريف به، وأنه من أعداء الدعوة السلفية.

(٣) الدرر السنية (١١/ ٥١٤).

(٤) السابق (١١/ ٥٣٤).



الكلام إلى ذكر عثمان بن سند الكائن بالبصرة، فذكره بعض الإخوان ومدحه بما له به شهرةً، فقلت له: إنه اشتهر بالأشعار الخبيثة، ومدح الطريقة النقشبندية ووضعها، ومدح الظلمة والفجار، ومقامُه مع أهل القِباب واللواط وشرب الخمور والأشرار حاكمٌ بمعرفة حاله، إذ بالولاء والبراء يكون الاعتبار، ومصنفه في مدح خالد الخبيث الذي أحدث الطريقة يُطلعك على حاله بالحقيقة"(١).

وقال الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام: "إن الشيخ عثمان بن سند من كبار العلماء، ونوابغ العلم، وفي كل فن من فنون الأدب، فهو عالمُ عصرِه، وعلاّمةُ مِصرِه.

ونحن نثني عليه، وندعو له حينما تصدى للشاعر الهجّاء الخبيث دعبل الخزاعي الذي تهجّم - قبّحه الله - على سادات الصحابة أبي بكر وعمر وطلحة والزبير وعائشة وأندادهم، فهجاهم وشتمهم وازدراهم، فتصدى له الشيخ عثمان بن سند بالرد عليه بمجموعة شعره "الصارم القرضاب في نحر من سب أكارم الأصحاب" فكان في هذا الرد البليغ يشفي العليل ويروي الغليل.

---

(١) السابق (١١/ ٥٥٢). وانظر: "مصباح الظلام" (ص٢١).



ونحن نعتب على الشيخ عثمان ونلومه، وهو النجدي الأصل، ونجدُ هي منبت السلفية أن ينحاز مع المنحرفين عن هذه الدعوة السلفية، ويكون مع أصحاب الطرق الصوفية، ثم لا يكفيه هذا حتى تناول بالسب والنقد شيخ الإسلام ابن تيمية صاحب المدرسة السلفية مما جعل الشيخ عثمان بن منصور الناصري يرد عليه، وهو معاصرٌ له ومجاورٌ في العراق مدة الطلب"[1].

تنبيه:

قال الألوسي في ترجمة ابن سند: "وكان رحمه الله تعالى سلفيّ الظاهر والباطن"[2]! وقد علمتَ سابقًا أن هذا خلاف الحقيقة، إلا أن يقال بأن الألوسي يعني بالسلفية ما كان مقابلًا لبدعة الرافضة؛

---

(١) علماء نجد خلال ثمانية قرون (٥/ ١٥٣-١٥٤)، وانظر: "دعاوي المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب"، (ص٤٨) حيث عدّه من ضمن معارضي الدعوة السلفية.

ورسالة الشيخ عثمان بن منصور في الرد على ابن سند عنوانها "الرد الدامغ على الزاعم أن شيخ الإسلام ابن تيمية زائغ"، وقد قمتُ بتحقيقها، وطُبعت عام ١٤٢٥هـ عن دار التدمرية بالرياض.

(٢) المسك الأذفر (ص٢١٦).



لأنه ذكر هذا القول بعد أن أثنى على رد ابن سند على الرافضي دعبل الخزاعي.

ولعل قول الألوسي هذا هو الذي حدا كاظم الدُجَيلي أن يقول في ترجمته لابن سند: "نقل بعض العلماء أنه صار في آخر أيامه سلفيَّ العقيدة، وهذا غير صحيح؛ لأنه تكلم على الوهابية في كتابه " نيل السعود"، وذمّ طريقتهم، بل شنع عليهم، وهذا الكتاب صنفه في السنة الأخيرة من عمره"[(1)].

وقال الشيخ حمد الجاسر: "مما ينبغي أن يُلاحظ على ابن سند هذا عدم تجرده من الهوى؛ فهو ممن عادى الدعوة الإصلاحية، ومدح أعداءها، وتقرّب إليهم بما يرضيهم من الوقيعة فيها بغير حق"[(2)].

---

(١) مجلة لغة العرب (٣/ ١٨١).

(٢) مجلة العرب: (مجلد٥/ ص٨٨١). وانظر أيضًا: (مجلد ٢/ ص١٠٢٤).



ترجمة الشيخ أمين بن حسن الحلواني [1]

هو أمين بن حسن بن محمد بن محمد أمين الحلواني المدني.

قال عبدالرحمن الأنصاري في " تحفة المحبين والأصحاب في ما للمدنيين من الأنساب"[2]:

(بيت الحلواني: أصلهم الشيخ محمد أمين الهندي الكشميري الحلواني، قدم المدينة المنورة في سنة ١١٤٠هـ).

كان والدُه من أعيان المدينة النبوية وأفاضلها، حتى أن الشريف عبد الله بن عون أمير مكة أوفده سنة ١٢٧٩ في مهمةٍ إلى أمير نجد الإمام فيصل بن تركي، فكان موضع الإكرام من الإمام فيصل.

وقد نشأ الشيخ أمين في رعاية هذا الوالد الفاضل، فأمضى صدرَ حياته في طلب العلم، واقتناء المصنفات الجيدة، ولا سيما

---

(١) نقلاً عن ترجمة الشيخ محب الدين الخطيب له، في مقدمة مختصره لـ"مطالع السعود"، مع زيادات من كتاب "أعلام من أرض النبوة"؛ لأنس كُتبي (ص١٣٨-١٤٦).

(٢) (ص٩١).



المخطوطة، وقام بالتدريس في الحرم النبوي الشريف.

وللشيخ أمين الحلواني في هذا المختصر عبارةٌ تدل على أنه كان حوالي سنة ١٢٧٣ في مصر، ولعله كان يطلب العلم في الأزهر، فقد قال عن الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الوهاب - كما سيأتي -: (أما الشيخ عبد الرحمن المذكور فقد أدركتُه في الجامع الأزهر يُدرّس مذهب الحنابلة، وكان شيخَ رِواق الحنابلة سنة ١٢٧٣، وتوفي سنة ١٢٧٤، وكان عالمًا فقيهًا، ذا سمتٍ حَسَن، يظهر عليه التقوى والصلاح). وهي عبارة صريحة في وجوده بمصر عامئذٍ، فيُحتمل أنه تلقى شيئًا من علومه في الأزهر.

وفي سنة ١٢٩٠ اختصر كتابَ "مطالع السعود بطِيب أخبار الوالي داود" للشيخ عثمان بن سند، ولعلّ ما حمله على العناية بهذا الكتاب: أن والده أدرك داود باشا مدة إقامته - أي داود - في المدينة شيخًا للحرم، وكان له اتصال به، ولا يبعد أن يكون الأصلُ الذي اختصره في جملة الكتب التي كان والده يقتنيها.

وفي سنة ١٢٩٢ ألّف الشيخ أمين رسالةً يُنكر فيها صحة الآثار النبوية التي كانت الدولة العثمانية تتقرب بها إلى العامة؛ بدعوى



الحيازة لها، والاحتفال بها!

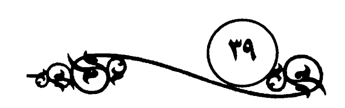
وعلى أثر ذلك قام الحلواني برحلةٍ إلى مصر وبعض بلاد الشرق العربي.

وفي مصر اتصل بالشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي، وأخذ عنه واستفاد منه، وخالط طبقة ذلك الوقت من علماء مصر وأعيانها.

وفي ربيع الأول من سنة ١٣٠١ ألف رسالته الصغيرة "جَنى النحلة في كيفية غرس النخلة"، وأكبر الظن أنه ألفها في مصر؛ ليُرشد المشتغلين فيها بالزراعة إلى تجارب أهل المدينة التي اقتبسوها من أهل القصيم في نجد - مثل بريدة وعنيزة والرسّ -، وهم أبرع مستثمري هذه الشجرة القديمة الحبيبة إلى المسلمين، والقائمين على تربيتها ورعايتها.

وفي تلك السنة: ذهب إلى ليدن وأمستردام بمجموعةٍ من المخطوطات العربية، كان اقتناها في السنين السالفة، فابتاعتها منه مكتبة ليدن الغنية بنفائس مخطوطاتها العربية.

ولمخطوطات الحلواني هذه فهرسٌ خاص، وضعه المستشرقون ووصفوا فيه مفرداتها.

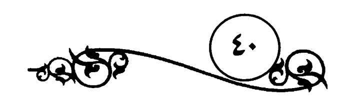


ورأينا الحلواني بعد ذلك في الهند يسعى في طبع بعض الكتب المُهمة، وأهمها ديوان " لزوم ما لا يلزم " لأبي العلاء المعرّي، وقد طبعه على الحجَر في المطبعة الحسينية في بومبي الهند سنة ١٣٠٣ بخط حسين البهائي الشيرازي، عن أصلٍ صحيحٍ مضبوط، بخط عبد الواحد بن عبد الرفيع، فرغ منه في أواسط صفر سنة ٦٣٩.

وكان الشيخ أمين الحلواني في مدة إقامته في الهند وفيًا لذلك الوطن الإسلامي العظيم، كوفائه لآداب العرب وتراثها، وقد حمله ذلك على طبع كتاب "سُبحة المرجان في آثار هندستان"؛ للبلكرامي، سنة ١٣٠٣.

وفي الهند أيضًا طبع مختصره هذا لكتاب ابن سند، عن حوادث العراق من سنة ١١٨٨ إلى سنة ١٢٤٢، في شوال سنة ١٣٠٤ بالمطبعة الحسينية، بخط عبد الغني ابن الشيخ محمد الخطيب. واختصاره هذا لتاريخ ابن سند لا شك أنه قام به وهو في المدينة، قبل خروجه منها لرحلاته في الشرق وأوروبا.

وفي سنة ١٣٠٧ طبع الحلواني في بومبي الهند ردَّه على جُرجي زيدان، وسماه "نبش الهذيان، من تاريخ جُرجي زيدان"، فهو أقدم



مِن كل الذين انتبهوا بعد ذلك لنواحي الضعف والتزوير في كتب جرجي زيدان التاريخية، وفي طليعتهم: الشيخ الهندي شبلي النعماني، ومن علماء مصر أحمد تيمور باشا، والشيخ أحمد الإسكندري.

وظهر للحلواني في سنة ١٣١٢ كتاب "السيول المُغرقة، على الصواعق المحرقة" وهو ردٌّ على أحمد أسعد المدني، من المُنتمين إلى طريقة الشيخ أبي الهدى الصيادي، لكن الشيخ أميًا لم يُصرح في هذا الرد باسمه، وانتحل اسمًا مستعارًا هو عبد الباسط المنوفي!

ومن المحتمل أن يكون المردود عليه في كتاب "السيول المُغرقة" أحد الذين شنّعوا على الشيخ أمين في سنة ١٢٩٢، بدعوى أنه أنكر صحة الآثار النبوية التي كانت الدولة العثمانية تزعم حيازتها، وكان ذلك سبب رحلة الشيخ أمين عن وطنه إلى مصر والهند وغيرهما.

مؤلفاته:

١- "مختصر مَطالع السعود بطيب أخبار الوالي داوود"؛ للشيخ عثمان بن سند البصري.

وهو كتابنا هذا.

٢- "نبش الهذيان من تاريخ جرجي زيدان"، طُبع في الهند سنة



١٣٠٧هـ، ثم قام الدكتور مازن مطبقاني بتحقيقه وطبعه سنة ١٤١٠هـ.

٣- "السيول المُغرقة على الصواعق المُحرقة"؛ وهو في نقد أحمد أسعد الرافعي أو المدني، وقد اتخذ لنفسه فيه اسمًا مستعارًا هو "عبدالباسط المنوفي".

٤- "ارتشاف الضَرَب في شرح عمود النسب" مخطوط.

٥- شروح لغوية على كتاب "لزوم ما لا يلزم"، طُبع في بومباي بالهند.

٦- "جنى النحلة في كيفية غرس النخلة".

وفاته:

قال الأستاذ محمود عبدالوهاب[1]: (ومن رحلات الشيخ الحلواني أيضًا رحلته إلى البلاد العثمانية الواقعة في شمال أفريقيا، فقد وصل إلى طرابلس المغرب، وهناك رآه بعض الأعراب، ونظرًا لبياض بشرته ووضعه النظارات الطبية على عينيه ظنوه أوربيًا جاء يتجسس عليهم لصالح بلاده! وبالرغم من تدخل كثير من أهل

---

(١) الرحّالة أمين الحلواني، مجلة "المنهل" (مجلد ١٣ ربيع الأول ١٣٧٢هـ).



طرابلس في محاولة إقناع البدو بأنه رجلٌ مسلمٌ من المدينة النبوية، إلا أن الأعراب لم يقتنعوا، وقاموا بقتله!

وكان ذلك سنة ١٣١٦هـ. رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على النبي وصحبه وآله وسلم. وبعد فإن هذا مختصر تاريخ العلامة الرحلة
الفهامة الشيخ عثمان بن سند البصري الوائلي (نسبة إلى قبيلة من عنزة وهي وائل بن قاسط بن أسد بن ربيعة
بن نزار بن معد بن عدنان) المتوفى سنة خمسين ومائتين وألف من الهجرة فتأملت منه فألفيته
كتابا جمع من تواريخ القرن الثاني عشر وبعضا من أخبار القرن الثالث عشر غرائب وفوائد كانت
اختفت عليها أيدي الزمان ولولاه لما كانت هذه الوقائع الآن إلا في زوايا النسيان خصوصا حيث عرب و
أفصح عن أخبار أعلم الوزراء وأفضل العلماء حضرة الوزير المشير شيخنا وشيخ المشايخ داود باشا والي بغداد
سابقا أبقاه الله متعنا به ولكن الشيخ عثمان بن سند لم يكتب في تاريخه إلا إلى سنة ١٢٣٢ مع أن الوزير داود
باشا استقل في ولاية بغداد إلى سنة ١٢٤٦ والشيخ عثمان بن سند عاش في الدنيا إلى سنة ١٢٥٠ فيا عجبا له
كيف أهمل هذه الخمس سنوات من ملك داود باشا على بغداد مع أنه فيما الخير في به والذي [illegible]
أن داود باشا ما تمت سلطنته وتناهت قوته إلا في هذه الخمسة السنين الأخيرة التي
الحاصل فيها لجميع أرض العراق حاضره وباديه وكرده وعجمه وفيها على ما يقال تاقت نفسه لأن يكون
سلطانا مستقلا وكان فيه الأهلية لذلك وفيها جلب الصنائع والصناع إلى بغداد من أهل أوروبا ومن
سائر الأقطار وأخذ في أسباب التمدن والعمران وأمر بصنعة المدافع والبنادق على الطرز الجديد وفيها
شكل جيوشا عسكرية منتظمة متعلمة مخصوصة [illegible] بلغت جيوشه إلى أكثر من مائة ألف
وبهذه الجيوش والاستعداد طمع في أنه يستولي على جميع آسية الصغرى والكبرى وكان دائما يطمح
أنظاره للاستيلاء على بلاد العجم وقد دخلهم الرعب والخوف منه [illegible] الغريبة
الأشكال والأوضاع ولكنه لم تساعده المقادير [illegible] بينهما
هو في هذه الأبهة والسلطنة والاستقلال والخروج [illegible]
السلطان محمود خان العثماني جيشا [illegible] عليه
داود باشا [illegible]

صورة الورقة الأولى من مختصر الشيخ الحلواني

٦٢

اجازة في رحلة متوجهاً في طريق القوم بإجازات كردية ملوكية ... من طولها السامع باب ... في ذكر من
أخذ العلم عن داود باشا واستفاد وأمنه وهم جماعة يطول شرحهم ولكن لا يذكر كله لا يترك كله فمنهم السيد الشريف
خليفة العترة السيد محمود البرزنجي قرأ عليه جميع العلوم وتخرج على يديه إلى أن صار هذا السيد من أرباب الكمالات
المشار إليهم في العراق وممن أخذ عن الوزير داود باشا أحمد أفندي بن النائب المتقدم الذكر ولكن الظاهر
انه خرج عن مقولة العلماء ودخل في مقولة الأمراء والحكام وكان أمين الوزير داود باشا و
كاتم سره والرهنا انتهى تاريخ العلامة الشيخ عثمان بن سند البصري الوائلي وما ذكر بعد
هذا الفصل الا حكايات على طريق الأحاجي والألغاز فجعلها مثل المقامات على لسان شخص سماه
مقلاص بن مزاحم وصار يطارحه في أخبار العرب وأشعارها وآثارها ولا بأس بها من مقامة
الأهلي بلاغة منشيها منبئة على قوة علمه وسعة اطلاعه ولكن لا يهمنا هذا المختصر فلهذا
ضربت صفحاً عن ذكرها هذا ما تيسر جمعه لكاتبه الفقير إلى الله
تعالى خادم العلم بالروضة الشريفة أمين بن حسن حلواني المدني
عفى الله عنه وذلك في سنة تسعين بعد المائتين والألف
من الهجرة المحمدية وصلى الله على سيدنا محمد
خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه
هداة الدين وقدوة
المسلمين
م م

تم طبع هذا الكتاب في مدينة مبئي في المطبعة الحسينية في غرة شوال سنة ١٣٠٤ هجرية وقد
أخذ مؤلفه أمر الرجستري من الحكومة بحيث أنه صار الإقدام على طبع هذا الكتاب مرة ثانية
بإذن المؤلف لا غير ومن تجاسر وطبعه بغير إذن مؤلفه فالمسؤولية عائدة عليه على
حسب قوانين الدول المتمدنة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
كتبه الغريب عبد الغني بن الشيخ محمد الخطيب
عفى الله عنه

هو شيخ الإمام العارف بالله تعالى الشيخ عثمان بن سند البصري
من أعلام أوائل القرن الثالث عشر الهجري المتوفى في ١٢٤٢ في
بغداد ودفن بجوار معروف الكرخي رضي الله عنه آمين

صورة الورقة الأخيرة من مختصر الشيخ الحلواني



صورة غلاف طبعة الشيخ محب الدين الخطيب لمُختصَر الحلواني



وزارة الثقافة والإعلام

الدار الوطنية للنشر والتوزيع والإعلان

مطالع السعود

تاريخ العراق من سنة ١١٨٨ إلى سنة ١٢٤٢ هـ /

١٧٧٤ - ١٨٢٦ م

صورة غلاف الطبعة الأولى لـ"مطالع السعود"



مَطالعُ السُّعود بطيبِ أخبار الوالي داود

تاريخ العراق ونجد

سنة ١١٨٨هـ/١٧٤٧م إلى سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م

تأليف

عثمان بن سند الوائلي البصري

تحقيق

د. عماد عبد السلام ر[illegible]

صورة غلاف الطبعة الثانية لـ"مطالع السعود"



مُخْتَصَر
مَطالع السُّعُود بطِيبِ أخْبارِ الوالي دَاود
لعُثمان بن سَنَد
(ت ١٢٤٢ هـ)

اختَصَرَه
الشيخ / أمينُ بن حسن الحَلَواني المَدَني
(ت ١٣٣٠ هـ)

وبهامشه تعليقاتٌ للعلّامة محب الدين الخطيب
(ت ١٣٨٩ هـ)

عُني به

سليمان بن صالح الخراشي

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وصلى الله على النبي وصحبه وآله:

سألتَ - أيدك الله - أن أختصر لك تاريخ العلاّمة الرِّحلة الفهّامة: الشيخ عثمان بن سَنَد البصري الوائِلي (نسبةً إلى قبيلة من عنزة وهي وائل بن قاسط بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معدّ بن عدنان) المتوفى سنة ١٢٥٠ خمسين ومئتين وألف من الهجرة؛ فَتَأَمَّلْتُ منهُ فألفيتهُ كتابًا جمع من تواريخ القرن الثاني عشر وبعضًا من أخبار القرن الثالث عشر غرائبَ وفرائِدَ، كانت أَخْنَتْ عليها يدُ الزمان[1]، ولولاه لما كانت هذه الوقائع إلا في صندوق النِسْيان؛ خصوصًا حيث أعرب وأطنب عن أخبار أعلم الوزراء وأفضل العلماء: حضرة الوزير المشير شيخنا وشيخ المشايخ: داود باشا، والي بغداد سابقًا - برّد اللهُ مَضْجَعَه -.

ولكن الشيخ عثمان بن سَنَد لم يُكتب في تاريخه إلا إلى سنة ١٢٤٢، مع أن الوزير داود باشا ظل في ولاية بغداد إلى سنة ١٢٤٧،

---

(١) أفسدته وأهلكته.



والشيخ عثمان ابن سند عاش في الدنيا إلى سنة ١٢٥٠، فيا عجبًا له كيف أهمل هذه الخمس سنوات من تملُّك داود باشا على بغداد! مع أنه فيما أخبرني به والدي رحمه الله[1] أنَّ داود باشا ما تمت سلطنته وتناهت قوته إلا في هذه الخمسة السنين الأخيرة، الذي أطاعه فيها جميعُ أرض العراق، حاضِرُه وباديه، وكُردُه وعَجمُه، وفيها على ما يُقال تاقت نفسه لأنْ يكون سلطانًا مُسْتَقِلاً، وكان فيه الأهليّة لذلك، وفيها جَلَبَ الصنايعَ والصُّنَاعَ إلى بغداد من أهل أوربا بل ومن سائر الأقطار، وأخذ في أسباب التمدن والعُمران، وأمر بصَنعة المدافع والبنادق على الطرز الجديد، وفيها شكَّلَ جيوشًا عسكرية مُنظّمة، بتعليماتٍ مخصوصةٍ اخترعها لهم، إلى أن بلغت جيوشُه إلى أكثر من مئة ألف، وبهذه الجيوش والاستعداد طمَع في أنه يستولي على جميع آسيا الصغرى والكبرى، وكان دائمًا مَطمحَ أنظاره الاستيلاءُ على بلاد العجم، وقد دخلهم الرعب والخوف منه ومن جيوشه ومن تعليماتهم الغريبة الأشكال والأوضاع، ولكنه لم تساعده المقادير كما ساعدت

---

(١) لأنه عاصر داود باشا، ولقيه في المدينة مدة ولايته مشيخةَ الحرم النبوي في آخر حياته. وفي البلدة الطيبة سنة ١٢٦٧ كانت وفاته. (الخطيب).



محمد علي باشا والي مصر، فإن داود باشا بينما هو في هذه الأُبَّهَةِ والسَّلطنة والاستقلال والخروج عن طاعة الدولة العليّة؛ إلاّ وقد أرسل عليه السلطان محمود خان العثماني جيشًا نحو العشرين ألفًا، ورئيسهم علي باشا اللاَّظ[1]، فلما قَرُب من بغداد ضَحِك داود باشا واستهزأ بهذا الجيش الضعيف الذي يُريد أن يستولي على بغداد، فأخذه الغرور وقال: لو نُرسل على هذا الجيش نساءَ بغداد لما يطيق مقاومَتَهُنَّ!

إلا أن الوزير داود باشا لا يعلم ما هو مَخبُوءٌ له في طَيَّاتِ القَدَر.

فبينما هو يُعبِّي في جيوشه ويستعد لمحاربة علي باشا اللاّظ، وأملُه أسرُ جميع الجيش، ثم الاستيلاء على ما وراءه، إلاَّ وقد دَهَمهُ الوباءُ الطاعوني داخِلَ بغداد، الذي أفنى أكثر أهل بغداد، وقيل إنه كان يموت في كل يومٍ أكثر من عشرة آلاف نفس، هذا داخل بغداد، وأما جيش علي باشا اللاّظ فلم يُصبْه شيءٌ من ذلك الطاعون، وذلك تقدير العزيز العليم، وانقلب الفرحُ حُزنًا، وصار الصُّرَاخُ في كلِّ بيتٍ من بيوت بغداد، وقيل إن الذي مات بهذا الطاعون من أولاد داود باشا لِصُلبِهِ أزيد من عشرة أولاد يركبون الخيلَ،

(١) والي حلب. توفي سنة ١٢٦١هـ.



فانكسرت نفسُ داود باشا، ودخله الغمُ والهمُ والحُزن، وانفَتَّ عَضُدُهُ، وانفل جيشُه: بعضهم بالموت، وبعضهم بالهرب والفرار إلى البوادي والقِفار.

فلما طلب علي باشا اللاّظ المحاربة معه لم يَسَعْه إلاَّ المُصالحة، على أنه يُسَلِّم إلى علي باشا بغدادَ بما فيها، وداود باشا يسكن إسلامبول، فسافر داود باشا إلى إسلامبول، وظل فيها إلى سنة ١٢٦٠، وكان مُعَظَّمًا عند السلطان محمود، ثم عند ابنه السلطان عبد المجيد ورجال دولته؛ لِسِنّ داود باشا وعلمه، حتى أن كِسوتَه الرسمِيَّة يوم العيد كان مكتوبًا على صدرها: شَيخُ الوزرَاء، هكذا بالطِراز المذَهَّب؛ لأن هذا كان لقبُه خاصةً، ثم إن السلطان عبد المجيد أرسله شيخًا على الحرم النبوي سنة ١٢٦٠، وبقي في المدينة مشتغلاً بالعلوم والتدريس، ونفَع أهلَ المدينة من جهة العلوم نفعًا تامًا، وكان أمَلُهُ أن يفتح مدرسة حقيقيَّةً بأمر الدولة في المدينة لتعليم أهلها سائرَ العلوم والفنون، ولكن اخترمته المنية في سنة ١٢٦٧، ولم يتم مرادُه، ودُفن بالبقيع الشريف تجاه قُبة سيدنا عثمان بن عفان، وأمَر أن لا يُبنَى على قبره بناءٌ ولا قُبة؛ اتباعًا للسُنة، وإنما جعلوا شُبَّاكًا من الحديد حولَ قبره، وما أعلم هل كان ذلك بوصيةٍ منه أم لا ؟



ولكن: لو نظرنا إلى أصلِ السبب في منع البناء على القبور؛ وهو خوف احتكار مقابر المسلمين - خصوصًا هذه البقاع الشريفة- لنجِدُ أَنَّ الشُبّاك من الحديد هو أشدُ احتكارًا وأثبتُ وأبقى من البناء، إلاَّ أن المرحوم داود باشا كان مُطلعًا على دقائق الشريعة، فلربما أنه يكون له وجهٌ في وضع الحديد على قبره(١).

ومن آثاره بالمدينة: البستان المعروف بالداودية، خارج المدينة، بقرب ضريح سيدنا محمد الزكي، عند منهل العين الزرقاء، ولما أتمّ بناءَه وغرسَه أرّخه شاعر العراق بالاتفاق: الشيخ صالح التميمي(٢) بقصيدةٍ، وجعل آخرها تاريخًا، وهو قوله: تاريخُهُ غَرسُهُ؛ فأَعجب

---

(١) السبب في منع البناء على القبور ليس خوفَ الاحتكار، إنما منعًا لأسباب الغلو في الميت، الذي يؤدي للبدع والشركيات.

(٢) هو الشيخ صالح ابن الشيخ درويش ابن الشيخ زيني، من بني تميم، وهو فوق كونه شاعرًا له تاريخٌ اسمه "شَرَكُ العقول وغريب المنقول" ذكره السيد محمود شكري الألوسي في "المسك الأذفر" ص ١٤٩، وقال:/ إنه في مجلدين، مرتّب على السنين من سنة ١٢٠٠ إلى سنة ١٢٤٠، ذكر فيه أيام الوزير داود باشا، وله كتابٌ آخر عن شعراء زمن داود باشا، اسمه "وِشاح الرود والجواهر والعقود في نظم الوزير داود". (الخطيب).



داود باشا، وأعطاه جائزةً ألف ريال.

وبموته ماتت العلوم والمعارف وراغبوها، فرحمه الله رحمةَ الأبرار.

وأصلُ تاريخ الشيخ عثمان بن سنَد كبيرٌ؛ نحو الأربعين كُرَّاسًا، أَلَّفه في أخبار العراق وتراجم رجاله، وعلى الخصوص مناقب الوزير داود باشا، وكان سماه "مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود"، وهذا هو ابتداء تبييض التاريخ المذكور؛ فكان مجموع اسم الكتاب تاريخًا له (١٢٤٩).

والفقيرُ قد اختصرته، وذكرتُ الوقايعَ التاريخيةَ فقط، وحذفت الأشعارَ والمدائحَ والنثر الطِّوَالَ، ولم أُخِلَّ بشيءٍ من وقائعه التاريخية، وكلُ ما كان بين قوسين فهو من زياداتي؛ إما لتوضيح كلامٍ مُبهَم، أو لتفصيل أمرٍ مُجمَل، وقد وجدتهُ يُعَبِّر ببعضِ عباراتٍ ليست مألوفةً عند المتأخرين، ولكن لم يمكنني إلا مجاراته كي لا أخرج عن المعنى الأصلي الذي أراده هو، وقد جعل أوله سنة ١١٨٨، وهي السنة التي وُلِد فيها المُترجَم داود باشا، وكان من الأسباب التي حَثَّت الشيخ عثمان بن سند على تأليف هذا التاريخ كما ذكره في الأصل: هو الأديبُ عبد القادر بن عُبَيْدالله الحيدري قاضي البصرة، والحاج محمد أسْعَد



المشهور بابن النائب، فسوَّده وجمعه، ثم إن الوزير المترجَم دعا الشيخ عثمان بن سند إلى بغداد في سنة ١٢٤٠، وأكرمه، وأمره بتبييض تلك المسوَّدة؛ لأجل أن يتخلد ذكرُه وعدلُه بين الأمم.

قال الشيخُ عثمانُ بنُ سَنَدٍ البصري - برّد الله مَضجَعه-:

وُلِدَ الوزير داود باشا والي بغداد سنة ١١٨٨، وذلك بشهادة التخمين؛ لأنه لما تولّى الخازندارية لسليمان باشا كان عمرُه سبعًا وعشرين سنةً، وأخبر هو بنفسه أنه لما أتى بغداد كان عُمره إحدى عشر سنة[١]، والوزير سليمان باشا محاصرٌ للحِسْكَة[٢] من أرض الخزاعل (في بعض الأماكن يُعبر عنها بخُزاعة والكلُ واحد) ثالثَ مرة، وذلك في سنة

---

(١) الوزير سليمان باشا من ولاة بغداد، ذكره السيد محمود شكري الألوسي في ترجمة السيد أحمد الطبقجلي، بـ "المسك الأذفر" (ص ٩٠) وكان داود باشا في هذه السن من طفولته مملوكًا لسليمان باشا، ونشأ في بيته، وترقى في دولته. وولي بغداد بعد سليمان باشا ابنه سعيد باشا، فبلغ داود باشا في زمن سعيد باشا وظيفة (الدفتردار) وهي أعلى الوظائف المالية في الولايات العثمانية، ثم قتل سعيد باشا فعُيِّن داود باشا واليًا على بغداد كما سترى تفصيل ذلك في هذا التاريخ. (الخطيب).

(٢) تُعرف الآن بـ (الديوانية).



١١٩٩ (وحكى لي غيرُ واحدٍ من ثقات بغداد أن أصلَ داود باشا مملوكٌ كُرجِيٌّ[١]، جلَبه بعضُ النخاسين إلى بغداد؛ فاشتراه مصطفى بيك الربيعي، ثم باعه على سليمان باشا والي بغداد، فربَّاه سليمان باشا وعلّمه القرآن، وأدَّبه فأحسن أدبَه، إلى أن وصل إلى ما وصل إليه من العلوم والمعارف والديانة، التي يشهد بها عدوُّه وصديقُه، إلى أن انتهت إليه وزارة بغداد كما سيجيئُك مفصّلاً).

فصل: في ذكر وقائع سنة ١١٨٨

منها: محاصرة كريم خان الزندي[٢] للبصرة بجنوده الروافض

---

(١) الوزير سليمان باشا من ولاة بغداد، ذكره السيد محمود شكري الألوسي في ترجمة السيد أحمد الطبقجلي، بـ "المسك الأذفر" (ص ٩٠) هكذا يقول شمس الدين سامي في "قاموس الأعلام" (ص ٢١١١). (الخطيب).

(٢) كان كريم خان هذا من رجال دولة نادر شاه – الذي حاول التقريب بين الشيعة وأهل السنة بإجبار الشيعة على أن يعترفوا بفضل أصحاب رسول الله ﷺ، وأن يجتنبوا كلَّ ما يعده المسلمون كفرًا، كما ورد تفصيل ذلك في كتاب "مؤتمر النجف" – فلما مات نادر شاه عن غيرِ وارث يصلح لإدارة المملكة الإيرانية، انتهز كريم خان هذه الفرصة، وكوَّن من قبيلة (زند) فرقةً عسكرية منظَّمة، واستولى بها على جهة فارس وعراق العجم من مملكة
==



العجم، ومعاناة أهلها لشدة الحروب معه، إلى أن أكلوا الكلاب والهِرَرَ والفيران، وكان متسلِّم البصرة إذ ذاك سليمان بيك، الذي آل إليه أمر بغداد فيما بعد، وصار يُسمى سليمان باشا أبا سعيد، وهو سيد داود باشا، وكان الوزيرُ في بغداد عمر باشا، وكان سلطان الإسلام: السلطان عبد الحميد الأول[1]، ولم يمدَّ السلطان متسلِّمَ البصرة بشيءٍ في هذه الشدائد، وقد حضر لمساعدة أهل البصرة: ثامر بن سعدون[2] وثُويني بن عبد الله[3]، أولَ المحاصرة، فلما رأيا قوة عسكر العجم؛ فرَّا إلى البادية بقومهما هاربين، وعمر باشا يستمد

==

إيران، واتخذ شيراز عاصمة له، وبقيت جهة خراسان في أيدي الضعفاء من ورثة نادر شاه، وسواحل بحر الخزر تغلّب عليها حسن خان جد الملوك من أسرة قاجار، فحكم كريم خان مدة عشرين سنة (١١٧٣ - ١١٩٣)، وفي خلال هذه المدة هاجم البصرة على ما يذكره مؤرخنا ابن سند. (الخطيب).

(١) تولى السلطنة سنة ١١٨٧ عند وفاة أخيه السلطان مصطفى الثالث. (الخطيب).

(٢) أمير قبائل المنتفِق، قُتل عام ١١٩٣هـ.

(٣) أمير قبائل المنتفِق، تولى الإمارة بعد ثامر، قُتِل عام ١٢١٢هـ.



من الدولة ويستغيث، فلا تمدُّه ولا تسمع نِداه؛ لما هي فيه من أهوال الحروب مع الروس(١).

وفي آخر الأمر أمَدَّت الدولةُ العليّةُ واليَ بغداد بجيشٍ جسيم، لكن لعدم الضبط والربط كان أكثر الوزراء خُوّنًا، وكان رؤساء ذلك الجيش ثلاثة: عبد الله باشا وعبدو باشا ومصطفى باشا (فلعلهم إما ارتشوا أو جبنوا)؛ لأنهم أشاعوا أن السلطان عبد الحميد اصطلح مع ملك العجم كريم خان، وأنه عن قريبٍ تنفك المحاصرة عن البصرة، وذلك ليُثبطوا هِمة العسكر النيجارية عن القتال، والهجوم على العدو، للمغروز في طباعهم، وصَوَّروا فرَمانًا عن السلطان بالكذب، مضمونه هذا الصلح، وعزل عمر باشا وتولية مصطفى باشا بدله، وكلُ هذا افتراءٌ على السلطان، ولبُعد المسافة ما بين بغداد وإسلامبول، وعدم ارتباط البوسطات بينهما، كان يتعذر وصول

---

(١) التي انتهت سنة ١١٨٨ بإذعان الدولة للتوقيع على معاهدة قاينارجة، وتسليم بعض القلاع العثمانية للروس، والاعتراف باستقلال القرم الذي كان توطئة لاستيلاء الروس عليها بعد ذلك بثلاث سنوات. وكان من الدناءة والغدر والإسفاف: بغي الإيرانيين على البصرة والدولة العثمانية في مثل هذه الظروف! (الخطيب).



الخبر الحقيقي إلى محلِّه، خصوصًا مع غِلَظِ حُجاب ملوك آل عثمان، فإنه ما أَوْهَنَ الدولة وأضعفها إلا هذان السببان.

فأمّا ما كان من عمر باشا؛ فإنَّه لما بلغه عزلُه خرج عن البلد وخيّم بالجانب الغربي منها، وتجهز للسفر إلى إسلامبول، فبعد أيام هجم عليه رجال مصطفى باشا في الليل، وأخرجوا فرَمانًا كذبًا ثانيًا بقطع رأس عمر باشا؛ لإهماله في أمر البصرة، وقطعوا رأسَه عَلنًا؛ لأن مصطفى باشا ظهر أنه محبٌ للعجم في الباطن ويُظهر خلافه للعامة، فكتب إلى مُتسلِّم البصرة سليمان بيك أن المَدَدَ لكم بعيد من الدولة العليّة، فإما أن تصطلح مع العجم، وإما أن تُسلم البلدة لهم، وكتب إلى الدولة بأنَّ صُلْحَنا مع العجم انتظم، وأن جيوشَهم تفرقت عن البصرة ورجعت إلى ممالكهم.

فلما ورد على سليمان بيك ما أرسله مصطفى باشا سُقِط في يده، وأحضر أعيان البصرة وقرأه عليهم، فحينئذٍ أيقنوا بالهلاك، فخرج جماعة من الأعيان طالبين من صادق خان رئيس عسكر العجم الأمان للنفوس والأعراض[1]، وأباحوا له ما سواهما، فدخل البصرة

---

(١) صادق خان أخو كريم خان ملك شيراز، ولما مات كريم خان سنة ==



بعسكره وهتكها وفضحها، ولم يبق مأثمًا إلا ارتكبه هو وقومه، ولم يَفِ بشيءٍ مما وعد به من العهود، وما ترك نوعًا من الظلم إلا تجشَّمه، أفعالٌ ولا أفعال التتار، وأمر الناس بسبِّ الصحابة جهرًا عَلَنًا على المنابر والمناير؛ خصوصًا أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة، ونُودي بحيَّ على خير العمل[(١)]، وهرب كلُ مَن له قدرةٌ من أهل البصرة إلى البراري والقِفار، وبعضهم ركب البحر إلى ما شاء الله، لا يَعلم أين يتوجه، فخربت البلاد وخلت، وتعطلت تلك المساجد والمشاعر والمدارس[(٢)]، وجميع أعيان البلد ومَن يُظنُّ فيه الغِنا في الأغلال والحديد يُعذَّبُون لإخراج المال المدفون، على زعم العجم، والعصا

==

١١٩٣ خلَفه زكي خان، وتوفي سنة ١١٩٣ فتولى صادق خان هذا حكومة شيراز مدةَ سنتين، وكان غير أهلٍ لأمانة الحكم، وأساء السيرة في وطنه كما فعل في البصرة، فقُتِل سنة ١١٩٦، وتولى بعده على مراد خان، وانتقل الأمر بعدهم إلى وزيرهم لطف علي خان، وانقرضت به الدولة الزندية سنة ١٢٠٨ باستيلاء الملوك من آل قاجار على إيران كلها. (الخطيب).

(١) وأيُ خيرِ عملٍ يُنادي به مرتكبو شرّ الأعمال! (الخطيب).

(٢) هذا؛ مع أن كريم خان يعدونه في الإيرانيين من أنصار العلم والإصلاح، فإذا كان هذا شأنه، فما هو حال قادة الجهل والفساد من قومه؟! (الخطيب).



والسياط تشتغل ليلاً ونهارًا على الأمراء وعلى حريمهم المخدَّرات، وأمثال هذه الفظائع التي تقشعرُّ من سماعها الجلودُ.

وأمَّا سليمان بيك مُتسلِّم البصرة ومعه جملةٌ من أعيانها فنقلوهم إلى شيزار؛ لأجل أن يصير تعذيبُهم هناك بحضرة الشاه.

ولما سمع الأديب الشيخ عبد الله البيتوشي الكردي بما أصاب البصرةَ وأهلَها من هذه الفئة الطاغية المتوحشة؛ كتب كتابًا وقصيدةً، وضمّنهما من البلاغة ما يليّن الصَّخر، وأرسله إلى صاحب النخوة والإنسانية: الأمير سليمان بن شاوي الحِميري؛ لأنه كان من المعدودين إذ ذاك في بغداد، يَسْتَصْرِخهُ ويستنجد منه نصرةَ أهل البصرة، فلما وصل الكتاب إلى ابن شاوي، ضاقت الدنيا في عينه، ولم يمكنه لا المساعدةَ ولا المجاوبةَ؛ لأن ظروفَ الأحوال تقضي بذلك.

ثم إن عسكر العجم لـمّا ملكوا البصرة وفعلوا فيها ما فعلوا، استَخفُّوا بقبائل العرب، وازدروا بالدولة العليّة كل الازدراء، فطمحت نفوسُهم لغزو بلاد المنتفِق[1]، فجهّز صادق خان جيشًا

---

(١) بلاد المنتفِق - أو المنتفِك - مقاطعة من أربع مقاطعات كانت تتألف ==



عرمرمًا من كل حَلوق اللِحية وله شاربان نحو شبر، وله عينان يتقاذف منهما الشرر، ومن كل فظٍ غليظٍ له لحيةٌ إلى عانته، وما كأنَّهُم إلا مَرَازِبَةُ كِسرى غاطسين في الحديد والزُرَد!

فتهيَّأَ عربُ المنتفِق لهم في محلٍ يُسمى بالفُضَيلة، قريبًا من الفرات غربيه، والتقى الجمعان، فما كان إلا بُرهة وقد اختلط العرب بذلك الجيش، ولعبت سيوف العرب كأنها مخاريق المشعوذين، فما استتم نصفُ النهار إلاَّ والهزيمة على عسكر العجم، وولَّوا الفرار، والتزمت العربُ منهم الأدبارَ، وأكثر هلاك العجم كان بالغرق، وسببه أنه اقتضى رأيُ رئيسهم أن يجعل الفرات خلفَهم حتى لا يهجم عليهم العرب مِن خلفهم، فإنهم تعوَّدوا بأن خيل العرب لها خِفةٌ شديدة في الالتفاف خلف العدو، فكان هذا هو السبب في هلاك عسكر العجم؛ لأنهم لما بدت فيهم الهزيمة لم يجدوا مفرًا إلا النزول في الفرات؛ لأجل أن يَقُومُوا إلى البر الآخر، فلحقتهم العرب بخيلهم

==

منها ولاية البصرة، وهي في شمالها الغربي.

وفي شمالها الشرقي مقاطعة العمارة، وهما بين البصرة وبغداد. (الخطيب).

قلت: انظر للزيادة عنها وعشائرها: "تاريخ المنتفق "؛ لسليمان فائق.



التي تسبق الرياح، وصاروا يطعنونهم وهم في الماء، فانظر كيف اجتهادُ رئيس العجم هو الذي أورث قومَه الهلاك والدمار، وما أظن هذه الهزيمة والفشل والقتل الذي أصاب العجم إلا مجازاةً لما فعلوه في أهل البصرة، ومكافأةً للغدر بالعهود.

ثم إن باقي عسكر العجم دخلوا البصرة منكسين الرؤوس، رافعين ألوية الخزي، فحنق صادق خان وعزم على محاربة العرب مرةً ثانية؛ لأخذ الثأر وغسل العار، فجمع الجموعَ، وجدَّد آلاتٍ غير التي تركوها عند العرب؛ من الأسلحة والخيول والعُدد، وأرسل واستنجد بعسكرٍ جديدٍ من أخيه كريم خان سلطان العجم بشيراز، وكان كالباعثِ على حَتفه بظِلفه، وما درى أن الدوائرَ على الباغي تدور، فخرج عسكر العجم من البصرة مرةً ثانية بجيشٍ جَرار، غاطسٍ في الحديد والسيوف المجوهرة أضخم من الجيش الأول، ورئيسهم محمد علي خان، المشهور بينهم بالبسالة والظفَر وإدارة الجيوش، وكان مع عسكر العجم عربُ بني كعب **الروافض**، والذي جرَّأهم على ذلك عِلَّةُ الدِّين والملَّة، وكان رؤساء المنتفِق: ثويني وثامر الشبيبين، فالتقى الجيشانَ في أبي حِلاَّنَةَ، فعندما شاهد العربُ كثرةَ جيش العجم وقوةَ استعداده؛ جنحوا للصُلح، وأرسلوا



لـمُحمد علي خان في ذلك، فشرط عليهم شروطًا تأباها شِيَمُ العرب، وتودُّ الموتَ والفناءَ والجلاء دونها؛ منها الإتَاوَة، ومنها سبُ الصحابة علنًا على المنابر والمنابر، فما قبل منهم ثويني وثامر هذه الشروط، واستعدوا للموت، ثم إن محمد علي خان استشار شيخ الكثير عَلوان، فأخبره بمكيدة في تعبئة الجيش تضرُ بالعرب، ولكن ثويني وثامر فهماها وتحذَّرا منها.

فلما التقى الجمعان ودار الضربُ والطِّعانُ، وتطايرت الرؤوس عن الأجساد، وصاحت الأبطالُ على بعضهم صيحاتٍ يذوب منها قلبُ الجبان، فما كان إلا خمسُ ساعاتٍ وانفلَّ جيشُ العجم وانهزم، وقُتل محمد علي خان رئيس جيش العجم، وتشتت جيش العجم شذرَ مذر، وفرُّوا، وتركوا الأرض مصبوغةً بالدماء، وجِيَف العجم ظلت مطروحةً أشهرًا، إلى أن أنتن منها الجوُّ، وشبعت منها الطيور والسِّباع، وغنمت العربُ من هذه الوقعة غنائمَ من أسلحةٍ ومناطقَ مُرصّعةٍ بالجواهر لم يعرفوها ولم يسمعوا بها، خصوصًا والعجم متمولون من أموال أهل البصرة.

وهذه الهزيمة الثانية على العجم المسماة بواقعة أبي حِلاَّنة كانت هي السبب في تقصير همةِ العجم عن أخذ جميع العراق.



فلما استقر عربُ المنتفِق في ديارهم وأوطانهم آمنين منصورين غانمين؛ وفدت عليهم الشعراء، فصاروا يجيزونهم بالعُلب المجوهرة، والسيوف المرصَّعة، وممن حضر ذلك اليوم وأبلى فيه بلاءً حسنًا: حمود بن شامر، وكان شابًا ما طرَّ شاربُه، ومحمد بن عبد العزيز بن مغامس. وهذه الواقعة كانت سنة ١١٩٧.

ولنَرجِع إلى أخبار الوزير عمر باشا والي بغداد؛ فإنهم بعدما قطعوا رأسه، وأفضت ولاية بغداد لمصطفى باشا -كما تقدم ذلك-: تحقق عند الخاص والعام أن مصطفى باشا جبانٌ خائنٌ غدّارٌ، أولاً: لعدم إنجاده لأهل البصرة، وثانيًا: لكذبه وافترائه على السلطان بالفرَمانات المزوَّرة، فبناءً على هذا: خرج عليه عبد الله باشا ونابذه، واستولى على قُرى شرقي بغداد، وشرع في محاربة مصطفى باشا الوالي، فضاق الخناق على الوالي، فأرسل إلى الدولة الشكاية والسِّعاية في عبد الله وما فعله من المخالفة، فصادف ذلك غضبَ الدولة على مصطفى باشا؛ لعدم مساعدته أهل البصرة، فانقلبت السِّعاية عليه، فما مضت أيام إلا وقد ورد فرَمان من الدولة بعزل مصطفى باشا عن ولاية بغداد، وتولية عبدي باشا بدله.



وأمّا عبد الله باشا فتمادى على عصيانه وخروجه.

ثم في هذه الأيام بلغ السلطان استيلاءُ العجم على البصرة وما فعلوه فيها، وقتل عمر باشا (انظر لهذا السلطان الذي تؤخذ ممالكه ولا يبلغه خبرها إلا بعد أربع سنين!) فحالاً جاء فرَمان من السلطان بقتل مصطفى باشا عَلَنًا، ولام الوزراءَ على كتمانهم هذه الأمور عنه، وتأسف على قتل عمر باشا؛ لأنه كان رجلاً صالحًا[1].

ولما بلغ السلطان خروجُ عبد الله باشا واستيلاؤه على جانبٍ من العراق بالسيف؛ أرسل فرَمانًا بعزل عبدي باشا وتولية عبد الله باشا بدله، وأمره أن يتوجه إلى البصرة.

فأما ما كان من عبد الله باشا فإنه لما استقر على كرسي ولاية بغداد أخذه الغرورُ والكِبرُ، واشتغل باللذات والشهوات النفسانية البهيمية بجميع أنواعها، ولم يلتفت إلى أمر السلطان بمحاربة البصرة وفَتْحِها، بل صار يوعد ويُسوِّف ولم يهمه أمر البصرة أصلاً، وظن أن وزارة

---

(١) وكيف يكون صالحًا وهو من رجال دولةٍ متخومةٍ بالفساد؟ وسترى قريبًا أن رَسَن عمر باشا كان في يد مُخنثٍ إيرانيٍ يُسمَّى عجم محمد! (الخطيب).



بغداد هي عبارة عن الاتكاء في صدر المجلس ودخول الناس عليه والتسليم بالوزارة، وارتكابه من الفسوق والفجور والظلم كلَّ ما يريده، لا يُعارضه فيه معارضٌ، ولا يُنازعه منازعٌ، بل أغلب المنافقين يُحسِّنون له جميعَ أفعاله؛ فاختلت الأمور وثارت عليه العصبيات من كل وِجهة، ومما ينبغي أن يُتنبه له أن بطانةَ الملك هي المُصْلِحةُ المُفْسِدة، وأن أدعية المظلومين كالسِّهام المسدَّدة، فمما أوجب في حكم عبد الله باشا الاختلال تقليدُه جميعَ أموره لعجم محمد العجمي الإيراني، الذي هو أدنى أوصافه القِوادة، ويفتخر بها! ويقول: ما وصلت إلى ما وصلت إليه إلا بهذه الصّنعة الشريفة!

وأما مناقبه؛ فهو عَجم محمد العجمي الإيراني الرافضي، ورد من بلاد العجم وهو أمرد، جميل الصورة، ومعه أختاه وأمه، فصار يُغَنِّي وأختاه ترقصان عند أكابر الدولة والأمراء، فنفق سوقُه في بغداد، وأقبل عليه أهل الفجور والفساد من أمراء بغداد وأعيانها، ونَبُهَ وعَظُم وصار يتوسط للناس في قضاياهم، ويَرْتَشي ويُهْدَى إليه الهدايا، وداهنه أرباب الحاجات، ونفعَ وضرّ، إلى أن صار يُعَدُّ من رجال الدولة وعظمائها، وتقرب من الوزراء، وجرى فيهم مَجْرَى الدم من اللحم، ونادمهم، وكان فصيحًا مِنطِيقًا، فإنه قبل عبد الله



باشا صار دُوادارًا[1] عند عمر باشا، ففتح له أبوابًا من الظلم، ووشى إليه على ناسٍ وأخرب بيوتهم، وهرب أكثر تجار بغداد من خوفهم من شرِّ عجم محمد، وشاب وظلمه وفجوره شباب، وكلّما طال عمره زاد شرُّه، وعلّمته التجاربُ طرقًا يُضار بها أعداءَه، يغفل عنها إبليس، حتى أنه لما قُتِلَ الوزير عمر باشا فرح الناس لظنهم أنهم خلصوا من شرِّ عجم محمد، وأن ناره قد خمدت، مع أن عمر باشا كان للخير أقرب، وله مآثر حسنة، ولكن لمَّا قرَّب عجمَ محمد حلَّ على الوزير شؤمُه، وكان من عاقبة أمره أنه عُزِل وقُتل، فما فرح الناس بموت عمر باشا إلا لزعمهم أن نارَ عجم محمد خمدت، وأن نجمه قد أفَل، ولكن حلم الله طويل، فما يشعرون إلا ومصطفى باشا قرَّبه إليه أكثر من قُرب عمر باشا، وصار هو مستشاره، وأولُ داخلٍ عليه، وآخرُ خارجٍ عنه، وولاّه خازندارية، وعكف الكل على الخمور والزنا واللواطة، وجميع أنواع الفجور والمظالم؛ حتى أنه لما أرسل السلطانُ خزَنةً لصرفها على محاربة العجَم وإخراجهم من

---

(١) أي: كاتبًا ومرافقًا ومستشارًا. قال الدكتور عماد رؤوف: (اسم وظيفة مُركَّب من لفظة "دواة" العربية، و"دار" الفارسية، بمعنى صاحب، فيكون معناه "صاحب الدَواة").



البصرة، استحوذ عليها ذلك اللعين عجم محمد، ودار عليها من خلفها ومن بين يديها، وسرقها لنفسه، واحتوى على غالبها، وأبان للوزير عبد الله باشا حساباتٍ ودفاترَ مسدَّدة بأنه صرفها فيها.

ومن غفلة الوزير عبد الله باشا صَدَّقه وائتمنه؛ لأن هذا الوزير كان أبلهًا ومُغَفَّلاً وألْكَنًا[1]، ولكن سبحان من أعطاه الوزارة! ومِنه يُعلم أن الأرزاق ليست بالعقول والمعارف، بل بالجدود والحظوظ، ولو لم يكن دليلٌ على غفلة الوزير إلا أنه لما أرسل السلطان عبد الحميد جيشًا لمحاربة العجم وإخراجهم من البصرة، ووصل الجيش إلى بغداد، فقام عجم محمد وفرَّق الجيش، وأرسل إلى الدولة مكتوبًا على لسان الوزير عبد الله باشا بأن العجم خرجوا من البصرة، لا حاجة إلى العساكر ولا إلى المصاريف، ومهَر ذلك المكتوب بمهر الوالي وهو لا يدري ولا يفقه، وأظهر للوزير نُصحًا، مع أنه لوزيره وولي نعمته غادرٌ، وللدولة والإسلام خائنٌ، وهو مباطن للعجم، والمراسلة والهدايا جارية بينهم سِرًا، وكل هذا والوزير غارقٌ في الخمور، ومُفوِّضٌ زِمامَ الأمور لعجم محمد.

---

(١) ثقيل اللسان، فيه عُجمة.



وحين فُوِّض لعجم محمد تفريق العساكر ضَجِر والي كركوك حسن باشا، وكان مأمورًا بقتال العجم، ومعه عسكر من الدولة لحرب العجم، وإخراجهم من البصرة، فأرسل حسن باشا إلى نواحي بلاد العجم فرقةً من العسكر، فهجمت عليهم وغنمت ورجعت، ومعها أموالٌ وأغنامٌ وخيلٌ وأُسارى من العجم، ثم إن حسن باشا أيضًا أرسل ثانية، ولكنها انهزمت تجاه عسكر العجم، فأرسل حسن باشا يطلب المدد من عبد الله باشا، فما أمَدَّه؛ لما أوقعهُ بينهما من العداوة: عجمُ محمد.

ولما رأى حسن باشا من عبد الله باشا عدم المساعدة كفَّ عن مناوشة العجم ومقاتلتهم؛ لأنه مأمورٌ من الدولة بعدم الخروج عن رأي الوزير عبد الله باشا.

ولما أبطأ خبرُ فتح البصرة على السلطان قال: إن عبد الله باشا إمَّا جَبُنَ وإمّا خان، ولام على مَن مدحه عنده حتى ولاه الوزارة، وهو أحد رجال الدولة المسمى بسليم باشا، فدبر سليمٌ حيلةً وتخلص بها من انتقام السلطان منه، بأن قال للسلطان: لو ترسلني إلى بغداد بصفة كوني مساعدًا لعبد الله باشا، فعليَّ الضمان أَنْ لا أرجِعَ إلا بمفاتيح البصرة أو يحول الموت بيني وبينها.

فأرسله السلطان إلى بغداد، فلما سمع الناسُ بقدومه فرحوا



برجوع البصرة وإخراج العجم منها، فلما وصل سليم باشا إلى بغداد، فما كان من عجم محمد إلاَّ أنه الْتَفَّ عليه الْتِفَافَ السَّيْرِ بالقُبْقَاب، ونفث عليه بسحره وكهانته، وأرسل له من الغلمان والنساء والخمور ما خامَرَ به عقلَه، وبيَّن له أَوْجُهَ جَمْعِ الصَّفراءِ والبيضَاء! فاتفق معهم على اللذات والشهوات، وجَمْعِ الذهب والفضة، وتركوا أمر السلطان نسيًا منسيًا!

فلما سَبَرَ عجم محمد من سليم باشا غَورَه، وعَرف سوءَ نيته وخُبث طويته، وحبَّه اللذات والشهوات وجَمْع الدنيا، وكان قبلاً عَرف حقيقة الوزير عبد الله باشا وما هو عليه من البلاهة والغفلة؛ طمحت نفسه لوزارة بغداد (لأن الوزارة كانت في ذلك الزمن هي لمن تميل معه أكثر الأهالي، ويكون غنيًا ذا مال، وظالمًا وغشومًا ويَعرضُ في شأنه أكثرُ الأهالي إلى الدولة؛ فتُرسل الدولة فَرمانًا بذلك طبق مراد الأهالي).

فشرع عجم محمد يَفتل في حبل هذه المسألة المهمة، ويدبر لتتميم هذه المدهمّة، وكل هذا والوزير عبد الله باشا وسليم لم يشعرا بمُراده، وهو ساحرهما، يسبك عباراته وإغداقه عليهما بما ينهبه من العالم من الأموال، ومَا قوّى عزمَ عجم محمد على هذا الأمر الخطير إلا مواعيد



كريم خان الزندي سلطان العجم له بأن يُساعده حتى يبلغ هذه الأمنية، إلى أن غَرَّه وتخلى عنه -كما سيجيئك بيانه-.

ثم إن كريم خان الزندي سلطان العجم المقيم بشيراز طمع في الاستيلاء على بغداد كما استولى على البصرة؛ فجهّز جيشًا لفتح بغداد، فحينئذٍ تنبّه سليم باشا الذي جاء من طرف الدولة، وعَلِم سُوءَ طويةِ عجم محمد، وأن هذه الفتن والمفاسد جميعها منه، ولكِنْ بَعْدَمَا بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبى لا ينفع الدوا.

وكان كتخدا بغداد رجلاً نبيهًا نبيلاً يُسمى إسماعيل بيك، ولكن ليس بيده من الأمر شيءٌ، بل كان عامِيهِ وعامِي جميع الأمراء، فتحرك كتخدا بغداد إسماعيل بيك وجهّز عسكرًا لمصادمة عسكر كريم خان.

ثم اتفق جميع أعيان بغداد وعقدوا مجلسًا، واتفق رأيهم فيه على أن يطلبوا من كريم خان الصُلحَ، وعيّنوا لهذه السفارة الأميرَ محمد بن عبد الله بن شاوي الحِميري[1]؛ لِدَهائه وعقله وفصاحته، فتوجه

---

(١) من أمراء قبيلة العُبيد، كان داهيةً شهمًا.قتله والي بغداد علي باشا عام ١٢١٧هـ؛ متهِمًا إياه بالميل للدعوة السلفية! -رحمه الله-



إلى شيراز للمكالمة مع سلطانها كريم خان، فلما وصل إلى شيراز فَاوَضَ كريم خان في الصُلح وعدم سفك الدماء بين المسلمين، وتَرجَّاه في فَكِّ أُسارى البصرة، فَأَوَّلاً قال له: إن أُسارى البصرة وسليمان بيك لا يُمكن فكّهُم ولو نزلت السماء على الأرض، ولكن من جملة الأُسارى أمراء من الأكراد فنحن نُطلقهم لأجل خاطرك؛ لأنك عزيزُ القَدر عندنا، وأمَّا تَسْيير العساكر إلى بغداد من طرف شيراز فقد أرسلنا فِرَقًا لتأديب بعض قبائل الأعراب التي في محاكم الدولة العليّة المُحَاربين لنا؛ فإنهم لإهمال الدولة أطرافَ ممالكها صاروا يتعدون علينا وعلى ممالكنا بالنهبِ والسلبِ والخطف، فإذا طلبناهم يكرُّوا راجعين وفارِّين، ويحتمون في داخل ممالك الدولة العليّة، فما قصدنا إلاَّ تأديبهم فقط.

فلما سمع منه هذا الخطاب أيقن بعدم النجاح في سفارته هذه، ورجع إلى بغداد، فلما وصل قريبَ بغداد بيومين بلغه وفاة عبد الله باشا الوزير؛ فحزن لأجله حزنًا شديدًا؛ لأنه كان صديقَه وله أيادي على محمد بن شاوي هذا، ثم إنه دخل بغداد والفتنة مشتعلة بين عجم محمد وحسن باشا والي كركوك، وسليم باشا معاضدٌ لعجم محمد، والبلدة مفروقة فرقتين، فرقةٌ تريد أن عجم محمد يكون هو وزير بغداد،



وفرقةٌ تريد أن حسن باشا والي كركوك يكون هو الوالي؛ فتحارب الفريقان، وعظُم الضرب والطِّعان، وانشقت العصا بين المسلمين.

فلما رأى الأمير محمد بن عبد الله بن شاوي الفتنةَ مضطرمةً التزم الحياد ولم يدخل مع أحد الفريقين، وأبقى رسالةَ سلطان العجم إلى عبد الله باشا مكتومةً، ولم يبيّنها لأحدٍ ما.

وكان مع ابن شاوي رسولٌ من طرف كريم خان يُسمى حيدر خان، وهو كذلك لم يدخل مع أحد الفئتين، ثم إن أكثر المتحاربين لما رَأَوْا عدم تداخل ابن شاوي في هذه المفاسد، وأنه نزَّه عِرضه ودينه عن التداخل مع أحد الفئتين: ارتضوه أن يكون هو الحَكَم بينهما، فاختار أن يرسلوا كتخدا بغداد إسماعيل بيك إلى حسن باشا والى كركوك لأجل أن يُسكِّن الفتنة؛ حتى أن يجيء أمر الدولة وتنفصل هذه المشكلة.

فالكلُ رضي بذلك، إلا عجم محمد؛ لأن طبعَهُ الخلافُ وزرعُ الفساد ونشرُ الفتن كما قيل:

لا يُحْكِمُ الصَّيَّادُ أَشْبَاكَـــهُ إلاَّ إذَا عَكَّرَ بَطْنَ الْغَدِيـــرْ!

فذهب إسماعيل بيك إلى حسن باشا والي كركوك وأكرمَهُ، وقَبِلَ رأيَهُ ورأيَ ابن شاوي، ولكون عجم محمد لم يوافقه هذا الرأي: دام



منه الحرب داخل بغداد وخارجها، وجرت فتنٌ تُشيب الأطفال.

ولـمّا عَظُم الأمرُ والبلدة محاصرة من طرف عجم محمد، والفقراءُ هَلَكُوا من طول الفتن واسْتمرارِ الحروب، راسل محمد بن عبد الله بن شاوي الوزير حسن باشا، وطلب منه أن يرحل إلى بغداد بعسكره؛ لتسكين الفتنة ودرء الفساد، فلما وصلت ورَقَةُ محمد بن شاوي إلى حسن باشا قَبِلَهَا واستحسن هذا الرأيَ، وعزَم على التوجه إلى بغداد، ولكن لأجل الفتنة التي بين قبائل الأكراد تأخر حتى يُصلح بينهم، فلما تأخر الجواب عن ابن شاوي من طرف حسن باشا، والشَّرُّ يَزْدَادُ يومًا فيومًا، والقتل والنَّهْب واللصوص والهجوم على الدور ليلاً ونهارًا مستمرٌّ، قامت فئَةُ عربِ نجد، المعبَّر عنهم بِعُقَيْل(١)، ودخلوا بين الفئتين المتحاربتين، وحجزوا بينهما على

---

(١) عُقيل : تجارٌ من نجد -القصيم خاصةً- من قبائل شتّى ، يتاجرون في الإبل والخيل وغيرها من السِلَع ، ما بين نجد والعراق وبلاد الشام ومصر والسودان ، واستمر عملهم هذا إلى عام ١٣٦٨هـ . واختُلف في سبب تسميتهم بعُقَيل ؛ فقيل : لأجل تميزهم بلبس العِقال ، وقيل : تشبيهًا لهم بقبيلة عقيل بن عامر ، التي كانت تُمارس هذه التجارة قديمًا. انظر : موسوعة "العُقيلات" ؛ للأستاذ عبداللطيف الوهيبي.



الهُدنة، وقالوا: إن الفرقة المخالفة فنحن عليها، فحينئذٍ سكنت الفتنة بين الفئتين مقدار شهر، إلى أن ورد أمرٌ وفرَمانٌ من الدولة بتولية حسن باشا وزارة بغداد؛ فاستتر عجم محمد، وأفَل نجمُه، وانكسرت شوكتُه، ودخله الرُعبُ والذُّل والهَوان، وجاء الزمن الذي يمكن أن ينتقم منه كلُ إنسان، وأراد الهروب ولم يمكنه.

ولمّا تبين لمحمد بن شاوي أن السلطان أمر بمحاسبة عجم محمد: أرسل إليه ناسًا، وحجزه خوفًا من الهرب، فتكفله أهل الميدان إلى أن يدخل الوزير الجديد بغداد ويسلمونه له، ووضعوه في القلعة التي بجهتهم وحرسوه، وكان الأمير ابن شاوي وكيلاً عن حسن باشا إذ ذاك، فحرّض على أهل الميدان بالتحفظ على عجم محمد إلى أن يحضر الوزير، وأهلُ الميدان مُضمِرون الغَدر؛ لأن أكثرَ كُبَرَائهم غرسُ نِعَم عجم محمد.

فبعدَ أيام وصل حسن باشا إلى بغداد، فانهزم عجم محمد خِفيةً ولحق بأحمد بن محمد خليل، شيخ قبيلة اللاوند(١)، العاصي، القاطع

(١) عدّ الدكتور عماد رؤوف في مقدمة تحقيقه لـ "مطالع السعود" (ص٥٤) هذا من أخطاء الحلواني؛ لأن اللاوند ليست قبيلة، وإنما (إحدى فِرَق الجيش المحلي في بغداد).



للطُرق من مدة مديدة، فتعاهدا على الإفساد وقطع الطُرق وهتك الحُرُمَات، وصار في كل يومٍ تُسمع لهم غارةٌ على جهة، كان شيطانًا واحدًا فصارا شيطانين! إلى أن عجزت الحكومة عن ردعهما، وكان أكثر نهبهما وسلبهما في الجهة الشرقية من بغداد.

فلما ضاق الخناق من حسن باشا أرسل محمد بن شاوي إلى أحمد باشا رئيس الأكراد على أنه يؤدب قبيلة اللاوند، فحينئذ انخزل[1] بعض اللاونديين عن عجم محمد، وعن ابن خليل، وقدم أكثر قبيلة اللاوند اللذين فاقوا الخوارج في الشجاعة والفساد، وأرسلوا إلى الوالي حسن باشا.

وكلُ هذا ولم تنفك عزيمة العصاة عن الفساد، إلى أن حاصروا بغدادَ ونهبوا ضواحيها، فحينئذٍ أرسل الوالي محمد بن شاوي الحِميري إلى قبيلة آل عُبَيد الحِميريين يستصرخهم في محاربة عجم محمد وابن خليل، فلما وصلهم رسولُ الوالي لَبّوا دعوته، وقصدوا محاربة العصاة.

---

(١) ارتدوا عنه وضعفوا.



فلما قاربوا بغداد وسمع بهم الوالي؛ أخرج من طرفه كتخدا عثمان بيك ومعه عسكرٌ لأجل أن يساعد آل عُبيد في الحرب، فلما خرج من بغداد بلغَ الخبرُ ابنَ خليل؛ فأخذ عسكره وفصل بين الكتخدا وبين آل عُبَيد وهم لا يشعرون، وانعطف على الكتخدا وعسكره وكانوا قليلاً، فانتشبت بينهم الحرب، وانهزم الكتخدا ومَن معه، ودخلوا بغداد مهزومين، وقيل إن عسكر الكتخدا خانوه ومالوا مع عجم محمد، والكل خائن!

ثم إن الوزير حسن باشا لما عرف أن آل عُبيد لا يُفرجون عنه، أرسل إلى أحمد باشا الكردي يسنجده، وأيضًا تباطأ عنه، فأرسل رُسلاً إلى أخيه محمود باشا أن يمده بعسكره، فوصل محمود باشا إلى بغداد ومعه عسكر الأكراد، فقوي عَضُدُ الوزير، فجهّز الوزير جيشًا مؤلفًا من محمود باشا وعسكره، ومن الكتخدا عثمان بيك وعسكره، ومن عرب نجد المعبَّر بعُقَيل، ومن آل عُبيد ورئيسهم الأمير محمد بن شاوي الحِميري.

فلما خرج الجميع من بغداد تلاقوا مع شرذمة نحوَ الألف من عساكر العُصَاة، فهزموهم وولوا العصاةُ الفرارَ، فلما بلغ عجم محمد وابن خليل ما جرى لعسكرهما ارتحلا بمن معهما إلى البَندَنِيج،



وداخلهما الرعبُ والخوفُ، فقفاهم عسكر والي بغداد، والتقوا مرة ثانية بالبَنْدَنِيج، وأيضًا انهزم العُصاةُ وفروا، وقد أَسَرَ عسكر الوزير من العُصاة نحو المئتين، وهكذا على الباغي تدور الدوائر.

وأمَّا سليم باشا فإنه لبِس ثوبَ الخزي والعار، ورجع على قصدِ التوجه إلى إسلامبول، فلما بلغ السلطانَ خيانتُه وما انطوى عليه، وأن حركتهَ إلى بغداد ما زادت إلاَّ خرابًا وفسادًا؛ أرسل فرَمانًا إلى والي ديار بكر أن يستصفي ماله ويحبسه في قلعةٍ إلى الممات، وقد كان، فسلبه وحبسه، وكذلك السلطان أخذ دارَه التي في إسلامبول بما فيها، وأعطاها لشيخ الإسلام، ثم بعد أيام جاء الخبرُ من السلطان بقطع رأس سليم باشا؛ فقطعوا رأسَه، وهذا جزاءُ مَن يخون سيدَه ووليَّ نعمته.

ولنرجِع إلى أخبار الوزير عمر باشا، فإنه أقام واليًا في بغداد ثلاثةَ عشر سنة، ثم قُتِل في حدود التسعين ومائة وألف.

وممّن توفي في سنة ٩٠: العالم العلامة السيد صبغة الله ابن إبراهيم الحيدري الحسيني، فمِمّن أخذ عنه العُلومَ: العلامة زين الدين الهكاري، والعلامة محمد بن شِرِوِين، والفاضل أحمد المجلى، والجهبذي المنلا شيخ الكردي الأشنوني ثم المدني، والعلامة الشيخ عبد الملك



العصامي في الحديث النبوي[1] بحق سماع عبد الملك من والده عن العلامة ابن حجر المكي.

وفي سنة وفاته تولَّى الوزارة عبد الله باشا، وجلس في ولاية بغداد سنتين لا غير، ثم توفي سنة ١١٩٧، وبعده انتقلت الوزارة إلى حسن باشا، فملك سبعة عشر شهرًا، ثم أخرجه أهلُ بغداد منها قهرًا، وذلك أنه بعدما هزم الخوارج العصاة بعساكره المجمّعة - كما تقدم لك - وكان ابن خليل وعجم محمد متحصنين في جبال اللورستان، وهي من ممالك أحد سلاطين العجم المسمى بزكي خان، الذي آلت إليه سلطنة شيراز العجم بعد كريم خان الزندي في سنة ١١٩٣، وكان كريم خان أرسل قبل موته أخاه صادق خان إلى البصرة واليًا عليها، فلما نُعِي إلى صادق خان أخوه كاد أن يخرس من الحُزن والغم، خصوصًا لما بلغه أن العجم سلطنوا عليهم زكي خان، فعزم صادق خان على الهروب إلى ما شاء الله، من الخوف من زكي خان، ومن والي بغداد، فخرج من البصرة بمن معه من العساكر متوجهًا إلى شيراز.

(١) في الهامش: "وهو أخذَ عنه أيضًا".



فلما بلغ خبر خروج صادق خان من البصرة إلى والي بغداد وجّه مُتسلِّمًا على البصرة نعمان بيك، فسار إليها وملكها وحكمها؛ لعدم وجود من يعارضه؛ لأَنَّ عسكرَ العجم أخلوها من لَدُنْ أنفسهِم، ورَمَّ أسوارَها، وأصاب أهلُها من الفرح ما عدّوه من أعظم الفتوح.

ولما مات كريم خان وتولى زكي خان أطلق أسرى البصرة وسليمان بيك متسلّمها الأوّل، ولما فكّه أنعم عليه بولاية البصرة، فخرج سليمان بيك من شيراز، ولما وصل إلى الحُوَيزة كاتب أهل البصرة بأنه هو والي البصرة من قديم، وأن هو الذي قاسى الشدائد فيها وفي حِصارها، وأنه لم يعزله أحدٌ، على أن الذي كان مالكها العجمي هو أيضًا ولاَّه عليها، فلم يقبل منه نعمان بيك، ولا ثامر: هذا الكلام، فبقي في الحويزة منتظرَ الفَرَجَ، فلم يلبث إلاَّ أيامًا قلائل حتى جاءه الفرَج، وذلك أن ثامرًا أغزى عربَ الخزاعل، فأصابه سهمٌ ومات به.

وكان سليمان بيك بعدما منعه ثامر ونعمان بيك من دخول البصرة كاتب والي بغداد واستعطفه في أن يردَّه على البصرة؛ فلم يُسعفه، فكتب إلى الدولة العليّة وهو في الحُوَيزَة يسترحم منها رد البصرة إليه، لما قاساه من الشدائد في حِصارها وما قاساه من الضَّرب بالسياط والكَيِّ بالنار، وهو مأسور في شيراز عند كريم خان.



ولما لسليمان بيك في البصرة من المآثر والمشاهد والعدل والإنصاف: أجابه ثويني ابن عبد الله إلى ما طلبه من دخوله إلى البصرة واليًا عليها - وإن خالف رأي والي بغداد - وراسله بالقدوم عليه وهو يساعده على مطلبه، فبينما هو شارعٌ في السفر إلى البصرة إلاَّ وقد جاءه الفرَمان من السلطان بولاية البصرة، وأنه أحق بها دون غيره.

فبعدما استقر فيها وأراح العباد ببَثِّ الأَمْنيّة فيهم: راسل الدولةَ العليّة وطلب ولاية بغداد، وأنه يؤمِّنها ويقطع دابر الفساد منها، وصادف ذلك أن أهلَ بغداد نقِموا على وزيرهم حسن باشا؛ لضعفه عن مقاومة عجم محمد وابن خليل، وذلك أن عجم محمد وابن خليل لَمَّا رجعا من اللورستان قَرُبا من بغداد، وأخافا السبيل، وقطعا الطُرقَ، وشنَّا الغارة على بغداد مَسَاءً وصباحًا، فلما ضاق أهلُ بغداد ذَرعًا أخرجوا الوالي حسن باشا قهرًا من بغداد، فخرج من بغداد ليلاً ونزل بالجانب الغربي، وبقي أيامًا، وبعده سافر قاصدًا ديارَ بكر بن وائل، فلما وصلها وأَمِنَ على نفسه من القتل: أتاه داعي المَنون، فمرض ومات هناك.



ومن حين خرج من بغداد بقيت الولايةُ شاغرةً؛ فاتفق أهل بغداد على أن يجعلوا إسماعيل بيك قايمَ مقامِ الوالي، إلى أن يحضر أمر الدولة العليّة.

فما يشعرون بعد أيام قلائل إلاَّ وقد وَرَدَ الفرَمان من الدولة بأن وزارة بغداد لسليمان باشا متسلِّم البصرة، ولا يعلمون بالمكاتبات التي كانت تدور بين سليمان باشا وبين السلطان، ووافق توجيه إيالة بغداد والبصرة وشهرزَور لسليمان باشا في خمسة عشر شوال سنة ١١٩٤، وورد أمرٌ آخر لسليمان باشا ابن أمين باشا الموصلي أن يُحافظ أمور بغداد، ويُؤمِّن طُرقَها إلى أن يأتيها وزيرها سليمان باشا والي البصرة.

فتوجه سليمان باشا والي البصرة إلى بغداد ومعه ثويني بن عبد الله بعشائره، وجملةٌ من عسكر الزبير أهل نجد، فلما وصل إلى العرجاء من أرض المنتفِق لاقاهم إسماعيل بيك الكتخدا ومعه عسكرٌ أيضًا يشد عَضُدَهم، فما كان من الوالي إلاَّ أنه أمر بقطع رأسه! وقيّدَ مَن كان معه؛ لأمور ينقمها عليه قديمًا، وولَّى على البصرة متسلِّمًا، رجلاً اسمه سليمان أفندي، وأرسل معه مَهرداره أحمد الزكي، ثم ارتحل.



ولَمَّا وصل إلى كربلاء التمس منه ثويني الرجوعَ، فأذِن لَهُ، ولَمَّا وصل الوزير إلى الحِلَّة لقيه الأمير سليمان بن عبد الله بن شاوي الحِميري؛ لما بينهما من المودة القديمة، فأكرمه الوالي وأجلَّه، ولما وصل إلى المسعودي استقبله قايم مقامِه والي الموصل المار ذكره، والعلماء وأعيان بغداد، وعزل نعمان أفندي عن الكتخدائية ونصّب عبدالله أفندي وكيلاً فيها، وأذِن لوالي الموصل برجوعه إلى بلده.

ولما نزل دِيَالَهْ ورد عليه من حاكم بابَان أكبرُ أبنائه: الأمير عثمان بيك، ومعه خمسمائة خيَّال من الأكراد الموصوفين بالشجاعة والهجوم؛ لمساعدة الوالي، فحينئذٍ عزم الوالي على محاربة عجم محمد وابن خليل قبل دخوله بغداد، فقصدهما الوالي بعسكره الجرّار، وانتشبت الحرب بينهم، فما كان إلاَّ ساعة وقُطع رأسُ ابن خليل وحُمل رأسه إلى الوزير، وانهزم عسكر العصاة وتفرقوا شذرَ مذر، ولم تقم لهم راية بعدها.

وبقي عجم محمد مخذولاً مطرودًا وحيدًا منفردًا، لا ناصرَ له.

وشرع الوزير في الصِّلات والعوائد لمن بانت شجاعته من المحاربين في ذلك اليوم، وأقام الوزير في ذلك المحل شهرًا يأمر وينهى، ويدبر في سياسةٍ؛ لإرهاب المفسدين.



وبعده دخل بغداد، فحصل هناءٌ كبيرٌ وسرورٌ لأهل بغداد، ولِـما جاورها من القُرى، بعدما ذاقوا النَّكال والوَبال من السُراق واللصوص وقُطّاع الطريق، وذلك في رمضان سنة ١١٩٤.

وبعدما استقر في بغداد أظهر بعضُ الأعراب العصيانَ والخروجَ على الوالي، وهو حَمَد بن حمود، أمير خُزَاعة، فَحَذَّره الوالي عاقبة الطغيان وهدده، فلم يرجع عن غيه وطغيانه، ولما لم ينفع فيه التحذير خرج إليه الوزير وحاربه في أعز الأماكن لديه، وهزمه وفلَّ جموعه، وعزله وولى على تلك القبيلة محسن بن محمد بدله.

فلما نزل الوالي بعسكره غربيّ الفرات مقابلاً للديوانية: خافت منه قبائل خزاعة بأجمعهم، فكسروا الجسور حتى يُفرِّق بلادَهم الماءُ؛ لأنهم يعيشون في الأهوار، ويجعلونها معقِلاً لهم (والأهوار هي الغُدُر التي تتكور من ماء الفرات)، وحينئذ لا يمكن لعسكر الوالي الوصول إليهم إلا بعُسْرٍ.

فلما بلغ الوالي مكيدتُهم: أمر بالإقامة على تلك الجسور، وهَمَّ بسدِّها كما كانت، وشغّلَ فيها كلَّ من يمضي عليه أمرُه، فسدَّها في أقرب مدةٍ بسدٍ كأنه سدُ إسكندر ذي القرنين، وقوةٍ تُبهر العقول، فحينئذٍ تيقن



عرب خُزاعة أن المياه التي هي حُصونهم لا بدّ أنها تنشف عن قريب، ويُغير عليهم الوالي بخيله، ويُهلكهم عن آخرهم، فما كان مِنهم إلا أنهم أذعنوا إلى الطاعة، وأرسلوا حَرِيمَهم يترجون لهم عند الباشا (وهذا كان عند أهل العراق من علامات الذُّل والانخضاع والطاعة).

فعفا عنهم الوزير سليمان باشا، ورقّ قلبُه عليهم، وكانت شيمته العفو عن المجرم إذا اعترف بذنبه.

ولَمَّا عفى الوالي عن قبيلة خُزاعة وعن شيخهم حمد بن حمود: استوفى منه الخراج المنكسر عليه، وردَّه شيخًا على قبيلته كما كان، وألبسه خِلعةً، وخرج من عند الوالي مُعَزَّزًا مُكرَّمًا، وهذه الغزوة كانت سنة ١١٩٥.

وبعدما دخلت سنة ١١٩٦ بدا من متصرف بابان محمود باشا بعضُ مخالفةٍ للوزير، فبدا للوزير محاربته وتأديبه، فبينما هو مصممٌ على النهود للحرب، إذ ورد عليه من دياربكر كتخدا حسن باشا والي بغداد سابقًا، وهو عثمان بيك، وافدًا يشتكي من ضَعف الحال، وهو من ذو البيوت القديمة؛ فأعطاهُ قصبة البندَنيج يستغلها، وأكرمه لِيُضَعِّفُ به همةَ متصرف بابان؛ لأنه كان عَضُدَه.



فلما أقام بالبندنيج مدةً: استقلها، وأعرض للوزير بأنها لا تفي بمصاريفه! فولاَّه متسلمية كركوك، فمنذ دخلها لا زال عثمان بيك متصرف سنجاغ يُراسله ويوسوس له في العصيان على الوالي، فتحسن لديه العصيان والخروج عن طاعة الوزير وكُفران نعمة المُنعم؛ فتحالف مع عثمان بيك المذكور على الغدر والإفساد.

فلما سمع بذلك محمود باشا متصرف بابان انضم إليهما، وكان عنده عيدًا من الأعياد، وحين علم الوزير سليمان باشا بتجمعهم وعصيانهم، وما أضمروا عليه: خرج عليهم بعسكرٍ جرّار، وقصد معاقلَهم - وهي بلاد الأكراد -، فلما وصل كركوك كاتب بعض أمراء الأكراد غير العصاة، على أن يولِّيهم بدلهم، فوفد عليه كلُ طماعٍ في الرياسة، وأول من ورد عليه: حسن بيك بن خالد بن سليمان، شيخ بعض قبائل الأكراد، فرَّحب به الوزير وأكرمه، وعزل عمَّه محمود باشا عن متصرفيه بابان، ونصَّب حسن بيك بدله.

فلما سمع عمُه محمود باشا بذلك: استشاط غضبًا، وانشقت العصا بين قبيلته.



ونصَّب أيضًا محمود بيك بن تمر بيك على كَوي وحَرِيرَا[1].

فخضع متصرف بابان للوزير، وأرسل له جملةً من العلماء والسّادة يتشفعون له عند الوزير في رد منصبه إليه، بل أرسل نِسَاءَه وأطفاله أيضًا للرجا والشفاعة (كما هي عادة عشائر العراقين).

فقبل منه الوزير ذلك بشروط: منها دفع الخَراج المنكسر عليه، وأن يُرسل بعض ولده وحريمه إلى بغداد رهينةً عند الوالي، بأن لا يعود للفساد ولا يؤوي المفسدين، وأن يُبعد الكتخدا عثمان بيك عن دياره وممالكه.

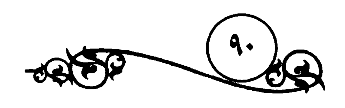
فقبل الشروطَ أجمع، وعزم على أن لا يعود إلى المخالفة.

فلما تحقق الوزير إطاعته أعاده إلى متصرفيه بابان، إلاَّ كَوي وحَرِير.

والذي كان سفيرًا بين الوزير وبين محمود باشا هو الأمير سليمان ابن عبد الله بن شاوي الحِميري.

---

(١) هذان الموضعان سيتكرر ذكرُهما بهذا الرَّسم، وفي مقاطعة (راوندوز) من أعمال (كركوك) ناحيةٌ اسمها (ديرة حرير) ولا ندري إن كان لها علاقة بهذا الاسم أم لا ؟ (الخطيب).



فوفى محمود باشا بما التزم، وبعث سليمان ابنَه مع بعض نسائه إلى بغداد رهنًا، وأبعد عثمانَ بيك عن ممالكه.

فأرسل الوالي إليه خِلعة الحُكم.

وبعدما رجع الوزير بعسكره إلى بغداد نقض محمود باشا العهودَ، ولم يفِ بما التزم به! وجَهَّز جيشاً لمحاربة كَوي وحَرِيرًا، وحاصر ابنَ تمر أميرَها.

فلما بلغ الوزير هذا الخبر: أرسل مدَدًا لوالي كَوي وحَريرا: خالد بيك ومصطفى بيك، بعسكرهما، فلما وصلا كركوك: خاف محمود باشا ورجع عن كَوي وحَريرا، وأرسل واستشفع إلى الوزير مرةً ثانية، وطلب العفو منه وتاب.

فقبل الوزيرُ انخضاعَه، بشرط أن يعطي اللواءين لإبراهيم بن أحمد باشا، لا لابنه عثمان بيك، فامتثل محمود باشا خوفًا من الوزير.

وأقبل ابن تمر إلى بغداد.

وفي سنة ١١٩٧: عاد متصرف بابان محمود باشا إلى ما جُبِل عليه من العصيان والعَسف والظلم والفجور، وأخذ في قطع الطُرق والهجوم على قُرَى الدولة، وإلزامهم بالمغارم الباهظة، وما جَرَّأه على



ذلك إلا شدةُ حِلم الوزير، كما قيل:

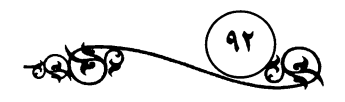
وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيفِ بالعُلاَ
مُضِرٌ كَوَضعِ السَّيفِ في موضعِ النَّدَى

وبعدما بلغ الوزيرَ غَدرُه هذه المرة، عزم على غزوه، وأن لا يقبل فيه شفاعةً أبدًا، وأرسل إلى والي كَوي وحَرِيرَا إبراهيم بيك أن يستعد للمساعدة، وسافر الوزير بجيشه، ولمَّا وصل كركوك طلب أمير كَوي وحَريرا، فقدِم إليه بأتباعه وعشائره، فألبسه خِلعة بابان، فتفرق عن محمود باشا أكثرُ عساكره، وانضموا إلى المتصرِّف الجديد، ولم يبق عند محمود باشا إلاَّ شرذمةٌ قليلةٌ لا تُجديه شيئًا.

وكان محمود باشا متحصنًا بجبال الدَّرْبَنْد، فقصده الوزير بجنود، فلما سمع بقُرب الوزير من معاقِله، وعلم أنه لا طاقة له بمقابَلة عسكر الوزير، فرَّ هاربًا إلى ممالك العجم، هو وعياله وأتباعه، وانضمَّ إليه عثمان بيك ضيفه القديم.

فرجع الوزير وإبراهيم باشا إلى بابان، وبقيَ عثمان باشا في بابان، ووصل الوزير إلى بغداد مقرِّ مُلكه ومنبعِ عِزِّه.

وفي سنة ١١٩٧ قُتِلَ محمود باشا، وسببه أنه صارت بينه وبين العجَم محاربةٌ، وذلك لِأَنَّ طَبعَهُ الشَّرُ والفساد حيثما حلَّ، فقُتل في



تلك الواقعة، وفرَّ عثمان بيك من بلاد العجم ودخل بغداد، والتجأ إلى الوزير، وقبَّلَ يدَه، وطلب منه العفوَ والسماح، فعفى عنه وأعطاه بعضَ قرىً خارج بغداد يستغلها ويتعيش منها.

وفي تلك السنة ارتكب محسن الخزاعي العصيانَ، فلما بلغ الوزيرَ عصيانُه، وأنه بنى قلعةً وتحصن فيها، قصده الوزير بعساكره، وهدَّم عليه قلعته بالأطواب(١)، وشتت جموعَه، وعزل محسنًا وولى بدله حمد بن حمود إمارةَ خُزاعة، وأضاف إليه إمارة الشامية علاوة، ورجع الوزير إلى بغداد.

ودخلت سنة ١١٩٩، وفيها ارتكب حَمَد بن حمود العصيان، وكَفَر نعمةَ الوزير وإلباسه بالأمس خِلعتين في يومٍ واحد، وما أغرَاه على ذلك إلاَّ حِلمُ الوزير وكرمُه، وما غرَّه إلاَّ أهوارُه داخل المياه ظنًا منه أنها تحميه وتَحْفَظُ قومَه من عساكر الدولة؛ فهجم عسكر الوزير على قبائل خُزاعة داخل الأهوار والمياه، وشتتوهم، وهرب حمد بن حمود إلى الحِسكَةِ.

ثم إن عجم محمد العاصي القديم المتقدِّم الذكر، لما بلغه عصيانُ حمد بن حمود: التحق به ليساعده على المفاسد والتخريب!

---

(١) قذائف المدافع. (الخطيب).



ودخلت سنة ١٢٠٠: وفيها سعى بعض المنافقين الحُسّاد - وهو أحمد بيك المهردار - بين الوزير وبين سليمان بيك بن عبد الله بن شاوي الحِميري، حتى ملأوا قلبَ الوزير منه، فخاف من الوزير وفرَّ هاربًا خارجًا عن الطاعة.

ويا عجبًا لهذا الأمير الأصيل! بعد أن مضَّى عُمرَه في الإصلاح وفي السفارات بين الملوك؛ لوفور عقله وشدة ذكائه وفِطنته وفصاحته وحُسن نيته وطويّته وشهرة صدقه وأمانته، أصبح من المفسدين قُطَّاع الطريق، المنضمين إلى عجم محمد وأمثاله[1]!

فلما تحقق انضمامَه إلى المفسدين: أرسل الوزير إليه عسكرًا

---

(١) المؤلف معترفٌ بأن سعاية نفاق وحسد وقعت من أحمد بك المهردار؛ لإفساد قلب الوزير على هذا العربي الحصيف. وكان ينبغي للوزير أن يحتفظ بأمثال ابن شاوي وأن لا يخسر صداقتهم، والشيطان إذا تمكن من الميل بالناس عن طريق الصواب ذهب بهم أبعد المذاهب. والمؤلف من دأبه في هذا الكتاب أن يكون رفيقًا بالوزير سليمان باشا لأنه ألّف كتابه لتلميذه وصنيعته الوزير داود باشا! ومثل ابن شاوي لا ينضم إلى من هو دونه، ولكن عجم محمد هو الذي يُسارع إلى كل ناحيةٍ يشم منها ريح الشيطان! (الخطيب).



يقوده أحمد بيك المهردار[1]، وإبراهيم باشا، ومعهم عسكر الأكراد، فلما عَلِمَ بقُرب العسكر منه انتقل إلى تكريت، فلم يُطق الاطمئنان، ففرَّ إلى الخابور، وترك أمواله وأثقاله غنيمةً للعسكر، ورجع العسكر إلى بغداد.

وفي ذلك العام مَنَّ الله على المهردار بأن ولاه الوزير كتخدائية بغداد؛ لما فيه من الكِياسة والدَّهَاء.

وفي ذلك العام: وقع قحطٌ شديدٌ على بغداد وما حولها، فصار الفقراء يصرخون عند سراية الوالي، ويبكون ويتضرعون، ويستغيثون من الجوع، فرحمهم الوالي وأخرج جميعَ ما عنده من الشعير الذي كان مُعَدًا لخيله، وفرّقه على الفقراء، ورضي بتلافِ خيله وبهائمه، ولا النوع الإنساني، فلم يُجدِ ذلك، وتمادى الغلا، ولم يُرسل الله مطرًا في ذلك العام على جميع البوادي، حتى هلك أكثر العُربان جوعًا، وبعضهم هاجر إلى أن أوغَل في بلاد الروم لطلب الكلأ، وأكَلَ الدماءَ والجِيف والكلاب والهرر.

---

(١) وهو الرجل الدساس الذي أفسد قلبَ الوزير سليمان باشا على ابن شاوي، وأوجد هذه الفتنة بعد أن لم تكن. بل الواقع أن ابن شاوي اكتفى بالانسحاب، فاستعدوا هم للبغي عليه. (الخطيب).



فقام بعض السفهاء من الغَوغاء، وتجمَّع عليه خلقٌ كثيرٌ من أضرابه، وأَخَذوا عَلَمَ الشيخ عبد القادر(١)! وصاحوا في بغداد: أخْرِجُوا هذا الوالي فإنه بسبب ظُلمهِ وإهمالهِ للرعية وعدم الأَمْنية في الطُرقات رفع الله القَطرَ عن البلاد!

فانضم إليهم أهلُ القهاوي والأراذل وأكثر العوام، وأثاروا فتنةً شديدةً في البلدة، سُفكت فيها الدماءُ، فأرسل الوزيرُ عسكرًا لصدِّهم وكفِّهم، فانهزموا وتفرقوا، وحبس من رؤسائهم أشخاصًا، وصَلَبَ بعضَهم، وغَرَّب البَعْضَ، فانطفأت الفتنة.

ودخلت سنة ١٢٠١: وفيها رجع سليمان بن شاوي إلى الخابور، وانضم إليه كلُ مفسدٍ ومغرور، وصاروا يُغيرون ويَغزون حولَ بغداد، ويَلتجؤون إلى الغابات(٢)، فلما بلغ الوزير ذلك: أرسل

---

(١) هو الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت٥٦١ هـ) كان من علماء أهل السنة، غلا فيه بعضُ الصوفية. انظر عنه: رسالة "الشيخ عبدالقادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية"؛ للدكتور: سعيد بن مسفر القحطاني. وفِعلهم من البِدَع.

(٢) قال الدكتور عماد رؤوف في مقدمة تحقيقه لـ"مطالع السعود" (ص ==



إليهم عسكرًا يقوده محمود بيك بن تمر بيك، وخالد آغا كتخدا البوابين، فالتقوا مع عرب ابن شاوي، وكان رئيسهم أحمد بن سليمان بن شاوي، فنشب العسكران في القتال، فما كان إلاَّ بُرهة حتى انهزم عسكر الوزير، وأُسِرَ محمود بيك وخالد آغا، وأُرسلا إلى رئيس الجيش سليمان بن شاوي.

فأما محمود بيك فأعطاه سلَبَهَ، وأذن له في الانصراف.

وأما خالد آغا فاستصحبه في الحديد معه.

وقد طمع ابن شاوي في محاصرة بغداد، فكَرَّ عليها بِكُلِّهِ وكَلِيلِهِ، وهجم على شريعة الكاظم، وغنم أموالاً وخيلاً، إلى أن وصل إلى الحلاج، فقامت عرب نجد المعروفون بعُقَيْل وصدّوه عن بغداد، وحَفِظوا الجانب الغربي منها، فشكرهم الوزير على ذلك، وكافأ أكابِرَهم على غَيرتهم وهِمَّتهم.

ولما انكسر ابن شاوي من عسكر عُقَيل: رجع متقهقرًا مخذولاً، لا يعرف له مأوىً، ونَصَحَه إخوانُه على أن يطلبَ الأمانَ والعفوَ

==

٥٤): (ليس في الأصلِ إشارةٌ إلى هذه الغابات، وأنه لا غابات حول بغداد أصلاً).



من الوزير؛ لأنه أهلٌ للعفو، فلم تساعده نفسُهُ الأمّارة على الذُل والخضوع لوليِّ نعمته[1].

فأمَّا إخوته؛ فإنهم فارقوه والتجأوا إلى الوزير، وتشفعوا إليه وتذلَّلوا، وخضعوا لديه، فقبِلهم الوزير وعفى عنهم، وأذن لهم بالإقامة في بغداد.

وأما سليمان بن شاوي؛ فإنَّه فرَّ إلى الدُّجَيْل، ثم منه إلى الشامية من العِرَاق، ثم نزل الأُبَيرَةَ، وشرع في الإفساد والغارات وقطع السُّبُل، فلما بلغ الوزير أحوالُه: أرسل خلفَه الكتخذا بجيش عَرَمْرَمٍ، وقصده، فلما علم أنه لا طاقة له بجيش الكتخدا نَهَدَ فارًا إلى شيخ المنتفِق ثويني بن عبد الله، وأغراه على الإفساد، وعلى خَلْعِ هذا الوزير؛ فانخدع ثويني من كلامه، ووافقه على الضلال والباطل، وسفك دماء المسلمين، الذي لا سبب له إلاَّ البَطَرُ والأَشَرُ، وأرسلوا إلى حمد بن حمود شيخ خُزاعة يساعدهم على مشروعهم؛ فوافقهم، ووفد عليهم،

---

(١) لا يعرف التاريخُ في سيرة ابن شاوي نعمةً كان وزير بغداد وليَّها، بل ابن شاوي هو الذي كان يُخرج الدولة ورجالها من المآزق، بشهامته ونُبله، والله هو ولي النعمة لعباده جميعًا. (الخطيب).



فاجتمع الكلُ، وغزوا البصرة، وملكوها بدون طعن ولا ضرب.

فإن متسلّمها إبراهيم بيك تيقن أنه لا طاقة له بهذه الجموع، فسلّمها لهم ، فملكوها واستولوا على خارجها وداخلها، وأراضيها ومزارعها، وجبَوا الأموالَ، وأخذوا غراماتٍ من التجار وأهلِ الأموال، وأَضَرُّوا بكلِّ من يُشتَمُ منه رائحةُ الغِنَى، وأسروا متسلّمها إبراهيم بيك، ونهبوا جميعَ ما تحت يده، وحبسوه مدةً ثم نفوه إلى مَسْقَط، وكان[1] قبل استيلاء ثويني عليه أقَامَ للِفُسُوق سُوقًا بالبصرة، خصوصًا ترقيص الأولاد، والفواحش من كلِّ نوع عَلَنًا، إلى أن اقتدى به جميعُ أعيان البلد وصاروا يتفاخرون بذلك، فَكَأَنَّ الله عاقبه على سوءِ فعلِه.

فلما بلغ الوزيرَ ما فعله ثويني وابن شاوي، وقطعُهم خَراج الدولة، بل تحقق عند الوزير أنهم كتبوا إلى الدولة محضرًا مضمونه أنه لا يَصلح لولاية العراق عمومًا ولوزارة بغداد وتأمين الطُرُق إلاَّ ثويني بن عبد الله، فإنه هو الأسد الذي يحميها من كلاب العجم[2]!

---

(١) أي: المُتَسلِّم التركي إبراهيم بك. (الخطيب).

(٢) معنى هذا: أن ثورة ابن شاوي وثويني واستيلاءهما على البصرة لم يكن
==



فحينئذٍ استعد الوزير لمحاربتهم وقطعِ دابرهم؛ فأرسل إلى متصرف بابان من بلاد الأكراد وكَوي وحَريرا إبراهيم باشا، ومتصرف باجْلاَن عبد الفتاح بيك؛ فأقبلا عليه بعساكرَ من فُرسان الأكراد وشجعانها بما يُهدّ به الجبال (وذلك أن الدولة العليّة ورجالها من عاداتهم أنَّهم لا يغضبون ولا تأخذهم الحميّة الجنسية إلاَّ إذا علموا أنه ستُشكَّل دولةٌ عَرَبية، فحينئذٍ يجتهدون بإخماد شرارتها من أول الأمر؛ لما يعلمونه من عاقبة أمرها)[1].

إلاَّ أنه لَمَّا أبطآ عن مَدَدِه عزلهما عندما وردا، ونصّب مكان إبراهيم باشا: عثمان باشا بن محمود باشا، ومكان عبد الفتاح بيك:

==

فسادًا وبطرًا وأشَرًا كما كان يصفه المؤلف، وإنما كان البطَر والأشَر من الوزير سليمان باشا، الذي كان أُلعوبة في يد الكتخدا عندما حمله على مقابلة إحسان آل شاوي بالإساءة، وكانت حالة الحكام الأتراك كما ذكره المؤلف عن مُتسلم البصرة. ومع ذلك فإن الثورة لم تكن على الدولة نفسها، بل على ممثليها وعمالها في هذه الديار. (الخطيب).

(١) هذه الفقرة وكلُ ما هو بين القوسين من قلمِ مُختصِر "مطالع السعود": العلامة الشيخ أمين بن حسن الحلواني المدني، الذي كان مُدرسًا بالروضة النبوية الشريفة أيام سلطنة السلطان عبد الحميد. (الخطيب).



عبد القادر بيك، فأتياه بجيشٍ فيه ألفَا دَارِع ما عدى الحاسر، فلما تمت للوزير كاملُ العساكر والآلات الحربية؛ توجَّه أولاً على قبيلة خزاعة وسقاها كأس الردى، وطحنها، وفرّق شملها، بسبب أن أكثرَهم وشيخَهم مع العصاة.

وكان الوزير قبل خروجه من بغداد راسل حمود بن ثامر بن سعدون؛ فوَفَدَ على الوزير مخالعًا لعمه ثويني، ومنابذًا له.

ثم إن الوزير قصد المنتفِق؛ فلما وصل إلى أم العباس خيَّم فيها وأقام ثلاثة أيام، وذلك في غرة محرم سنة ١٢٠٢، وقد ظهر عسكر المنتفِق صفوفًا خيالة، ومعهم الأطوابُ، وانشبك الحرب بين الفريقين، فما مضت إلا ساعاتٍ وانكسر عسكر ثويني، وولوا الأدبار، ولزَمت خيالة الأكراد ظهورَهم، ونادى منادي الوزير: أن كلَّ مَن أتى برأسٍ فله كذا، فتساقطت عليه الرؤوس كالمطر، إلى أن بنى من رؤوس عرب المنتفِق ثلاثَ منارات! وأذَّن عليها طائر السفر بحي على خير العمل!

وولَّى على المنتفِق حمودَ بن ثامر، وعلى البصرة مصطفى آغا الكردي خازنداره، وبعد ذلك رجع إلى بغداد ودار الخلافة، وجعل عسكرَ اللاوند في البصرة لحمايتها، ورَيَّسَ عليهم إسماعيل بيك.



وكان خروج الوزير من بغداد الثاني عشر من جمادى الأولى سنة ١٢٠١، ورجوعه إليها في ربيع الأول سنة ١٢٠٣.

ثم دخلت سنة ١٢٠٣: وفيها طلب سليمان بن شاوي العفوَ والمسامحةَ من الوزير، فعفا عنه وردَّ عليه أملاكَه، وشرط عليه أن لا يدخل بغداد، ولا يسعى بعدها في الفساد، ولا يختلط بالمفسدين.

وفي ذلك العام: عصى متسلّم البصرة مصطفى آغا الكردي، ومنع الخَراج، وراسل عثمان باشا الكردي متصرِّف بابان، وأغراه ووسوس له أن يساعده على هذا الأمر المهم، وأن كلاً منهما يكون سلطانًا مستقلاً في جهته، ووافق المتسلّم أيضًا عسكرُ اللاوند المقيمون في البصرة؛ لكونهم أكرادًا من جِنسه.

وراسلَ المتسلّم ثويني بن عبد الله، وضمَّه إليه، وكتب محضرًا للوزير بأن حمودًا لا يليق بالإمارة، وأنه لا يليق لها إلا ثويني، ففهم الوزير باطنَ مراد المتسلّم، ووافقه على مراده، وعزل حمودًا، وولَّى ثويني بدله، وأرسل له خِلعة الإمارة، وهذا كلُه تغافلٌ من الوزير يستدرج به المتسلِّم إلى أن يأخذَه بلا حرب.

هذا؛ ومصطفى آغا الكردي مجتهدٌ في تتميم مراده، ويراسل عثمان باشا، ويجدد معه العهودَ، وراسل أيضًا كبيرَ اللاوند المقيم في



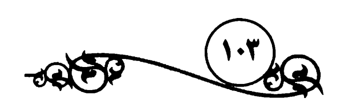
زنكَباد، وضمّه إليه، وكلُ هذا ومصطفى آغا الكردي يظن أن الوزير لا يعلم بدسائسه.

ثم إن الوزير أرسل محمد بن شاوي - ظاهرًا - إلى متسلِّم البصرة ينصحه ويحذره عاقبة العصيان، وأرسل - باطنًا - مكاتيبَ معه إلى رئيس المراكب الحربية للدولة العليّة المقيمة بالبصرة، وهو مصطفى آغا ابن حجازي، وأمرَه فيه بأن يتحايل على مصطفى آغا الكردي، ويقتله.

فكأن الكردي استشعر بهذا المكتوب، وتحذّر من ناظر البحرية، وأضمر قتلَ ناظر البحرية مصطفى آغا ابن حجازي.

فيومًا ركب المتسلِّم للتنزه على حافة الشط، وتقرب من المراكب بخيله، ونزل هناك، ونصب خيامه، فاشتاقت نفس مصطفى آغا ابن حجازي إلى أن ينزل من المراكب ليزور المتسلِّم، فلما وصل إليه قطع المتسلِّم رأسَه في الحال، وركبَ خيله ورجع. فكأن ناظر البحرية جاء يصيدُ فاصْطِيدَ!

فلما بلغ الوزيرَ أفعالُ المتسلِّم، وقتله لناظر البحرية: عزم على غزوه جهارًا.



ثم إن الأمير سليمان بن شاوي أرسل رسولاً إلى الوزير يقول له: قبل أن تُرسل العسكر إلى البصرة، أريد أن تُرسل لي رجلاً أمينًا من طرفك؛ لأخبرَه عن كلامٍ شفاهًا.

فأرسل الوالي له سليمان آغا معتمد الكتخدا، فلما وصل إلى ابن شاوي أخبره أن عثمان باشا متعاهدٌ هو والمتسلِّم، وأراه كتاب عثمان باشا إليه يطلبه فيه أن يرجع إلى ما كان عليه من الفساد، ويَعِدُه ويُمَنِيه، ومقصده أن عثمان باشا نيته يطلب وزارة بغداد بالسيف، فلربما لو خرج الوزير بنفسه من بغداد يعقبه فيها عثمان باشا، ثم يكون إخراجه منها عسرًا جدًا.

فرجع الرسول بكتاب عثمان باشا إلى الوزير، فمنذ عَلِم ما فيه أخّر السفر وقال: إن الأناة خيرٌ من العجَلة.

فدخل الوزير على عثمان باشا من باب الاحتيال، ووجده أنفع من القتال، وأبدى لعثمان باشا كمالَ المودة، ولاطفه وهاداه، وأرسل إليه كتخداه عبد الله بيك، وقال له: أريد أن أستشيرك في أمرٍ مهم، ولكن أريده مشافهةً.

فاغترَّ من كلام الوزير، فلما وصل إلى بغداد: بالغ الوزيرُ في



إكرامه وإنزاله، والإحسان إليه، وتكلم معه في أن يزوجه أختَ الكتخدا! فقِبل ذلك، وأمره بالرجوع إلى وطنه، وأن يعودَ في فصل الربيع للدخول على مخطوبته، فرجع إلى وَطَنِهِ فَرِحًا مسرورًا، وما يدري أن كلَّ هذه المداهنة لأسبابٍ خفية.

فلما أقبل الربيعُ قدم عثمان باشا بعشيرته وبنى عمه وأكرادِه، وفاءً بالوعد، فلما وصل إلى بغداد انحلَّتْ عُرَى كلِّ مَن عاهد المتسلِّم.

فأمّا الوزير فجمع عساكرَه واستصحب معه عثمان باشا، وقصد البصرة لمحاربة مصطفى آغا الكردي، فلما وصل إلى العرجاء فرّ ثويني وعشائره إلى البادية والصحراء، وأمّا المتسلِّم مصطفى آغا الكردي فإنه فرَّ إلى الكويت.

فلما بلغ الوزيرَ فرارُ أعدائه أسرع في السير إلى البصرة، ونزل خارجها، ثم جعل عليها متسلِّمًا الأمير عيسى المارديني، ونصَّب شيخًا في باديتها حمود بن ثامر، ثم رجع إلى بغداد في رمضان، ومُذ دخلها عزلَ عثمان باشا عن إمارة بابان، وأقام مقامه إبراهيم باشا، وفي كَوي وحَريرا محمود باشا.

ولَّما قيَّد عثمان في الخزانة أراه كتاب خيانته إلى ابن شاوي؛ فعراه من الخجل ما أدنى أجَلَه، ولما زاد مرضُه أُخْرِجَ إلى دار محمد سعيد

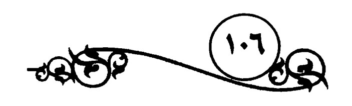


الدفتردار، فمات، ومشي في جنازته الأكابر، حتى الكتخدا أحمد بيك، وقيل إنه هو الذي سَمَّه.

وفي هذه السنة: ورد خبر وفاة السلطان عبد الحميد الأول ابن السلطان أحمد خان العثماني(١)، وهو من السلاطين الذين قام بهم قِسطاسُ العدل والدِّين، إلاَّ أنه لِغِلَظِ حُجَّابِهِ كعادة أسلافه صار أكثرُ رجاله خُوَّنًا، بل صارت الخيانةُ والكذبُ على الملوك عادةً لهم، يفتخر بها رجال دولته في مجالسهم الخاصة.

---

(١) وُلد سنة ١١٣٧. وتولى السلطنة عقِب وفاة أخيه مصطفى الثالث سنة ١١٨٧. والسلطان مصطفى هو السلطان السادس والعشرون من سلاطين آل عثمان، وعبد الحميد الأول هو السابع والعشرون. وكانت الدولة العثمانية في حالة حربٍ خاسرة مع الروس في آخر سلطنة مصطفى وبداية سلطنة عبد الحميد الأول، وانتهت باضطرار الدولة إلى التوقيع على معاهدة قاينارجة التي تقدمت الإشارة إليها. ومما يُلفت النظر في هذه الفقرة من الكتاب قوله: وفي هذه السنة ورد خبر وفاة السلطان، وهي تُشعر بوهن الصِلة أو انقطاعها بين العراق والقسطنطينية، وقد كانت الصلة بين الدولة وممالكها في زمن الراشدين والأمويين ومَن بعدهم تُطوى فيها شواسع الزمان والمكان فتصل الأخبار عن الحوادث في أوقاتها. (الخطيب).



وفي أيامة أُخِذ القَرْمُ من يد الدولة[1]، وكان فيه من النفوس تسع ملايين.

وفي زمانه وما قبله: تسلطنت شوكةُ الدَّرَبِيكَات[2]؛ يعني العائلات القديمة في ممالك العثمنلي؛ مثل باشوات الأكراد والموصل وبغداد وعكة والشام، والوهابي بنجد، وأشراف اليمن، وأشراف مكة، وشيوخ المنتفِق، والغُزّ بمصر، وبيكوات القَرْم؛ فاختلت داخلية الدولة العليّة، وصاروا دائمًا مشتغلين بالحروب الداخلية مع رعاياهم، ولم يمكنهم أن ينتفعوا من هذه الدَّرَبِيكات التي في ممالكها، لا بمالٍ ولا برجال، بل ويا ليتهم لم يَشُقُّوا عصا الإسلام!

فاختلت الدولةُ وانحطّت بعد أن كانت منذ مئتي سنة هي أول

---

(١) واعتُبرت بلادًا مستقلة عن العثمانيين والروس معًا. إلا أن روسيا واصلت السعي حتى أقامت أحد أنصارها - المدعو شاهين كراي - أميرًا على القرم، ثم أخذت تُمده بجنودٍ من جيشها، إلى أن انتهى الأمر باستيلائها على هذه المقاطعة. (الخطيب).

(٢) أي: أُمراء الإقطاع؛ أمثال أبي الذهب في مصر، وأحمد الجزار في بعض الديار الشامية، ومن هذا القبيل: الوضع الإداري في العراق والمقاطعات الكردية على ما يراه القارئ في هذا الكتاب. (الخطيب).



دولة قوية على وجه الكرة الأرضية، وتَخشى بأسَها جميعُ الدول الإفرنجية، وأنت تعلم أن الدولةَ وضخامَتَها ما هي إلاَّ بكثرةِ عسكرها، والعسكر لا يكونون إلا بالمال، وقد فُقِدَ المالُ، وتعطلت أسباب منابعه في سائر ممالك الدولة العليّة؛ لعدم الأَمْنية العمومية، فنسأل الله أن يُلهم هذه الدولة العثمانية الرُّشدَ، وأَنْ يُوفِّقَها للصواب، ولما فيه صلاح العموم، وأن يُقيِّض لها سلطانًا يُبطل لها العاداتِ القديمة، ويمحو جميع الدَّرِبيكات من بلاد الإسلام؛ لتتوحد كلمة الملة (وانظر الآن في زماننا لَمَّا شرعت الدولة في محو بعض الدَّرِبيكات كيف صَلُحَ مُلكُها، وانتفعت من ممالكها بالمال والرجال، وتجددت لها قوتُها نوعًا ما، بالنسبة لحالة محوها واندراسها في القرن الثاني عشر، وفي أوائل الثالث عشر).

ثم لما انتقل السلطان عبد الحميد إلى جوار الكريم: تولّى بعده السلطان سليم خان[1] وكان من حُسن السيرة ومحبة العلم والعلماء

---

(١) هو ابن السلطان مصطفى الثالث، ولد سنة ١١٧٥، وتولى عقِب وفاة عمه عبد الحميد الأول، وفي زمنه احتل بونابرت مصر، واتسعت الحركة السلفية في نجد، وقد حاول سليم الثالث إصلاح الجيش إلا أن ==



على جانبٍ عظيم، إلاَّ أن كانت أيامُه كلُها كَدُورَاتٍ بالحروب الداخلية، وبفتن عسكر اليَنجَارِيَّةَ[1].

فإنه في زمانه أخذ الفرنسيسُ مِصرَ القاهرة، وظَلَّ السلطان يعالجهم بالحروب مُدَدًا هو ودولة الإنكِليز، تُساعده لا حُبًا فيه، وَلاَ رَغْبَةً في الإسلام! لكن لخوفها على بلاد الهند، وأنَّ الفرنسيس لو تَمَّ مُلْكُ مِصر له لكان يأخُذ الهندَ من يد الإنكِليز قَطعًا، إلى أن أخرجوه منها لهذه العلة، أو ليُسَمِّنُوا الكبشَ ثم يأكلونَهَ في يومٍ مَا!

وقد ثارت على السلطان سليم حروبُ الوهابي من نجد إلى الحرمين إلى اليمن، ومات ولم يُصَفِّ تلك الممالك، إلى أن صَفَّاها مُجَدِّدُ القرن الثالث عشر، فحلُ بني عثمان بلا منازع: السلطان محمود بن عبدالحميد -كما سيجيئك بيانُه مُفَصَّلاً-.

==

ذلك لم يتيسر له، وتنحى عن العرش سنة ١٢٢٢. وقُتِل سنة ١٢٢٣، وتولى بعده سنة ١٢٢٢ مصطفى الرابع ابن عبد الحميد الأول، ومات بعد ١٤ شهرًا وهو في الحادية والثلاثين من عمره، فتولى السلطنة أخوه محمود الثاني سنة ١٢٢٣. (الخطيب).

(١) أي: الانكشارية؛ وهو الجيش العثماني القديم.



ودخلت سنة ١٢٠٤: وخرج الوزير سليمان باشا أبو سعيد إلى البَنْدَنيج للتنزّه والصَيد ظاهرًا، وأما باطِنًا فمقصده أن يُرهب الأعرابَ والأكرادَ، ويُطلعهم على قوته وعَدَدِه.

وفي تلك الأيام: ورد عليه كتابٌ من عبد الرحمن باشا أخي عثمان باشا متصرّف بابان، يطلب فيه العفوَ والسماحَ من الوزير إيَّاه، ودعاه إلى بغداد وولاّه متصرفيَّة بابان وكَوي وحَريرَا، بدل أخيه عثمان باشا، فسافر من بغداد، وقبل وصوله إلى محل إمارته أَرَسل أخاه سليمًا من قِبَلِهِ، فلما سمع إبراهيم باشا بذلك أرسل أخاه عبد العزيز ليصدَّ سليمًا عن دخوله إلى بابان، إلى أن يُوصِلَ أهلَه المأمَنَ، حَذَرًَ عليهم من سليم (لَيْتَ شِعْري ما الذِي كان يصنعه سليم مع أهل إبراهيم باشا، ولكنّ العادات القديمة في تَسَتُّرِ الحَريم كانَت إفرَاطًا)، وما أَحْسَنَ في هذا الرأي، فإن عبد العزيز وسليمًا التقيا على غير ميعاد، ووقعت بينهما مقاتلةٌ أفضت إلى أن عبد العزيز جُرِحَ وأُسِرَ، فهرب إبراهيم باشا بأهله إلى بلاد العجم، وأُرسِلَ أخوه مُكَبَّلاً بالحديد إلى بغداد.

وفي سنة ١٢٠٥: أُطْلِقَ عبد العزيز بيك أخو إبراهيم باشا الكردي من أسره، عندما أرسل إبراهيم باشا يطلب لنفسه الأَمَانَ من الوزير، فقبل الوزيُر أعذاره وأرسل له مكتوب الأمان صُحبة الأمير



محمد بن شاوي إلى بلاد العَجَم، ورده معه إلى بغداد، ودخل على الوزير، فقابله وأكرمه بالضِّياع والقُرَى، وبقيَ آمنًا في ظل وزير بغداد.

وفي هذه السنة كذلك: طلب العفوَ والسماحَ ثويني بن عبد الله، وطاح في رحاب الوزير، فقَبِله وأمَّنه بأن يسكن حيث شاء، وهذه السنة حقّها أن تُسمى سنة العفو!

ومِنَ الاتفَاقيات أن الوزير لما عفى عن سليمان ابن شاوي وَأَمَّنَه، وردَّ عليه أملاكه على أن يسكن خارج بغداد، وقد كان -كما مر ذكره -إلاَّ أنَّه في هذه السنة وفَدَ على سليمان بن شاوي من بلاد العجم عَجَم محمد، العاصي القديم، والتجأ إلى جوار سليمان بن شاوي.

فطلب الوزيرُ من سليمان بن شاوي أن يُرسله إليه في السلاسل والأغلال؛ فامتنع سليمان بن شاوي من ذلك وقال: إن تسليم الضيف للهلاك أكبرُ عارٍ عند العرب، بَلْ لَو فَعَلَهَا ابن شاوي لكانت العرب يعدُّونه من قبيلة هتيم أو صُليب هو وذريته إلى أبد الآبدين[1].

---

(١) الصليب أو الصلبة من (القبائل المتحيرة) كما سمّاها صديقنا العالم المحقق الأستاذ عباس العزاوي في كتابه "عشائر العراق" (١:٣١١)، ويرى أن أصلَهم بدو، قضت عليهم الحروب في أبعد الأزمان، ==



فلما عَلِم الوزير أَنَّ ابن شاوي أبى أن يُسلم في ضيفه: أمرَه أن يُبعده عنه، وما فعل أيضًا، فعزم الوزير على غزو ابن شاوي، ونَقضِ عهده؛ فأرسل له عسكرًا ورئيسهم الكتخدا أحمد بيك؛ ليأتي به مقتولاً لاَ مُقَيَّدًا.

==

فانقرضوا وبقوا متفرقين، فهم بقاياهم المنتشرة. ونرى العربَ يعدون من أظلم الظلم الاعتداء عليهم. ولا يُتصور أن يغدروا بتائهٍ ضل الطريق. والعرب لا تعترف بسموّ نسبهم، لكنهم أنفسهم يعتقدون أنهم (صبَّة، صليبة) أي من العريقين في النسب، ولكنهم نُسي أصلُهم أو أخفَوه لأمرٍ سياسي أو حربي لحقهم، وكتموا نسبَهم حتى عن أولادهم، فبقي مجهولاً.

وما قاله بعضُ الكُتاب من أنهم من الصليبيين! فهذا من أبعد الأمور وأغربها، فلا علاقة لهم بالصليبيين ولا باليونان أو الرومان. أما ديانتهم فلا يسع المرءُ إنكارَ أنهم مسلمون، وأن النقولات عن أصلهم عبارة عن إذاعاتٍ من النصارى، وانظر لأحوالهم وبيان عشائرهم:كتاب «عشائر العراق» للأستاذ العزاوي، و«قلب جزيرة العرب» للأستاذ فؤاد حمزة.

و (هُتيم) التي ضرب ابن شاوي المثل بها هي من عشائر الصلبة. (الخطيب). قلت: نسب أبوعلي الهَجَري في كتابه "التعليقات والنوادر" (ص ١٨٩٩) الهتيمي إلى عمرو بن كِلاب. قال الشيخ حمد الجاسر: (وبنو كِلاب هؤلاء كانوا أقوى قبيلةٍ تُسيطر على وسط نجد). مجلة العرب (ج ٩ س ٣ ص ٨٦١).



فلمَّا سمع بقرب عسكر الوزير منه رَكِبَ مَتنَ الفِرار هو وعجم محمد، وتركا أموالهما وأثقالهما ونَجَوا، فغنِم الكتخدا جميعَ أموالهم.

ولما عصى تَيمُور المِلِّي على الدولة العليّة، وأخذ يُفسد ويقطع الطُّرُقَ في ممالكها: أرسلت إليه عسكرًا وعليهم باشا من إسلامبول، فلم يُجْدُوا معه شيئًا، وعجزوا عن مسكه أو تأديبه، فحينئذٍ أمر السلطانُ سليمانَ باشا وزير بغداد بمحاربة تَيْمُور المِلِّي وإرجاعِهِ إلى الطاعة، فعزاه الوالي بعسكرٍ جَرار، وشتّت شملَه، ونهبه وسلب عشائره، وفَرَّ تيمُور إلى الفيافي والقِفار.

ثم دخلت سنة ١٢٠٦: وفيها أرسل الوزير عسكرًا مع لُطف الله أفندي؛ ليقطع دابرَ الأكراد المِلّيّة، فوصل إلى جِباهم، وحاربهم، ونهبَهم، وأتى بجُملةِ رؤوسٍ إلى الوزير، ثم ألبس الوزيرُ إبراهيمَ باشا أخا تَيمور الملِّي، وَوَلاَّهُ مَكَانَه، وتوجَّه الوزير إلى ماردين، فَصَلَبَ من أتباع تيمور رجلين؛ أحدهما يُسَمَّى حسن آغا، والثاني حسين آغا، وقتل من اليزيديين جملةً، ثم رجع إلى بغداد في ٢٧ من ربيع الأول، وكان خروجه في شوال من السنة التي قبلها.

قال في القاموس: الكَرْد: العُنُق وطردُ العَدُوّ، وبالضمِّ جبلٌ



معروف، جمعُهُ أكراد، وجدُّهم كُرد بن عَمْرو مُزَيقيا بن عامر بن ماء السماء. انتهى.

فدلَّ ما في القاموس صريحًا على أن الكُردَ من عَربِ قَحْطَان.

ثم دخلت سنة ١٢٠٧: ولـمّا لَمْ يجدْ عجم محمد ملجَأً ولا عفوًا من الوزير: توجَّه إلى مصر القاهرة، ومات فيها غريبًا فريدًا طريدًا.

وأمَّا سليمان بن عبد الله بن شاوي رفيقُه؛ فإنه بقي في الخابور على تلك المشاكسة والمعاكسة، فأرسل إليه الوزير عسكرًا ورئيسهم أحمد بيك الكتخدا، فلما سمع بقُرب عسكر الكتخدا فرَّ إلى البادية.

وأمَّا الوزيرُ فإنه طلع إلى الفَلُّوجَة، ونصب خيامَه هناك لأجل التنزّه والاصطياد في الظاهر، وأما في الباطن فَلإرْهَابِ الأعداء.

ثم دخلت سنة ١٢٠٨: عصى أمير خُزاعة محسن بن محمد، فأرسل إليه الوزير عسكرًا ورئيسهم الكتخدا أحمد بيك، فلما قَرُبَ من ديار خُزاعة جنحوا إلى الطاعة، وطلبَ أميرُهم العَفْوَ من الباشا، فقَبِله بشرط أن يؤَدُّوا جميع الخَراج المنكسر والحالّ، وأن يُعطوا رَهَائِنَ من كبارهم؛ لعدم الاعوجاج فيما بعد.

ورجع الكتخدا إلى بغداد، ولكن بعدما رجع الكتخدا نقض



محسنُ بن محمد العهدَ، فلما بلغ الوزيرَ معاكستهُ ومشاكستُه ونقضُه للعهود: عزلَه من مشيخة خُزاعة، ونصّب بدله حمد بن حمود.

ثم دخلت سنة ١٢٠٩: وفيها قُتِلَ سليمان ابن شاوي الحِميري، قتله محمد بن يوسف الحربي من عشيرته[١]، وهو جدير بالرثاء على ما كان من سيرته؛ لأنه كان من أفراد الدهر عقلاً وحِلمًا وكَرَمًا وشجاعةً (وقد رثاه المؤرخ الشيخ عثمان بن سند بمرثيّة بليغة، متضمنة أكثر من قُتِلَ أو خُلِعَ مِنَ الأمراء والملوك، على نسق قصيدة ابن عبدون الأندلسي في رثاء بني الأفطس[٢]، وتلك شرَحها ابن

---

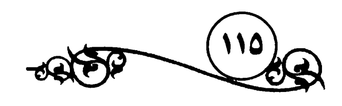
(١) ابتدأ الوزيرُ أبو محمد عبد المجيد بن عبدون اليابري الفهري، المتوفى سنة ٥٢٩، قصيدته العُظمى "البسامة" من زمن دارا الفارسي، وأنهاها إلى زمن المقتدر بالله العباسي "سنة ٣٣٣".

ومطلعها:

الدهرُ يَفجع بعد العَين بالأثرِ ... فما البكاءُ على الأشباحِ والصُوَرِ

(الخطيب).

(٢) قال الدكتور عماد رؤوف: (الحربي فرعٌ من فَخِذ البوشاهر، ومن هذا الفَخِذ: الرؤساء من قبيلة العُبيد آنذاك).



بدرون الأندلسي[1]، وهذه حَقُها أن تُشْرح، فلا شك أنها تكون أبلغَ وأبدعَ وأشملَ من شرح قصيدة ابن بدرون، وعسى الله أن يوفقني لشرحها؛ لأنَّ وقايعَها وأسماءَ رجالها إلى زمان المؤلف، وأمّا قصيدة ابن عبدون فقاصرةٌ إلى سنة ٤٢٠ هجرية[2]).

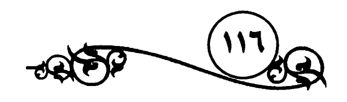
ثم دخلت سنة ١٢١٠: فيها عصى شيخ خُزاعة حمد بن حمود، فأرسل الوزير إليه عسكرًا ورئيسهم الكتخدا أحمد بيك.

وفيها قَتَلَ علي بيك الخازندار أحمدَ بيك الكتخدا، وهذا بإشارةٍ من الوزير، ولذلك زوّج الوزيرُ عَلِيًا، الخازندارَ المذكورَ، على ابنة أحمد بيك المقتول، ثم ولَّى الخازندارَ الكتخدائيةَ.

---

(١) هو الوزير أبو القاسم عبد الملك بن عبد الله بن بدرون، من أدباء شلب بالأندلس، وكان موجودًا في صدر القرن السابع الهجري. (الخطيب).

(٢) تقدّم أن "البسامة" للوزير ابن عبدون تناولت تاريخ العِبر في سقوط الممالك ومصارع الملوك إلى زمن المقتدر بالله سنة ٣٣٣. أما عام ٤٢٠ هذا الرقم الذي ذكره الشيخ أمين الحلواني المدني فلعله أراد به تاريخ بني الأفطس، الذين أسس دولتهم جدُهم أبو محمد عبد الله بن مسلمة في أوائل القرن الخامس، وانتهت بثالثهم المتوكل أبي حفص بن المظفر أبي بكر بن عبد الله بن مسلمة في سنة ٤٨٣. (الخطيب).



ودخلت سنة ١٢١١: نَصَبَ شيخًا على المنتفِق: ثويني ابن عبد الله، وعزل حمودًا، وتوفي شاه العجم محمد خان، ونُصِّبَ مكانه: فتح علي خان.

ودخلت سنة ١٢١٢: وفيها غزا الكتخدا علي بيك حمدَ بن حمود شيخ خُزاعة، فمنذ أناخ بساحته انهزم المومى إليه، فأحضر علي بيك الكتخدا محسنًا آل قائِم ونَصَّبَه شيخَ الشامية، وسَبْتِي بن محسن شيخَ الجزيرة، وألزمهما الخَراج، ورجع إلى بغداد.

وفيها: عزل الوزيرُ عبدَالرحمن باشا عن إمارة بابان، ونصَّب مكانه إبراهيم بيك ابن عمّه، إلا كَوي وحَرِيرًا، فَمَا زَالَتَا تحت حكم عبد الرحمن، وبقي بعد عزله في دار السلام معامَلاً من الوزير بالإنعام والإكرام.

وفيها: غزا علي بيك الكتخدا آل سَعِيد من زُبيْد؛ لعصيانهم، وفي غزوه ذاك وصل إلى الجوازر من ديار ربيعة، فولّى عليهم شيخًا يأمر وينهى، تبعًا للوزير، ورجع من آل سعيد بغنائمَ جَمَّةٍ، ثم رجع إلى بغداد.

وفي تلك السنة: قَتَلَ طُعَيْسٌ الشَّقِي ثوينيَ بن عبد الله، فمات غريبًا شهيدًا، وذلك أن ثوينيَ حشد بجموعه وعرب المنتفِق وقصد محاربة الوهابيين في نجد، بعدما استأذن الوزيرَ في ذلك.

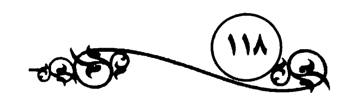


فإن الوهابيين لَمَّا ملكوا الأَحَسَاءَ وانتزعوها من شيخِ بني خالد؛ اشْرَأَبُّوا إلى غيرها من البُلدان ليملكوها، ويُظهروا بدعتَهم فيها، ويذبحوا أمراءها وعلماءَها، كما فعلوا في الحسا، على أنهم مشركون في زعمهم(1)!

ثار إليهم ثويني بجنوده، وانقاد له أكثر العرب الذين أعطوا الطاعة لابن سعود؛ لأنهم ضجِروا؛ لِكَثْرَةِ ما يُكلفهم به من المشاقّ، ويُجبرهم على محاربات المسلمين، فما زال ثويني يسير في تلك الفيافي، إلى أن نزل ماءً يُسمى الشِّبَاكُ، وأول ما نزل به نُصبت له خيمةٌ صغيرةٌ هناك، فجاءه طُعَيْسُ - والناس في أشغال النزول - وطعنه بحربةٍ كان بها انتهاءُ أجلِه؛ ففزع الناسُ وقَتَلُوا طُعَيْسًا، ولكن هل يسدُّ الكلب في الأسَدِ!

فحُمِلَ ودُفِنَ في جزيرة العماير، وعند ذلك سُقِطَ في أيدي الجيوش التي معه، وانفَلُوا راجعين؛ فتبعهم جيش ابن سعود، وما زالوا معه في مكابدة الشدائد حتى نزلوا ماءً يُسمى سَفْوان، فَأَمَّلَ

(1) الصواب: ليُظهروا التوحيد والسُنة. وهم لم يُقاتلوا إلا مَن قاتلهم أو حالَ بينهم وبين نشر الدعوة الإصلاحية.



إخوان ثويني أن يَلُمُّوا الجيش مرةً ثانية ويَعُودوا لغزو الوهابيين - كما كان في نية ثويني -، إلاَّ أنَّ الباشا صرَف نظرهم من هذا الفكر، وولّى شيخًا على المنتفِق حمود بن ثامر.

وأمَّا ترجمة ثويني المذكور: هو ثويني بن عبد الله بن محمد بن مانع القُرَشي الهاشمي العلوي الشبيبي، تولى مشيخةَ المنتفِق، كما تولاّها أبوه وجَدُّه، وكان أحدَ أجواد العرب المشهورين، وكان له في حكومته الأولى أيامٌ تُعَدُّ غُرَرًا في وجه الدهر، منها يوم دُبَّى الموضع القريب من البصرة - كَرُبىَّ - وذلك أن كَعْبًا غزَوا أخاه صَقرًا بجيشٍ عَرَمْرَمٍ؛ فصدمهم وكسرهم تجاهه، وكان هو الآمر الناهي في ذلك اليوم، إلى أن ملأ الفضاءَ بجُثث القتلى من قبائل كعب **الروافض**، ومن ذلك اليوم وهم في ذلٍ تحت المنتفِق إلى الآن.

ومن أيام ثويني الشاهدة له بالشجاعة والإقدام: يوم ضَجْعَةَ، ويحرفونه العوام ويقولون جَضْعَةَ، وسَبَبُه أن عبد المحسن ابن سرداح لما اشتاقت نفسهُ لغزو بني خالد شيوخ الحسا؛ فرَّ إلى ثويني ليُنجِدَهُ ويُساعده على مرامه، فساعده ثويني بالرُمح والسيف والمال والجسم والجاه، وشيخ بني خالد إِذْ ذَاكَ سعدُون بن عَرْعَر، أحدُ من يُذكَرُ



بمَحاسنِ الشِّيَم، فلما تحقق ذلك من ثويني أمر شجعانه أن يشنُّوا الغَارَات على عرب ثويني، بعدما ألقى إليهم الإنذارات، فثار بين القبيلين الشرُ، وتواعدوا المقاطعةَ والمقاتلةَ، فلما ذهب الصيفُ وجاء الشتاءُ حشدَ كلٌ منهما بعسكره، فالتقيا في أرض بني خالد، فبقيا أيامًا والفُرسان في جِلادٍ وطِعَانٍ من الصباح إلى الليل، إلى أن امتطى الخيانةَ بعضُ قبائل سعدون، فهرب هو وأتباعه، وتولى بيوتَه ثويني.

فأما سعدون بن عَرْعر لما رأى أمورَه في إدبار، وجيوشَه ستؤول للبوار؛ فإِنَّه فرَّ ولحِق بعبد العزيز بن سعود، وعاهده على نَصره، فصار يومُ وروده عند ابن سعود يُعد عيدًا من الأعياد، وأيقن ابن سعود بأنه سيملك الأحساء بهذا السبب.

ولما رجع ثويني إلى داره ومقر حكومته: أجمع عشائرُ بني خالد على أن يُؤمِّروا فيهم داحسَ بن عرعر؛ لأنه هو أكبرُ إخوته.

ومن أيام ثويني المشهورة: يوم التَنُّومَة، القرية المعلومة بالقصيم، وذلك أنه لما انتصر على بني خالد، تطاولت نفسه إلى أن يغزوَ العارِضَ[1]، وأمَّ القَصِيمَ، ولكن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن،

(١) إقليم العارض بنجد، يضم الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى، ==



وكان أولَ ما وصل إليه من أرض القصيم: التَّنُّومةُ، فحاصرها بعسكره وفتحها عنوةً، وأهلك أكثرَ أهلها[1]، ثم لما كاد أن يطيعَه جميعُ قَبَائِلِ نجد، بل وقراها ومدُنها، ودخلهم الرعبُ والخوفُ منه: رجع إلى البصرة بلا سبب، وحاصرها وفتحها وملَكها، وكان ما كان من الأمور المشؤومةِ العاقبة -كما مر ذكرُه-.

واعلم أن أتباع ابن سعود لَمَّا قَتَلَ طُعَيْسٌ العَبْدُ الأَسْوَدُ ثويِنيًا مدحوه وحمدوه بقتل ثويني؛ لكونهم يعتقدون كُفْرَ ثويني! بل وكُفْرَ جميعِ مَن على وجه الأرض من المسلمين الذين لم يعتقدوا معتقدَهم[2]! وأكثروا من الأَشعَارِ في مدح تلك الواقعة، وجعلوها من الفتوحات الإسلامية المعدودة عندهم.

==

ويضم أيضًا غيرها؛ كالرياض وضرما والعُيينة والجُبيلة وسدوس والعمّارية وحريملاء. وسيتكرر هذا الاسم الموجع لابن سند في هذا الكتاب!

(١) لماذا أهلكهم وهم مسلمون موحدون ؟! هوى ابن سند يُعمي ويُصِمّ!

(٢) هذا من أكاذيب المؤلف الحاقد على الدعوة الإصلاحية وأتباعها. قال الإمام المُجدد محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله-: (ما ذُكر لكم عني أني أُكفِّر بالعموم، فهذا من بهتان الأعداء) "مجموع مؤلفات الشيخ" (٥ / ٥٨).



وبعده -كما ذكرناه - أفضت إمارة المنتفِق لحمود بن ثامر بن سعدون بن محمد بن مانع الشبيبي، ابن أخي ثويني لأُمِّهِ؛ لكون ثامرٌ أخا ثويني من أمِّه، وهو ابن عمٍ له كما هو معلوم.

وحمودٌ هذا من فُرسان العرب المعدودين، ومن أهل الذكاء والدهاء، وله وقايعُ وأيامٌ مشهودة، أقرَّ له فيها أخصامُهُ، وله أحوالٌ لم تكن في سواه.

فمنها: أنه غايةٌ في الأناءة، وربما أنه أقام في كَتْبِ المكتوب الموجز أيامًا بل شهورًا، ومن أناءته الخارقة للعادة: أنَّ مَنْ إليه شكى ظُلامةً من أحد عُماله أقامَ شُهُورًا ينتظر قَضَاءَها، ولربما أكَلَ من طعامه تلك المدةَ أكثر مما يطلبه أضعافًا مضاعفةً!

ومن نوادره: ما ابتلاه الله به من الوَسْوَاسِ، إلى أنَ يُقيمَ في قضاءِ حاجته ووضوئه سبعَ ساعات أو أقلّ بقليل، حتى أدّى به ذلك إلى تأخير الصلوات عن أوقاتها، بل ربما صلَّى صلوات الماضي في اليوم الذي بعده.

ومن مثالبه: أنه لا يرضى إلا برَأيِهِ.

ومنها: أن كاتبَه رافِضِيٌ غالٍ في رفضِه، فمَن رشاه قضى شُغلَهُ، وإلاَّ يُعَطِّلَ شُغلَه، وحمودٌ لا يسمع فيه شكوى أحدٍ مَا.



ومنها: تعظيمُه لكلِّ مَن عُرِفَ بالظلم.

ومنها: رضاه بظُلم قومه لرعيته.

ومنها: رضاه بكلِّ مفسدةٍ من كُلِّ باغٍ على وُلاَةِ الأمور (يعني الدَّولة العليّة!).

ومنها: أنه لا يولي على كلِّ قريةٍ إلا أظلمَ أهلِها وأفسدِهم وأفسَقِهِم.

ومنها: أنه على غايةٍ من الحِقد!

ومن محاسنه: الشجاعة التي لا تُوجد في أمثاله.

وله أيامٌ ومشاهد؛ فمن أيامه وهو شاب في حياة والدِهِ يوم الرُّضَيْمَة وهو يومٌ لسعدون بن عرعر على ثامر؛ فإنه في ذلك اليوم طاعن طِعَانَ الأسْودِ.

ومن أيامه: يَوْمُ أَبِي حِلاَّنة، وذلك يومٌ للمنتفِق علي محمد علي خان الزَّنْدِي، فإنَّه مَا عُرِفَ حمُود وذُكِر اسمُه بين الشجعان إلا في ذلك اليوم -كما ذكرناه سابقًا-.

ومن أيامه: يوم سَفْوَانَ، له على ثويني عمِّه، ومصطفى آغا الكردي متسلِّم البصرة، فإنه في ذلك اليوم عنترتُه.



ومن أيامه: يوم عَلَوِي، ماءٌ قريبٌ من البصرة القديمة؛ فإنه فارسُ الكتيبة.

وله أيامٌ سوى ذلك.

ومن محاسنه: إطعامُ الطعامَ، حتَّى أن من ضيوفه مَن يُقيم أعوامًا.

ومنها: ذكاؤه المُفرِط، حتى إنه إذا لقيَ الرجلَ مرةً، وغاب عنه سنين ثم لقيه، عَرَفه.

ومِنْ دَيْدَنِهِ سؤالُه عن الأخبار الجليلة والحقيرة.

ومن ذكائه: أنه لَّما عميَ بصرُه، يعرف مَن لقيَه ولو مرّةً بصوته.

ومن محاسنه: الحِلْمُ الذي لم يُسمع بمثاله.

ومن محاسنه: يُحب الآكلين معه ويُلاَطفهم بالحكايات المناسبة للحال، وأنه يشتد غضبُه على خُدامه إذا قَصّرُوا في حقِّ ضيفه.

ولَّما ابتلاهُ الله بالعَمى ازدادت أُبَّهتُه ووقارُه، وَعَظُمَ مُلكُهُ وسَطوَتُهُ في تلك الأيام، واستمرت حكومته الثانية من سنة ١٢١٢ إلى سنة ١٢٣٢ لما عزله الوزير داود باشا ونصَب مكانه ابنَ أخيه عَقِيلاً -كما سيأتي ذلك -.

ومن وقائع سنة ١٢١٢: أن سعودَ بن عبد العزيز بن محمد بن



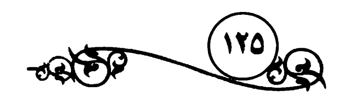
سعود غزا في تلك السنة أطرافَ بني المنتفِق، فَصَبَّحَ القريةَ المعروفة بأمِّ العباس، وقتل منها ومما حولها خلقًا كثيرًا، ونَهَبَ وحرَّق، ثم كرَّ راجعًا، وحمود في البادية، فلما بلغه الخبرُ جدّ في السَير ليُدركه، فما أدركه.

وبعدما كرَّ سعودٌ راجعًا، ووصل إلى أطراف نجد، عطف وأغار في سنته تلك على بادية العراق، وكان مطلقُ بن محمد الجربا الشَّمّرِي نازلاً في بادية العراق مع عربه شمَّر، فلمَّا صبَّحهم سُعودٌ؛ فرَّ مَنْ فَرَّ منهم، وثبت من ثبت، فِممّن ثبت وقاتل جيشَ سعود: مُطلقُ الجَرْبا، فكَرّ على الفرس مرةً، فكلّما كرَّ على كتيبةٍ هزَمَها، فحاد عن مطاعنته الشجعانُ.

وكان من قدَرِ الله تعالى الذي لا يُرَدُّ أنه كرَّ عليهم في بعض كرّاته؛ فعثرت به فرسُه في شَاةٍ، فسقط من ظهر فرسه، وقُتِلَ، وكان قتلُهُ عند سعود من أعظم الفتوح، إلاَّ أنه وَدَّ أَسْرَهُ دون قتله.

هذا؛ ومطلق من كرماء العرب، عريق النّجار، شريف النسب.

ومن أيامه المشهورة: يوم العُدْوَةِ؛ لسعود بن عبد العزيز عليه، وفي ذلك اليوم قُتِلَ ابنُه مِسْلَطٌ،كان شجاعًا مِقدامًا، قاتل في ذلك



اليوم قتالَ الأُسُود، فلمَّا ضاق الخِناقُ على سُعود: خَانَ ابنُ هَذّالٍ، وتنحَّى عن مطلق، فانكسر مُطلق وقومه.

ثم إن مُطلقًا لازال يرتع في بادية العراق، ويتمنى مَن يساعده على ابن سعود، إلى أن سار من العراق إلى الشام، وتوجه مع أحمد باشا الجَزَّار إلى الحج، فلما رجع من الحج، ورأى ذلك الضَلالَ المبين الذي عليه الوهابيون؛ من تكفيرِ الأُمّةِ المحمدية بأسْرِها؛ رَجَع وقد عاهد الله على أنه لا يَرجع عن الجهاد والقتال مع الوهَّابيين إلى أن يموت!

وقد بَرَّ اللهُ قَسَمَه رحمه الله.

ثم دخلت سنة ١٢١٣: غزا الكتخدا علي بيك بأمرِ الوزير سليمان باشا الحسا من البحرين، بعدما تولاَّها سعود بن عبد العزيز وبنى فيها القِلاعَ المُحكَمة، وسامَ أهلَها الخَسْفَ، وأظهر بدعتَه فيها، وهو تكفيرُ مَن لم يدخل في طاعته من المسلمين[١]، ووافَقَهُ من أهلِها مَنْ طَبَعَ اللهُ على قلبه وسمعه وبصره!

---

(١) هذا من أكاذيب ابن سند -كما سبق-.



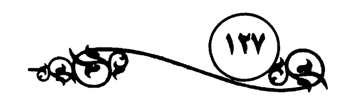
وغزا معه من جانب الوزير شيخُ بن المنتفِق حُمُودُ بن ثامر بن سعدون بن مانع، بِعَرَبِهِ، وبَادية العراق عرب عُقَيْل، وأميرُهم إذ ذاك ناصر بن محمد الشِّبلي، وفارسُ بن محمد الجَربَا الشَّمَّرِي بِعَرَبه، وأصحب الوزيرُ مع علي بيك الكتخدا محمدَ بن عبد الله بن شاوي الحِميري، أحدَ دُهاة العرب في أيامه، ومعه من أهل الزبير جَمٌّ غفيرٌ، وأميرُهم إبراهيمُ بن ثاقب بن وَطْبَان[1].

فسار العسكر قاصدين الأَحْسَا، إلى أن نَزَلُوا المُبَرَّزَ، وحاصروا القِلاعَ، ولم يقاتِل أحدٌ من عسكر الكتخدا ولا من العرب سوى النجديين وعُقَيْلٌ؛ حتى أطاع الكتخدا غالبُ سُكَّان المُبَرَّزِ.

وفي أثناء الحصار: غزا حُمودٌ نجدًا، فأغار على سُبَيْع - قبيلة معروفة-، والظاهر أنها في مُضَر؛ فقتل منهم وغَنِم إبلاً وشاءً جَمًّا،

---

(١) (ت ١٢٣٧هـ)، والوطبان أبناء عمومة لآل سعود، قال الشيخ حمد الجاسر في "جمهرة الأسر المُتحضرة في نجد" (ص٨٦٠): (وهم بنو وطبان بن ربيعة بن مَرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة ابن مانع المريدي، من المردة، من وايل.. وسبب نزول وطبان بن ربيعة بن مرخان بلدَ الزبير أنه قتل ابنَ عمه مَرخان بن مقرن بن مرخان، فهرب من نجد..).



ومعه في تلك الغَزاة فارِسُ الجربا، وابنُ أخيه بُنَيَّه الجَرْبَا بن قُرَيْنِيسْ -تَصغير قِرناس-، والقِرناس شِبه الأنف يتقدم الجبَل.

وبُنَيَّه هذا أحدُ مَن اشتهر بين العرب بالكرم والشجاعة والنخوة.

ولما رجع حمودٌ من تلك الغزوات وورد على الكتخدا بالغنيمة، قويت هِمّة الكتخدا وحاول فَتْحَ القِلاع، لكن -كما ذكرنا - لم يكن في عسكره مَن يباشر القتالَ سِوى مَن ذكرناهم أوَّلاً؛ وهُم باقي العسكر، والتَحَفُّظُ خوفًا مِمَّنْ يخرجُ عليهم من القِلاع، وأما الأطوابُ فإنها لم تَعمَل شيئًا في أسوارِ الأحسا؛ وذلك لمتانة أسوارها.

وقد ذاع بين العسكر أنَّ تثبُّطَ العساكر خيانة.

فلما طالت مدةُ الحِصار، ولم يمكن الكتخدا الفتحُ وهدمُ القلاع، واشتد القحطُ على العسكر؛ فَرَّ الكتخدا هاربًا مع عسكره، قاصدًا العراقَ، وترك أهلَ الأحسا يبكون دَمًا لرحيل الكتخدا عنهم[1]، وفَرَّ أكثرُ أهلِ الأحسا مع جيش الكتخدا، خوفًا على أرواحِهم وأَغْرَاضِهِم من الوهابيين!

---

(١) في الأحساء عنصرٌ شيعيٌ كان مخامِرًا على حكومته السعودية، ولا يبعد أن يكون هو المقصود بهذه الإشارة. (الخطيب).

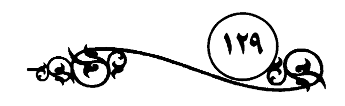


وفَرُّوا في أسوأ حال، من تشتيت الحال، وعَدَمِ وجود رَوَاحِلَ، فكانُوا مُشَاةً حُفَاةً جائعِين عطشى، يَجِدُّوْنَ في السير خوفًا من أنَّ ابن سعود يُدركهم، تاركين الأموالَ والديارَ، سالكين المهامِه والقِفار، خصوصًا مَنْ تداخل مع عسكر الدولة في تلك الأيام.

ولما قفل الكتخدا هاربًا: جَدَّ في طلبه سعود بن عبد العزيز بجيشه، فأدركه في محلٍ يُسمى ثاج، ونزل سعودٌ الحِنَّاءَةَ، وانشبك القتال بين الفريقين، وقُتِلَ خالد بن ثامر أخو حمود، فبينما الفُرسان تتطارد إلاَّ وقد جنح الكتخدا للصُلح، وذلك أنّ بعضَ كُبَراء عساكر الكتخدا من أقارب سعود وعلى مذهبه! فصاروا يُهَوِّلُونَ أمرَ سعود للكتخدا؛ فداخَله الخوفُ -كما فعلوا به لما كان في الحسا-.

والسببُ الثاني: أن متولي مصاريف جيش الكتخدا: اختلسَ أموالاً جَمَّةً، وقيدها في الدفاتر كَذِبًا وزورًا! فاقتضى رأيه أن العسكرَ إذا رجع مهزومًا ومُصالِحًا على المغلوبية، فلا يصير عليه شِدَّةُ المحاسبة على المال التالف؛ لأن جميعَ الأموال والذخائر التي كانت معهُ تُعَدُّ من جُملة الهالك، ويُقْطَعُ النظرُ عنها!

وأمَّا المتهوم بهذه الخيانة، وأنه هو الذي كان يُشير على الكتخد



بالهزيمة، ويُهَوِّلُ أمْرَ سعودٍ والوهابيين: هو إبراهيم بن ثاقب بن وَطْبَان؛ لأنه كان رجلاً فصيحًا مِنطيقًا من دُهاة العرب، ويُظَن فيه مثلُ هذا الكلام، ومُتَّهمٌ ببعضٍ من عقائدهم، يعني أنه يُكَبِّر أمرَ الوهابيين عند بعض أُمَنَاء الكتخدا، فينقلون له ذلك الخبر، إلى أن دخله الخوف، وكان ما كان، خصوصًا أنْ ساعَدَه بمثل هذه الأفكار متولي الخزينة؛ بِنَاءً على خيانته الماليَّة.

ولذلك أَكْثَرُ الناصحين للكتخدا؛ مثلُ حمود بن ثامر وأمثالُهُ، ما كانوا راضين بالصُلح.

وأما قولُ المؤرّخ التركي إن سبب انهزام الكتخدا في هذه الواقعة وطلب الصُلح هو نفاد الزاد من العسكر، فهو غَلَطٌ مَحْضٌ، مبنيٌ على إشاعة الخائنين، بل الخَبَرُ الصحيحُ: أن الذين نفد زادُهُمْ هُم الوهابيون، ولَوْ تَأَنَّى عنهم الكتخدا يومين؛ لَفَرُّوا من أَمَامِهِ طلبًا للقُوت (والذي أراه من فحوى الكلام أن سَبَبَ انهزام عسكر الكتخدا من الأحسا مع مساعدة الأهالي لهم، وطلب الصُلح في البادية، هو من سوء الضبط والربط، ومن كثرة تعدّد الرؤساء في ذلك الجيش، وقوله: المؤرخ التركي، هكذا وجدته في أصل النسخة، ولم أدرِ أيَّ تركيٍ عناه المصنِّف، وما اسم هذا التركي ؟ وما اسمُ



تاريخه ؟ وإلى أيِّ بلدٍ يُنسب؟[1]).

ولنَرجِع إلى أخبار الصُلح الذي مَن رضيَ به فقد لبِس ثوب الخزي والعار إلى آخر الدهر!

ثم ورد على الكتخدا كتابٌ من سعود يقول فيه: من سعود بن عبد العزيز إلى عَلي: أمَّا بعد؛ فما عرفنا سَبَبَ مجيئكم إلى الحسا، أما أهل الحسا فإنهم **روافِضُ**[2]، ونحن جعلناهم بالسيف مُسلمين[3]، وهي قريَةٌ ليست بداخلة تحت حكمكم، والذي يحصل منها قليلٌ،

---

(١) سبق في مُقدمة الشيخ محب الدين الخطيب أنه: رسول الكركوكلي، صاحب "دوحة الوزراء".

(٢) الحديث عن الشيعة منهم؛ لصَرف علي باشا عن عزمه. وإلا فإنّ الغالب على أهل الأحساء أنهم سُنة، ولله الحمد.

(٣) أي أنهم صاروا مسلمين تقيّةً عندما صاروا في مواجهة قوة الحق. وهذه عادتهم، كما تظاهروا بموالاة أبي بكر وعمر وأعلنوا ذلك على مِنبر الكوفة يوم الجمعة ٢٦ شوال سنة ١١٥٦ لما تبين الحقُّ لنادر شاه، وجنح إليه. (الخطيب).قلت: انظر تفاصيل ذلك في رسالة "مؤتمر النجف"؛ للشيخ عبدالله السويدي-رحمه الله-،وهو صاحب المناظرة مع علماء الشيعة، التي انتهت بغَلَبتهم أمام حاكم فارس "نادر شاه".



بالنسبة إلى تعبكم وإلى مصاريفكم، ولو أن جميعَ أهل الأَحسَا وما يليها تؤدي إليكم دراهمها، لم تعادِل مصاريفكم في هذه السفرة فقط، وما كان بيننا وبينكم من المضاغنة إلا ثويني، وقد لقِيَ جَزَاءَه، فالآن مأمولُنا المُصالحة، وهو خيرٌ لنا ولكم، والصُلح سيد الأحكام. انتهى.

فكتب الكتخدا جوابًا لكتابه: من علي باشا إلى سعود بن عبد العزيز، أما بعد: فقد أتانا كتابُك، وكلُ ما ذكرتَه من أمر المصالحة صار معلومًا، لكن على شروطٍ نذكرها لك، فإن قَبِلتَها وعمِلت بها؛ فَحَسَنٌ، وإلا فما نحن عاجزون عنك! حيث لنا مدة أربعة أشهر نجوبُ بِلاَدَك، وما قدرت تظهر من مكانك غير هذه الدُفعة، وأيضًا: اغتررتَ بقول ابن عُفَيْصَان (وابنُ عُفَيْصَان هذا كان أميرَ الحسا من طرف ابن سعود زمن الوهابيين)[1].

فأمَّا الشرط الأول: فهو أن لا تقرب الحسا بعد الآن، وأما الثاني: فهو أن تُرجع الأطواب التي أخذتها من ثويني، وأما الثالث:

---

(١) المتوفى في عنيزة عام ١٢٢٩هـ.انظر عنه وبطولاته: رسالة "إبراهيم بن عفيصان - القائد والأمير والداعية في الدولة السعودية الأولى"؛ للأستاذ: عبدالرحمن بن عبدالعزيز الحصيّن.



فهو أن تُعطينا جميع ما صرفناه على هذا السفر، وأما الرَّابع: أن لا تتعرض للحجاج الذين يأتون إليك من طرفِ العراق مع الأَمْنية العموميّة في جميع الطُرُق، فهذه الشروط التي أخبرناك عنها، والسلام على من اتبع الهدى.

فكتب إليه سعودٌ ما نَصُّهُ: جاءنا كتابُكُم، وفهمنا معناه: فأَمَّا الحسا فهي قريةٌ خارجةٌ عن حُكم الرُّوم[1]، ولا تساوي التعبَ، وما فيها شيءٌ يوجب الشِّقاق، وأما الأطوابُ فهي عند والدي بالدرعية، إذا صدَرتُ إليه أعرضُ الحال بين يديه، والوزيرُ سليمانُ باشا أيضًا يكتب له، فإن صحت المُصالحة وارتفع الشقاقُ من الطرفين فهي لكم، وأنا الكفيل بها، حتى أُوصلها إلى البصرة، وأمَّا مصاريفُكُم فإني لم أملك من هذا الأمر شيئًا، والشَّوْرُ في والدي، وأمَّا ما ذكرتم من عدم التعرض للحُجاج؛ فحُبًا وكرامةً، وأما الأَمْنِيّة؛ فهي التي لازِلْنَا نُقَاتِلُ الناسَ عليها، حتى جعلنا الأرضَ كلَّها لله، وجميعُ المسلمين مشتركون فيها، وصار الذئبُ لا يقدر يضرُ الشاةَ في أحكامنا.انتهى. (انظر إلى هذا الكتخدا الذي يَشترط

(١) الأتراك.



شروطًا مع كونه مغلوبًا مهزومًا، ما هذا إلا نوعٌ من الوقاحة! وانظر إلى هذا الشيطان[1] ابن سعود كيف أجابَهُ بأجْوِبَةٍ، وترك بيتَ القصيد مَحْلُولاً، أعني أخذَ مصاريف الحرب وردَّ الأطواب، وألعنُ مِنْ هذا كلِّه لما قال له في جوابه الأول: من سعود بن عبدالعزيز إلى عَلي، ولم يذكر لعَلِي أبًا، إشارةً إلى كونه لا يُعْلَم لَهُ أَبٌ!).

ولما تم الصُلح على هذه الكيفية؛ رجع الكتخدا إلى بغداد، ولَمْ يَفِ سعودٌ بواحد من الشروط، بل طغى وتمرَّد، وتلاطمت أمواجُ بدعتِه.

ثم دخلت سنة ١٢١٤: وفي هذه السنة أقبل عبد الله آغا متسلِّم البصرة السابق، الذي كان عصى ثم فرّ منها إلى بغداد؛ فأكرمه الوزير سليمان باشا، وأرجعه متسلِّمًا إلى البصرة.

وفيها: تولى قضاءَ البصرة الشيخُ عبد الله الرحبي، ثم البغدادي الحنفي - وستأتيك ترجمته -.

وفيها: أغارت عَنَزَةُ على الدُّلَيْم، قيل إنهم يُنسبون إلى حِمير، وقيل إنهم من كَهْلاَن، ولَمَّا غَنِم العَنَزِيُّون منهم ومن غيرهم من عرب

(١) بل الداهية! -رحمه الله-.



العراق: أَمَرَ الوزيرُ شيخَ العَنَزيين فاضِلاً أن يؤدِيَ مَا غَنِمَتْهُ قبيلته من أمور الدُّليم وغيرهم، فلما أراد فاضلٌ الأداءَ منهم لم يُطيعوه، فخرج عليهم الكتخدا علي بيك بعسكرٍ، وأحاط بهم على غِرَّةٍ، فالتجأ العَنَزِيُّون بآل قَشْعَمٍ ومَن معهم من عرب العراق، فتشفعوا لهم عند الكتخدا، فقبل شفاعة القَشْعَمِيِّيْنَ لهم على أن يُعطوا الكتخدا ثلاثةَ آلاف بعير، وخمسين فرسًا - هكذا نقله المؤرخ - والذي أحفظه: أنهم - أعني العَنَزيين - خُدِعُوا، فجرى عليهم ما جرى ممّا ذكره.

وفيها: غزا الكتخدا علي بيك آل قَشْعَم والدُلَيم؛ فأغار أولاً على آل قَشعم، فلم يَظفر بهم؛ لانهزامهم، فلما انهزموا جَدَّ في طلبِهم، حتى وصلَ إلى شُفاثَى، ثم عطف على الدُلَيم، فانهزموا، فغَنِم من أغنامهم، وعاد إلى الفَلُّوجَة، فراسل آلَ قَشعم ثم الدُليم، وأَمَّنَ كلاً منهم، فرجعوا إلى ديارهم، وعاد هو إلى بغداد.

قال في القاموس: قَشْعَمْ كجَعْفَرْ: المُسِنَّ من الرِّجال والنسور والأُسْد، ولقب ربيعة بن نزار.انتهى. لكن المشهور بين العرب أنهم من بني ماء السماء، يعني من قحطان.

ثم دخلت سنة ١٢١٥ : فيها تمَرَّد آل سليمان من خُزاعة، وعَصوا على الوَالِي؛ فأَمَرَ الكتخدا أن يخرج إليهم بعسكر، فَخَرج، ولما وصل



إليهم تحصَّنوا في قلعتهم؛ فرمى عليهم بالأطواب، ففرُّوا منها إلى الأَهْوَار، وكانت الأهوارُ مَعْقِلَ العُصاة، فما زال العسكرُ في آثارهم؛ حتى أخرجوهم من أهوارهم، وغنِموا من أموالهم شيئًا كثيرًا، وأرسلوها إلى الوزير.

فلما ضاقت بهم الأرضُ بما رَحُبَتْ سألوا الوزيرَ العفوَ عن ما مضى، واعترف كُلٌ بِذَنبِه، وأدَّوا المطلوبات المنكسرة عليهم، ورجعوا إلى أوطانهم.

وفيها: توجه عبد العزيز بن عبد الله بن شاوي الحِميرِي إلى حج بيت الله الحرام، وأَمَرَهُ الوزيرُ بأن يَمُرَّ على الدرعية في عودته، ويُلاقِيَ سُعُودَ بن عبد العزيز، ويكلمه في دِيَات مَنْ قُتِلَ من خُزَاعَةَ وسُكَّان النجف؛ أي الذين قتلهم الوهابيون ظُلْمًا وَعُدْوانًا!

فلمَّا أَتَمَّ حجَّه: قَصَدَ الدِرْعِيّةَ، وتلاقى مع سُعود بن عبد العزيز، وكلّمه في هذا الشأن؛ فَضَحِكَ وقال له: أمَا كَفَى الوزير أننا تاركونه يحكم في بَغْدَادَ! والله عَن قَرِيبٍ تَرَى جميعَ غَرْبِيِّ الفُرَاتِ لنا، وشرقيَّة له!

فانقلب ابن شاوي بغير مَا أَمَّلَه، إلاَّ أنه لما شرِب من مائهم،



وجلس بين دُعاتهم مازَجَهُ مِنْ بِدْعَتِهِم شُبَهٌ وَنَزَغَاتٌ، ضَلَّ وَأَضَلَّ بها بَعضَ العوام[1]!

ولَمَّا وصل ابن شاوي إلى بغداد، وأعلم الوزير بمراد سعود بن عبد العزيز، وبمنتهى أمنيته: استعدَّ الوزيرُ لمحاربة الوهابيين - إن وفقه الله كما سيجيئك -.

وفي هذه السنة الماضية - أعني الخامسة عشر بعد المائتين والألف-: تشفَّع الوزير عند السلطان سليم أن يُرجِع تِمِربيك الملِّي إلى أوطانه وأملاكه؛ فأرجعها إليه.

ودخلت سنة ١٢١٦: فيها أغار سعودٌ بأهل نجد الوهابيين على العراق، سرايا وركبانًا؛ فنهبوا وسلبوا وحرَّقوا بعضَ القُرى، وسَبَوْا وأَسَرُوا؛ فأرْسل الكتخدا علي بيك لمقاتلتهم، ومحمدَ بن عبد الله بن شاوي الحِميري، وفارسَ بن محمد الجربا الشَّمَّرِي، ومعهم عسكر، فلما التقوا معهم، ووجَدُوهم قد تحصّنوا بالرواحل، أي أنهم قَرَنُوا الإبلَ ودخلوا وَسَطَها، وجعلوها متَارِيسَ، وصاروا يرمون عليهم بالبنادق الرصاص من وسط الإبل، فَجَبُنَ العسكرُ وخافوا من الهجوم

(١) بل وفقه الله لاتّباع الحق لما بان له -رحمه الله-، وليس كمَن عاند واستكبر!

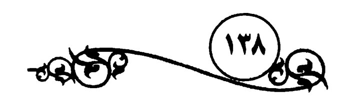


عليهم، ورجعوا إلى شُفَاثَى -كَحُبَالَى -، وما بهم من عَطَشٍ، ولكن ادَّعَوهُ كَذِبًا! إنما هم كرِهوا النِّزالَ في الحروب خوفًا على أرواحهم، وكان يُمكنهم أن يَقْرِنُوا الإبلَ ويدخلون وسطَها كما فعَل الوهابيون، ويهجمون مع الإبل سَوِيَةً، ولكن ما أَكْثَرَ أَعْذَارِ الجبان!

وفي تلك السنة: عصت قبائل عِفْكٍ وجُلَيْحَةَ، ومنعوا الخَراج وقَطَعُوا الطريق؛ فخرج عليهم الكتخدا علي بيك بعسكرٍ جرارٍ، فسار إلى أن نزل نهر اليُوسُفِيَّةِ فأعطاه شُيُوخُها الخَرَاجَ وأذعنوا للطاعة، وأعْطَوا رَهَائِنَ بأن لا يعودوا لمثلها.

وفيها: عَزَل عبدَالرحمن باشا الكردي وأخاه سَليمًا عن كَوي وحَريرا (قوله كَوي وحَرِيرَا، هكذا وجدته في الأصل بهذا الضبط، وكذلك وجدته يُعبر ببعض عباراتٍ ليست مألوفةً عند المتأخرين، ولكن لم يُمكن إلا مجاراتُه كَيْ أتحرى الصدق ما أمكنني)؛ لمخالفتهما لأوامرِ الوزير، وأُتِيَ بهما إلى بغداد، ثم غُرِّبَا إلى الحِلّة، وحُبِسَا في القيود، وولَّى الوزيرُ محمودَ بيك ابن تِمِر بيك كَوي وحَرِيَرا.

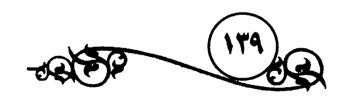
وفيها: غزا سعودُ بن عبد العزيز الوهابي العراقَ، وحَاصَرَ كَرْبَلاءَ، وأخذها بالسيف عُنْوَةً، وغَنِم جميعَ ما كان في مشهد الحسين



من الذهب والجواهر التي أهدتها الملوكُ وشيعةُ الهند إلى ذلك المقامِ المُقَدَّس[1]، وقتل أهلَها قتلاً ذريعًا، واستباحها، ونهبَ من المال والذهب والفضة ما لا يتصوره العقل، وبه تقوّى واستعد لِتَمَلُّكِ الحرمين، ثم رجع إلى عارِضِه، مُتبجحًا بما صدر من عسكره، ويقول: لوْ لَمْ نكن على الحق لما انتصرنا! وما عَلِم أن ذلك استدراجٌ، وأنه على الباغي ستدور الدوائر، وأَنَّ مَنْ قال: لا إله إلاَّ الله؛ فقد حَقَن دمَه ومالَه، ولكن الهوى إذا استولى أعمى البصائِرَ[2].

(١) قال ابن كثير: (وأما قبر الحسين رضي الله عنه فقد اشتهر عند كثيرٍ من المتأخرين أنه في مشهد علي بمكان من الطفّ عند نهر كربلاء، فيُقال: إن ذلك المشهد مبنيٌّ على قبره، فالله أعلم. وقد ذكر ابن جرير وغيره: أن موضعَ قتله عُفي أثرُه حتى لم يطلع أحدٌ على تعيينه بخبر) "البداية والنهاية" (٨/ ٢٠٣).

(٢) وهل كان الغوري وطومانباي لا يقولان «لا إله إلا الله» لما وجّه السلطان سليم جيوشَه للاستيلاء على مصر والشام والحجاز، ومحاربة مَن يعارضه من أهلها والحاكمين عليها. والسلطان سليم لم يكن صاحب دعوةٍ إلى سُنة، أو استنكارٍ لبدعة! (الخطيب). قلت:طومان باي والغوري آخر حكام دولة المماليك في مصر، قبل سقوطها في يد الدولة العثمانية الغازية.



وبأموال كربلاء استفحل أمرُ سعودٍ، وطمِع في مُلك الحرمين، وشرع في محاصرة المدينة المنورة، فصار من أمره ما سيأتيك بيانه.

ولنذكر نبذةً مِن أخبارِ جِيَفِ الشيعة؛ المُعَبَّر عنها عندهم بالتوابيت التي يدفنونها في كربلاء، وهي أنه إذا مات الشِّيعيُّ في أقصى المشرق أو المغرب، فيوصي بأنهم يدفنونه في كربلاء، ويَنذر على ذلك النذور، فيتحمَّل أهلُه بجِيفته وينقلونه إلى كربلاء، وهناك تأخذ عليهم الحكومة شيئًا معلومًا من الدراهم، في مقابلة دفن الميت في كربلاء، وهناك صَهاريج كبار لبعض أهالي البلدة من الشيعة، مُعَدة لطرح تلك الجِيَف فيها! ولهم شيءٌ معلومٌ أيضًا على كل جِيفة، فيطرحون الميتَ داخل الصِّهريج، ويسدون عليه، وكلما وردت جِيَفٌ أيضًا يطرحونها داخلَ تلك الصّهاريج! وربما تتكلف الجِيفة الواحدة من حيدر أباد الدّكن إلى كربلاء مثلاً نحو الألف روبية، هذا مع الأواسط، وأمَّا مع أغنياء الشيعة، فربما تتكلف الجِيفة ألوفًا، ثم إنه إذا امتلأ ذلك الصِّهريج من الجِيَف والتوابيت، تجد لتلك الأماكن وما جاورها عُفُونةً ونتانةً تُشَمُ من مسافةٍ، لا يُطيقها إلا أهلُ تلك الجهات الذين أَلِفوها! ولذلك كلّما امتلأت الصّهاريج فصاحب الصِّهريج يبيع ما فيه من تلك الجِيَف المُعَبَّر عنها بالتوابيت على صاحبِ الحَمَّام بثمنٍ



معلوم! فيُحضر صاحبُ الحمّام آلاتِ الحمل، وينقل جميع تلك الجِيَف، ويَقِد بها حمّامه!

فانظر لحماقة هؤلاء الشيعة: كيف يصرفون الذهبَ والفضةَ لأجلِ حَرقِ آبائهم! ويا ليت شعري! مَا الفرقُ بينهم وبين مجوس الهند، الذين يُحرقون موتاهم ؟!

وأيضًا: من عجائب كَرْبَلاَء أن هناك حفرةً صورةَ قبرٍ، وعليها غِطاء من حجر الرُخام، ويزعم شيعة أهل تلك البلدة أَنَّهُ إذا هَلَّ شهر المحرم يفيض الدمُ من تلك الحُفرة، وبه يعرفون ظهورَ الهلال! مع أنها بطول السنة ناشفةٌ، يعني أنهم لَيْلَةَ الشَّك يذهبون إلى تلك الحُفرة، ويمدون فيها عَصا؛ فإن ظهر رأسُ العصا وفيه صورةُ دمٍ ممسك، فيعرفون أنَّ هذه الليلة هي أول شهر المحرّم! فتَضِجُّ البلدة بالصُّراخ جميعُها، ولا يحتاجون إلى النظر في الأُفُق لرؤية الهلال، بل يكتفون بمد العصا في تلك الحُفرة! وهذا أيضًا من حِيَلهم لنُصرة مذهبهم.

فلما بلغ الوزيرَ ما صُنع في كربلاء: أمر الكتخدا علي بيك أن يخرجَ بعسكره، ويتبعه إلى مقرّ مُلكه العارِض، فما وصل الهِندية(١)

---

(١) قال الدكتور عماد رؤوف: (أرضٌ معروفةٌ في محافظة الحِلة اليوم، سُميت ==



حتى نجا سعود على المَهرية القَود[1]، والتحق بالقِفار والصحاري، فَجَبُن الكتخدا، ولم يمكنه أن يلحقه.

وفي هذه السنة: عَزَل الوزيرُ سَليمَ بيك صهرَه عن متسلِّمية البصرة.

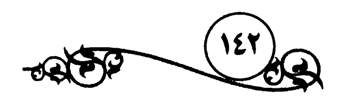
ثم دخلت سنة ١٢١٧: وفيها توفي الوزيرُ سليمان باشا أبو سعيد، ذو الآثار، التي من أعظمها هذا البَطَلُ المجعولُ له هذا التاريخ (يعني داود باشا)، وذكر المؤرخ التركي أنه قبل وفاته جعل وليَّ عهده علي بيك الكتخدا، وأنه أوصى داود بيك بالمصافاة معه، وكذلك أوصى بذلك نصيفَ بيك وسليمَ بيك، ودُفن رحمه الله تعالى بجوار الإمام أبي حنيفة.

ومن آثاره الجميلة: أنَّه عمَّر سُورَ دارِ السَّلاَم، وأنشأ سور غربيّها، وهدم دار الإمارة وعَمَّرها عمارةً لائقةً بالوزارة، وأنشأ المدرسةَ المعروفةَ بالسليمانية، وشحنها بالكتب الحديثية والفقهية والأدبية،

==

بهذا الاسم لوقوعها على ضفّتَي نهر الهندية، الذي أنفق على حفرِه: أحد الأمراء الهنود عام ١٢٠٨هـ؛ لإيصال الماء إلى مدينة النَجَف)!

(١) القَود: الخيل السريعة. والمَهرية: نِسبةٌ لقبيلة مهرة بن حيدان في اليمن.



وعمَّرَ جامع القَبْلاَنيَّة وجامعَ محمد الفضل وجامعَ الخلفاء، ونقصه عمّا كان في الأصل، وزوَّق جامعَ منارةِ الإمام الأعظم، وعمّر وأنشأ سوقَ السَّرَّاجين والخان الذي فيه قُرب دار الإمارة، وقَنْطَرَتَيْ دَلِّي عَبَّاس على نَمَطٍ اختارَهُ، وأنشأ على نهر نارين قَنطرةً، وعمَّر كُوتَ العِمَارَةِ، وسورَهُ، وعمَّر سورَ البصرة وقرية سيدنا الزبير وسُور الحِلَّة وسُور مَاردين، وأنشأ قُرب الموصل قلعةً حَصِينَةً، وأحيَا في طريق ماردين موضعًا معروفًا بجَلاَغة عند الصادرين والواردين.

وبعد دفنه أجمع أهلُ الحَل والعَقد في بغداد بأن الكتخدا علي باشا هو الأليق بوزارة بغداد، وكتبوا محضرًا، وأرسلوه إلى الدولة بذلك، إلاّ أن أحمد آغا أغاةَ اليَنجَاريَّة داخله الحَسَدُ، وأراد أن يُفسد هذا الأمرَ، فاجتمع بسليم بيك ووسوسَ له، وقال له: إنك أنت أولى من علي بيك، خصوصًا وأنت صِهر الوزير الأَسْبَق، فأَمَالَهُ إِلَيهِ، ثم ذهب إلى علي بيك الكتخدا المذكور وقال له: إن أهلَ بغداد أهلُ نفاقٍ وإِثارة فِتَنٍ من قديم الأَزَلِ، وأخشى أن يُهيِّجُوا عليك الغوغاءَ والأوباش، فالأولى أن تأذن لي في أن أضبطَ القلعةَ باليَنجَارِيَّةِ؛ لنكون آمنين من أهل بغداد. فوافقه على ذلك، وما يدري أنه مُضْمِرٌ له الخيانَةَ.



فبعد أن استقرّ في القلعة شرع في المحاربة مع علي بيك وطلب الوزارة لنفسه، فبينما اشتدَّ الأمرُ على عَلِي بيك إلاَّ وجَاء الفرجُ والمُبَشِّرُ بقتل أحمد آغا المذكور؛ ففرح واطمأن وملك القلعةَ، وعفى عن أكثر مَن فيها، وهدأت الفتنة.

ثم وصل الفرَمان من الدولة العليّة بتوجيه إيالة بغداد لعلي باشا المذكور.

وبعده غزا علي باشا الوزير البِلْبَاصَ من بلاد الأكراد، فأطاعوه بعد العصيان والفساد، ودفعوا الخَراج المنكسر الذي عليهم، وانقلب منهم، وعَبَرَ الدِّجْلَةَ من الموصل؛ لمقاتلةِ أهلِ سِنْجَار، الجبل الشاهق المعلوم، وأكثر أهله كفارٌ[1]، فقاتَلهم وطَوَّعهم.

وممن أظهر الشجاعة والبسالة في ذلك اليوم، وبذل الهمةَ تجاه الوزير: محمد باشا والي كَوي، وانتصر.

وأمَّا إبراهيم باشا فإنه قاتلهم في يومٍ، وهُزِمَ فيه، ومن شدة قهره مَرض ونُقل إلى الموصل، ومات هناك.

---

(١) لعله يريد "اليزيدية"، وانظر لِنحلتهم وتاريخها: كتاب "اليزيدية"؛ لأحمد تيمور باشا، الصادر من مطبعتنا. (الخطيب).



ولما بلغ الوزيرَ وفاتُه نصَب مكانهُ عبدَالرحمن باشا.

وقد وَفَدْتُ على الوزير علي باشا وهو محاصرٌ جبلَ سِنجار، ومدحته بقصيدة؛ فأكرمني وأجَلَّنِي، والتمست توليةَ المدرسَةِ المُغَامِسِيَّةِ؛ فتفضّل بها عليَّ.

وبعد رجوعه من سِنجار: غضِب على محمد وعبد العزيز ابنَي عبد الله بن شاوي، وَأَمَرَ بِخَنْقِهِمَا؛ فَخُنِقَا رحمهما الله، ودُفنا بقُرب الموصل.

وأمَّا مناقِبُهما:

فأمَّا محمد؛ فكان في أيامه من ملوك العرب، وأهلِ النجابة والمروَّة والنخوة، ومضَّى عُمْرُه وهو جليس الملوك ونَدِيمُهُم وسفيرُهُم وأمينُهُم ومستشارُهم؛ بحيث يُضرب به المثل في اللطافة والأدب والمحاضرات في المجالس وطلاقة اللسان وبديهة الجواب، وإلى غير ذلك من الصفات التي لا توجد في أقرانه، وكان يشارك العلماءَ في كل فن، وخَدَمَه الدَهرُ مُدَّةً ثم غَدر به كما هي عادتُه[1]، وكان رحمه الله كلما زاد رِفعةً وقبولاً عند الأمراء ازداد تواضُعًا، وَرِثَ الرياسة عن

(١) قال ﷺ: "لا تسبوا الدَهر" أخرجه مسلم (٥٨٢٧).

أبيه وجده، وكان له شَغَفٌ بقضاء حوائج الناس، ولو لم يعرفْهم[١]، إلاَّ أنَّه لَمَّا أرسله الوزير سليمان باشا إلى الدِّرعِيَّة سفيرًا إلى الوهابيين؛ فكأنهم أغْوَوْهُ[٢]، وسرى بعضُ عقائدهم فيه! إلاَّ أنَّه كان كرمُهُ وشمائلُه مُغطِّيَةً على جميع ذلك.

فصلٌ في بعض أخبار الوهابيين:

فمن اعتقادهم: تكفيرُ عموم المسلمين الذين على الكرة الأرضية إلاَّ من اعتقد اعتقادَهم! وسمّوا أنفسَهم بِالسَّلَفِ وبالمُحَمَدِيين، ويُبغضون ويلعنون جملةً من علماء السنة[٣]؛ مثل أبي الحسن الأشعري! ويقولون إنهم هُم الذين أسَّسُوا قواعدَ الأدلة والبراهين في علم التوحيد، ومنه نشأت الفِرَقُ والخِلاَفُ بين الأُمّةِ المحمدية، وإلاَّ فقبله كانت الأدلة هي القُرآنُ والحديثُ لا غير.

---

(١) في الهامش: "وأخوه ما هُوَ ببعيدٍ منه".

(٢) أي: أزالوا عن عينيه الغشاوةَ التي أسدلها عليه وعلى أمثاله هؤلاء الحكام الطُغاة، الذين لا يخافون الله في خنق النُجباء الكَملة، من أمثال ابنَي شاوي. (الخطيب).

(٣) لا يُعرف في كتبهم لعنٌ لأحدٍ من العلماء، ولكنهم يحكمون على كلِّ قولٍ بما توجبه النصوص. (الخطيب).



وأيضًا: يُكَفِّرُون الإمَامَ ابن السبكي الشافعي! ولكن ما أعلم السبَبَ في تكفيره دون سائر المصريين! ويا ليت شعري! ما ذنبهُ معهم؟ وأظنه لكونه كان يُغرِي الملوكَ على ابن تيمية وجماعتِه الحنابلة، حتى حَبَسَهم الناصرُ محمد بن قلاوون في إسكندرية -كما هو مذكور في الدُرر الكامنة لابن حجر-.

والحاصل: أنَّ الوهابيين آذَوا الأحياءَ والأمواتَ(١)!

ومن محاسن الوهابيين(٢): أنهم أماتوا البِدَعَ ومحوها.

ومن محاسنهم: أنهم أمَّنُوا البلادَ التي مَلكُوها، وصار كلُ ما كان تحت حُكمهم من هذه البراري والقِفار يَسلكها الرجلُ وحْدَهُ على حِمارٍ بلا خَفَرٍ، خصوصًا بين الحرمين الشريفين.

---

(١) لم يؤذوا إلا مَن يريد طريق المسلمين عِوَجًا بالبدع والشركيات!

(٢) لم أجدها في مخطوطة أو مطبوعة "مطالع السعود". فالأقرب أنها من زيادات الحلواني. وكنت وغيري نستغرب هذا الإنصاف من ابن سند!

والحلواني - عفى الله عنه - حاول أن يكون مُنصفًا؛ لكنه لم يستطع! حيث خلطَ صالحًا وآخرَ سيئًا؛ إما لتصديقه أكاذيب المناوئين، أو لـحَمِيَّةٍ جاهلية.



ومنعوا غزوَ الأعرابِ بعضِهم على بعضٍ، وصار جميعُ العرب على اختلاف قبائلهم من حضرموت إلى الشام كأنهم إِخوَانٌ، أولاَدُ رجلٍ واحد، وهذا بسبب قسوتهم في تأديب القاتل والسارق والناهب، إلى أن عُدِمَ هذا الشَّرُّ في زمان ابن سعود، وانتقلتْ أخْلاَقُ الأَعراب من التوحش إلى الإنسانِيةِ.

وتَجِدُ في بعضِ الأراضي المُخصِبة: هذا بيتُ عَنَزِي، وبجَنْبِه بيت عُتَيْبِي، وبقُربهِ بيتُ حَرْبِي، وكلُهم يرتعون كأنهم إخوان (ولا تجد أحَدًا يقول هذه دِيرَتِي ولا يطؤها الغَرِيبُ مثلاً، كما هو مُشاهدٌ الآن).

وبِهَاتَينِ الدسيستين[1] خَدَعوا جميعَ العوام؛ يعني بِمَحوِ البدعة وتأمين الطُرُقات والسُّبُل، خصوصًا بين الحرمين، وأحَبَّهم سائرُ الأمم[2]، وغَفَلُوا عن باقي عقائدهم!

---

(١) المؤلف يعرف الحقائق، ويريد أن يُنوِّه بها؛ لكنه يخشى نظامَ البغي والجبروت الذي يعيش في ظِله، فيضطر إلى أن يقول غير ما يريد. وإلا كيف تكون إزالة البدع دسيسةً؟ وكيف يكون بسط جناح الأمن والأُخوّة والمحبة دسيسة؟! (الخطيب).

(٢) هذا اعترافٌ مهم! والحق ما شهدت به الأعداء. وأما تعليله لسبب ذلك فعَليل!



ورأيتُ لهم عَقِيدَةً منظومةً يحفظها حتى رُعَاةُ غنمِهم؛ ومِنهَا:

وَمَا الدِّيـنِ إلاَّ أنْ تُقَامَ شَعَائـرٌ   وَتَأمَـنَ سُبْلٌ بَينَنَـا وَشِعَابُ

فكأنهم جَعَلُوا تَأمِينَ الطُّرُقَاتِ رُكنًا مِن أركان الدين!

ويُفهَم عَقَلاً من سياستهم أنه إذا فُقِدَ القاتل والسارق والناهب فأتى سببٌ يَمنع عُمُومَ الناس من الاشتغال بالزراعةِ أو التجارةِ أو اقتناءِ المواشي في البادية المُخصِبة للتكسب من ألبانها وأصوافها وجلودها، وإذا اشتغلوا بالكسب الحلال فلا يسرقون ولا ينهبون ولا يقتلون، فكأن المسألةَ شَبِيهَةٌ بالدَّورِية؛ أي أنه متى وُجِدَ الأَمانُ: ارتفع السارق والقاتل؛ لاشتغالهم بمعاشِهم الحَلال، ومتى اشتغلوا بالمَعَاشِ الحَلالِ وُجِدَ الأمانُ، ولَكِنّ هذا الدَوْرَ مُنْفَكُّ الجِهَة.

ولولا ما في الوهابيين من هذه النَّزْعَةِ؛ أَعنِي تكفيرَ مَنْ عَدَاهم؛ لَمَلَكُوا جميعَ بلاد الإسلام، وأدخلوهم تحتَ حُكمهم بطوعهم واختيارهم، ولكنْ بسبب هذه النزعة بغضتهم الأمَمُ، وتسلطت عليهم الدول، وغزاهم أسدُ الدِّيارِ المصرية: إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، بأمر السلطان محمود سنة ١٢٢٨، ومَلَكَ بلادهم، ومحا آثارَهم وأبادهم، وأَسْكَنَ عائلةَ المُقرن؛ أي بيتَ المُلك، وعائلَة عبدالوهاب الديارَ المَصرية



(وما رجعوا إلى بلادهم إلاَّ بعد أن عادَ الحجازُ إلى الدولة العليّة).

وهذه الفِرْقَةُ المُعَبَّر عنها بالوهابيين؛ هم أتباعُ محمد بن عبدالوهاب النجدي، ولكنهم في الحقيقة يُسَمَّون أهلَ الحديث؛ لأنه كان نظيرُهم مَوْجُودًا في زمن الدولة العباسية، ويُنكرون المناكِيرَ بِالشِّدَّةِ والغِلظة مثل الوهابيين، ويثورون على الخلفا بِسَبَبِ أَنْ الجهادَ في اعتقادهم ركنٌ من أركان الدين، انظر تاريخ "النجوم الزاهرة في ملوك مِصر والقاهرة " من سنة ٣٠٠ هجرية.

وكانوا يُسمونهم الحنابلةَ وأهلَ الحديث في ذلك الزَّمَن، ويقولون: قام الحنابلةُ، وثارَ الحنابلةُ، وكَسَر الحنابلةُ حاناتِ الخمور، وأدَّبُوا مَن شربها.

وكان بينهم وبين العباسيين مقاتلاتٌ وحروبٌ، ثم ثارت منهم فِرَقٌ بالمشرق وبجزيرة الأندلس، وَيُسَمَّون الظاهرية، وهم أيضًا أهلُ الحديث، وكانوا يُنكرون المناكير مع الغلاظة، ويثورون على الملوك، وأكثرُهم يَموتُ بينَ قتيلٍ وطَرِيدٍ.

ثم في دولة يوسف صلاح الدين ظهر لهم فِرَقٌ، وكانُوا يُسَمَّونَ أهلَ الحديث، ولهم ثَوْرَاتٌ وعداواتٌ مع الملوك - أيضاً -، ويُنكرون



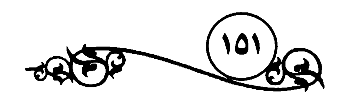
المنكر مع الغلاظة والفظاظة، وتَسَلْسَلُوا إلى زمن ابن تيمية الحرّاني وتلاميذه: ابن مُفلح وابن القيم وابن عبد الهادي.

ثم ظهرت هذه الفِرْقَةُ التي عمّت وطمّت في القرن الثاني عشر، ويُسَمَّون بالوهابيين؛ نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب النجدي، وإلاَّ ففي الحقيقة فأفعالُهم وآثارُهم هي أفعال الحنابلة الأقدمين، وهي أفعال أهل الحديث في القرون المتوسطة، وأفعال الظاهرية، فالمعنى واحد، إنما في كل عصرٍ يُسَمَّونَ باسمٍ على اصطلاح أهل ذلك العصر(١).

وكان لِسُلْطَانِ الوهابيين سعودِ بن عبد العزيز سياسةٌ عجيبةٌ في تسيير الجيوش وجمعها، وسنبين لك نبذةً من سياسته في تجنيد

---

(١) اسم «الوهابية» أو«الوهابيين» أطلقه عليهم خصومُهم من العثمانيين ومَن ساهم في الدفاع عن بقاء البدع في المجتمع الإسلامي. أما أهلُ نجد الذين تبعوا الشيخَ محمد بن عبد الوهاب فحنابلةٌ في عباداتهم وفِقههم، وعلى مذهب السلف في عقائدهم وإيمانهم. انظر التحقيق الوافي عن ذلك في مقالٍ من قلم ناشر هذا الكتاب: محب الدين الخطيب في مجلته "الزهراء" (المجلد ٣ سنة ١٣٤٥ صفحة ٨١-٩٩). (الخطيب).
قلت: وقد طبعته مع مقالَين آخرَين للشيخ في رسالة مستقلة بعنوان "ثلاث مقالات للشيخ محب الدين الخطيب".



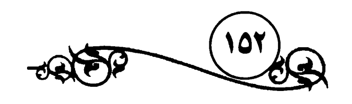
الجنود، وكيف استولى على ذلك المُلك الكبير بِحيلَةِ نَشْرِ الدِّيْنَ، وإماتةِ البدع!

فصلٌ في تجنيد الجنود عند دولة آل سعود، وكيفية جمعِها وتسييرها:

كان آلُ سُعُودٍ أمَّةً ضعيفةً فقيرةً، وبلادُهم ناشفةٌ، ليست مُخصِبة كرِيف مِصر والعراق، حتى يمكنهم جباية المال منها، وكان لهم رِيَاسَةٌ على العارِض فقط؛ فلما اجتمع بهم عالمهم محمد بن عبد الوهاب النَّجْدي في القرن الثاني عشر: حَسَّنَ لهم نَشْرَ الدِّينِ المُحَمّدِي، وإماتَةَ البِدعِ، وَدَسَّ لهم دَسِيسَةً، وهي أن هذه الحركاتِ مما تجعلُكُم مُلُوكَ الإسلام عُمومًا؛ لأنه لَمْ يَبْقَ في ملوكِ الإسلام مَن يُنكر المنكَرَ، فطاوعوه، وكان رَجُلاً دَاهِيَةً، ذا عِلمٍ ومَكْرٍ ودَهَاءٍ وخِداَع[1]!

---

(١) هذا الأسلوب في الكلام عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب يَظهر أن المؤلف كان مُضطرًا إليه في زمانه وبيئته. وانظر عن حياة هذا المُصلح العظيم مقالةً لناشر هذا الكتاب في مجلته "الزهراء" (المجلد ٣ صفحة ٤١٧-٤٣١). (الخطيب). قلت: وهو أحد المقالات الثلاث التي أخرجتها في رسالة مستقلة -كما سبق-.



وهكذا الدُّوَلُ لا تتَأَسَّسُ إلاَّ بالسُّلْطَانِ والدِّين معًا، انظر مقدمة ابن خلدون، فاقتضى رأيُهم أن يحاربوا القريةَ التي بقُربهم مثلاً، ويدعونهم إلى ما هم عليه، فحاربوها، وأطاعهم قُرى نَجدٍ جَمِيعُها.

وشروطُهُم التي يَشرطونها على مَن يدخل في معتقدِهم هي: شهادةُ أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله، وإقَامُ الصَّلاة، وإيتاءُ الزكاة، وصومُ رمضان، وحَج البيت مع استطاع إليه سبيلاً، والجهاد، وأن تكونوا معنا على أهل البِدعَة، وعَلى الكُفَّار، وعلى قُطَّاع الطريق، فَلَمَّا يسمع منهم هذا الكلامَ العَامِّيُ يقول: هو الحقُّ، ويعاهدهُم على هذه الشروط، ولكن لا يَعلَم مَا وَرَاءَهَا؛ فيَفْرِضُوْنَ على تلك القرية عشرين رجلاً مثلاً في كلِّ حربٍ تساعدهم، بشرط أن العشرين الرجل إذا وصلوا للمساعدة مع ابن سعود يكون معهم رواحِلُهم وزادُهم الذي يكفيهم شَهرًا مثلاً، وأنهم يحضرون في اليوم الفلاني مثلاً، الذي يعينه لهم ساعة الطلب.

فإذا أراد ابن سعود قتالَ قريةٍ أو قبيلةٍ فأولاً يُرسل إلى القُرَى التي أطاعته ويطلب من كل قرية مقدارَ العسكر المفروض على تلك القرية أو القبيلة؛ فيأتي إليه من هنا عشرون، ومن هناك مائةٌ، ومن



هنا خمسون مثلاً، وهكذا، فاجتمع معه ألوفٌ من الرجال محاربين بسلاحِهم ورَوَاحِلِهِم وزادِهم الذي يكفيهم شهرًا، فيسير بهم ويحارب القبيلة العاصية، إلاَّ أَنَّه يحرص أن مُدَّةَ سَفَرِه لا تزيد على الشهر المعيَّن؛ حتى لا ينفد زادُ العساكر المصحوبُ معهم من عند أهليهم، فيحتاج الحال إلى أن سعودًا يَمدهم بزادٍ من عنده.

فإذا حارب القبيلةَ العاصيةَ وطوّعها: شرطَ عليها تلك الشروط المتقدمة أيضًا، وهكذا، فلو فرضنا أنه أرسل إلى القبيلة الطائِعَةَ وطلب منها مِقْدارَ العساكر المفروضة عليها، فأخّرتها عن الميعاد يومًا، أو جاء بعضُ عسكرها ضعيفًا، لا يقدر على الكرِّ والفرِّ، أو كان زادُهم قَلِيْلاً، أو كان بعضُهم راحلتُه هزيلةً، فيغضبُ ويَرُدّ العسكرَ إلى قريتهم، وبعد رُجُوعه من تلك الغزوة أولَ ما يبدأ بتأديب تلك القرية التي خالفت عهودَه ويُنكلُها وينهبها، وربما يقتل شيخَها!

فلهذا صار متى أرسل لكلِّ قريةٍ أو قبيلةٍ بطلب العسكر المفروض عليها، فلم يكن لها بُدٌ من إحضار العدد المعلوم من أَقْوى الرِّجَال على أفرهِ الرواحل، مع الزاد الذي يكفيهم الْمُدَّةَ المعلومةَ، فتارَةً يُعَيِّنُ المدة شهرًا، وتارةً يُعينها عشرين يومًا، وتارةً عشرة، وتارةً شهرين..وهكذا على حسب مقتضى الحال.



فبهذه السياسة صار يبلغ جيش ابن سعود إلى عشرين ألف مقاتل، بل بلغنا أنه جَيّشَ خمسين ألف مقاتل في بعض الأحيان، وجميع هذه الجيوش وتلك الحروب لم يَخْسَرْ فيها لاَ صَفراءَ ولا بيضَاء، بَلْ كُلُّ يُحَارِبُ ومَصْرِفُه على نفسه سامعًا مطيعًا، باذِلاً دَمَه ومالَه في سبيل الله، وذلك لحُسن سياسة ابن سعود، ولِفَصَاحةِ الدُّعاة والوعَّاظ الذين حسَّنوا لهم ذبحَ أنفسهم؛ فاستحسنوه.

فانظر لهذه السياسة التي مَلَك بها جزيرةَ العَرَبِ أَجْمَعَ بغير دراهم ولا دنانير، ولم يفتح مَعَدَنًا ولا جَبا خَرَاجًا، بل كان كلُ ما يُحَصِّله من الدراهم والمغانم في غزواته، ومن أثمان المجوهرات التي نهبها من كَرْبَلاَء ومن الحُجْرَةِ النبويّة؛ كان يَدَّخِرُها ويصرفُ منها في العِمارات وشراء الأسلحة للفدّاوية التي حوله.

وإلاَّ فعسكَرُهُ يُحَارِبون بلا شَهرِيَّاتٍ ولا قوت.

ولَمَّا تَحارَب ابنُ سعود مع إبراهيم باشا المصري، وغُلِب ابنُ سعود، فما غُلِبَ من قلةِ عسكرٍ، أو من عدم شجاعةِ عساكره، أو من احتياجٍ إلى مَالٍ، إنَّما غَلَبَهُ إبراهيم باشا بالمدافع والآلات الحربية الجديدة، والنِّيران التي لا قِبَلَ له بها هو وجميعُ العرب، وهذا أَمرٌ آخر



غَير العساكر وغير الشجاعة، يحتاج إلى مَعَارِفَ وعُلُومٍ وصناعاتٍ وهندسةٍ يَجْهَلُهَا الأعرابُ في عصرنا هذا.

فهذه نبذةٌ من حالاتِ الوهابيين وأطوارهم، وإلاَّ فالعقل يُحيل أن دولةً جسيمةً مثل هذه تنشأ من بلاد فَقيرةٍ، ولكِنْ؛ كلُ مَن أَمْعَنَ النظرَ يعلم أنَّ الأسبَابَ مربوطةٌ بالمسبِّبات، كما هي عادة الله في خلقه.

ثم دخلت سنة ١٢١٨: وكان فيها الوباءُ الذي أفنى أكثرَ أهل العراق، وكان مبدؤه من سنة ١٢١٧، وكان ينتقل من بلدٍ إلى بلد، ومن قريةٍ إلى قرية، وبئس الضيف! وهَرَب لأجله كلُ مَنْ له قدرةٌ على الهَرَب إلى رؤوس الجبال.

ثم إن الوزير عَلي باشا بعدما ارتفع الطَّاعونُ دخل بغدادَ، واشتد غَضَبُه على أُناسٍ من الأجناد، فنفاهم إلى كلِّ الجهات، وغَرَّبهم، وأهلك بعضَهم، وهرب البَعْضُ إلى البراري والقِفار.

ثم دخلت سنة ١٢١٩: فيها غزا ابنُ أخت الوزير سليمان بيك على بادية الجبلين أجَا وسَلْمى، وغَنِم نَعْمًا وشاءً؛ فَأَحبَّهُ الوزير لذلك، وجعله كتخدا بغداد.

ثم دخلت سنة ١٢٢٠: وفيها تمكن الكتخدا سليمان بيك من



تنفيذ الأوامر والنواهي، خصوصًا بعد قتل خالد بيك وتعذيبه، ونفي عبد الله آغا وتقريبه(١).

وفي تلك السنة قَتَل عبد الرحمن باشا الكردي محمد باشا والي كَوي؛ لِمَا كان بينهما من الأحقاد، ولذلك غزا الوزيرُ ديارَ عبد الرحمن باشا الكردي؛ فَبَدَّدَ شملَه، وهتك بلادَه، وشَرَّدَه إلى العجم، وهذه الغزوة حضرها الوزير بنفسه من شدةِ غيظه.

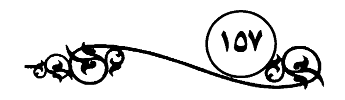
وفي تلك السنة: حاصر سعود بن عبد العزيز البصرةَ وقتلَ ونَهَبَ وحَرَّق، ومتسلّمُ البصرة إذ ذاك إبراهيم آغا، فَصَابَرَ وجَالَدَ بِغَايةِ جُهده، ثم في آخر الأمر لِحق حمود بن ثامر بعربِه، وشَدّ عضُدَ المتسلّم، ورجع سعود إلى بلاده.

وكان ابتداءُ غزوة سعود في آخر السنة التي قبلها، وهي التي قُتِل فيها أَبُوه عبدالعزيز، لا قطعَ اللهُ يدَ مَن قَتَله ولا شلَّها(٢)!

---

(١) لعلَّ عبد الله آغا هو الذي تقدم أنه كان مُتسلِّم البصرة، وعصى وفرَّ منها، ثم أقبل سنة ١٢١٤ إلى بغداد، وأكرمه وزيرها سليمان باشا، وأعاده مُتسلِّمًا إلى البصرة. وحادثة نفيه وقتل خالد بك التي يشير إليها المؤلف الآن لم يتقدم لها ذكر. (الخطيب).

(٢) لقد ذهبت اليدُ وصاحبُها إلى مَن يحكم في خلقه بما يستحقون. (الخطيب).



وفيها: أغار سعود على آل ظُفِيرٍ، ولم يُبق لهم مِن شاةٍ ولا بعير، وهم أعرابٌ من بَاديةِ نجد، يشملهم هذا الاسم، مع أن أصلَهم من قبائلَ مَتفرقةٍ، اجتمعوا وتَحالَفُوْا، وتَسَمَّوا بهذا الاسم، ولكن رؤساؤهم وكُبَرَاؤهم والمسموعو الكلمة فيهم: هم آلُ سُويطٍ - كَزُبَير - وهم من بني سُلَيمْ، وهم بين سائر الأعراب مشهورون بالكرم والنَّجدة والنخوة والشجاعة، وقيل: إذا كنتَ من تميم ففاخر بحَنْظَلَةَ، وَكاثِر بسَعدٍ، وحارِبْ بِعَمْرٍ، وإذا كنتَ من قَيْسٍ ففاخر بَغَطَفَان، وكاثِر بهَوازِن، وحارب بسُلَيم.

ثم دَخَلْتَ سنة ١٢٢١: انتدب الوزير علي باشا واستعد لمحاربة شاة العَجَم " فَتْح عَلي خَان"، فخرج من بغداد في عشرٍ من ربيع الآخر بعسكرٍ جرَّارٍ، فيه من رؤساء العرب وبيكوات الأكراد ما يهدّ به الجبالَ، ودخل في حدود ممالك العجم، فلما تقارب الجيشان تقدم الكتخدا سُليمان بيك ابن أخت الوزير بطليعَةٍ، فلاقته طليعةٌ من عسكر العجم، ورئيسها جَبَّار الكُرد: عبد الرحمن باشا، الذي كان طَرِيدًا في أرض العجم، فتناوشت الطليعتان الحربَ، فكانت الكسرةُ على عسكر الكتخدا، وأَسَرَ عبدُ الرحمن باشا سليمانَ بيك، فلما وصل هذا الخبرُ المُسِيء لخاله الوزير علي باشا، انَفَتَّ عَضُدُه، وانكسرت



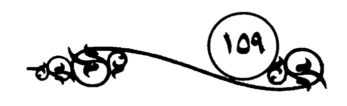
همتُه، ورجع القهقرى، إلى أن تحصّن في بعض الجبال هو وجيشه، فلحقه حمود بن ثامر بعربِه، وقوّى عَضُدَ الباشا، حتَى أَمِنَ على نفسِه وباقي جيشه، ورجع إلى بغداد في سلخ رجب من تلك السنة.

ولَمَّا دخل الوزيرُ بغداد أكرم حمودًا وأحسن جزاءه، وكان قبل ذلك غضبانًا عليه، فجاءت هذه المساعدة وغسلت تلك البَغْضَةَ، وأبدلتها بالحُب.

وفي تلك السنة: عاد الكتخدا سليمان بيك، وفرح به خالُه أشدَّ الفرح، وأطلقه سلطان العجم منًا بلا سَبَب، وما تمت فَرْحَتُه بابنِ أخته إلاَّ وقد دَهَمَ الوزيرَ المنيةُ، وقُتِلَ وَهُوَ يُصَلي، قَتَلَه خُدَّامُه، ثم إنهم قتلوا قاتليه، ولكِنْ: هل تَسُدُّ الكلابُ في الأُسْدِ!

وصار قتلُه على الكتخدا رزِيّةً، إلاَّ أنّه تبدل الحُزنُ بالفَرح، حيث أن ولاية بغداد بَعَدُه آلتْ إلى سليمان باشا الكتخدا، ابن أخت علي باشا الشهيد.

وفي تلك السنة: ورد على البصرة العالمُ العلامة، والنحرير الفهامة، الشريف العلوي المفضال الهمام، الذي هو في كلِّ فنٍ إمام: السيد زين العابدين جمل الليل المدني أبو عبد الرحمن، عَالِمُ المدينة، لكنَّه شافعي.



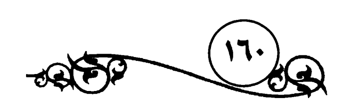
ولما ورد البصرة رَويتُ عنه حديثَ الرَّحْمَةِ المُسلسل بالأوليّة، وقرأت عليه أَوَائِلَ الكتب الستة، وأسمعني من مَروياته ما صَيَّرَني لهُ مُكَاتبًا، وأجازنِي بمسنداتٍ ومعاجمَ ومشيخاتٍ مفيدة، وناولني الثَبَت المُسمَّى بـ "الأمم"؛ لأبِي الطَّاهِر بن حسن الكوراني المدني، وكَتَبَ إليَّ إجازةً دَالةً على طولِ باعِه، وتبحُّرِه في الفنون الحَدِيثِيّة، وذكر فيها بَيتًا يَدُلُّ على تواضعه ولُطف طباعِه، وهو قوله:

أَنَا الدَّخِيْلُ إذَا عُدَّتْ أُصُولُ عُلاً

فَكَيْفَ أذكُرُ إسنَادًا لَدَى ابْنِ سَنَدْ!

وَلَمَّا ورد بغداد في حياة الوزير علي باشا أفاد وأجاد، وروى عنه الأكابر والأصاغر؛ طَلَبًا لعلوِّ الإسناد.

وأمَّا الوزير علي باشا فزاد في إكرامه، وبالغ في رفع مقامه، ومن إكرامه له - الذي لم يكن لسواه - أن الوزير اشترى للسيِّد كتبًا كثيرةً من سائر الفنون العِلمِيَّة، وأوقفها علي باشا، وجعل مقرها تحتَ يدِ السيد ويدِ ذريته، وكان عزم الوزير على شراء أملاكٍ بالمدينة المنورة وإيقافها على السيد المذكور، ولكن اخترمت الوزيرَ المنيةُ، ولم يَفِ ابنُ أخته سليمان باشا بما أوصى به خالُه.



وممن استجاز من السيد زين العابدين جمل الليل في تلك السنة: داود باشا الذي آلت إليه وزارة بغداد فيما بعد، فأجاز له رواية البخاري وفتح الباري وغيره من مسموعاته، ثم إن الوزير سليمان أمر السيد زين جمل الليل أن يقرأ شيئًا من البخاري روايةً ودِرايةً ليَظهر فَضْلُه عند من لم يعرفه، فقرأ دروسًا من البخاري أظهر بها فضلَه وقوة مدركه.

ورجع السيد زين من بغداد على طريق البصرة، فلازمتُ خدمَتَه، واقتبست من آثارِه، وتوجه من البصرة قاصدًا طيبةَ من طريق البَر.

ودخلت سنة ١٢٢٢: وفيها تسلطن السلطان مصطفى بعد خَلع السلطان سليم وقَتْلِه(١).

---

(١) وُلد السلطان سليم الثالث ابن مصطفى الثالث سنة ١١٧٥، وتولى السلطنة سنة ١٢٠٣ بعد عمه عبد الحميد الأول - كما تقدم -، وكان قبل وِلايته السلطنة مُعجبًا بأوربا، ولا سيما فرنسا، مضافًا ذلك إلى إصغائه لأهل الخُرافات وإصداره الأحكام والقرارات في الأمور المهمة بتأويل الأحلام! وتصديق المنجمين وأهل التمائم! وكان على صوابٍ في أخذه عن أوربا صناعة الطباعة وغيرها، ونظام الجيش؛ توطئة للاستغناء فيما بعد عن نظام الينيشرية، إلا أنه كان في ذلك مترددًا، ولم يستعمل القوات الجديدة في حرب الروس، بل تركها معطلة، وأرهق ==



==

الأمة لأجل ذلك بالضرائب وغلاء المعيشة؛ فكثر أعداؤه، وكان أصدقاؤه منافقين مداجين، وبعد أن لبث في السلطنة ١٩ سنة و٧ أشهر و١٠ أيام: ثار عليه الينيشرية، وانضم إليهم الرَّعاع؛ فأرغموه على قتل أصدقائه، ثم خلعوه وولَّوا ابن عمه السلطان مصطفى الرابع ابن عبد الحميد الأول يوم ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٢٢. والسلطان مصطفى مولودٌ في سنة ١١٩٣، وكان جاهلاً أحمق، ولم تكن له أية مزية تؤهله لهذا المقام، وتمرَّد في زمنه الينيشرية، وزادت بهم الدولة ضَعفًا. ومع أن مصطفى باشا العلمدار كان من أنصار خالعي سليم الثالث، إلا أن ما وصل إليه حال الدولة بعد ذلك أقنعه بأن من الخير إعادة السلطان سليم الذي كان محبوسًا في القصر السلطاني هو وابن عمه محمود الثاني ابن عبد الحميد الأول، فلما أيقنت حاشية السلطان مصطفى بأن مصطفى باشا العلمدار جاء ليُعيد سليمًا الثالث، قالوا للسلطان مصطفى: إن بقاءه على العرش متوقفٌ على قتل سليم الثالث ومحمود! وبالفعل فتكوا بسليم الثالث، ففارق الحياة، وتمكنت خاصة محمود من تهريبه من داخل مِدخنة إلى سطح القصر، ثم وصل الذين يريدون اغتيال محمود فقذفتهم جارية اسمها (جوري) برَمادٍ في عيونهم، إلى أن تمكن مصطفى باشا العلمدار من القبض على السلطان مصطفى الرابع، بعد أن لبث في السلطنة أربعة عشر شهرًا ونحو نصف شهر، وكان ذلك اليوم آخر عهده بالحياة، أوائل جمادى الأول ١٢٢٣، وأعلن مصطفى باشا العلمدار ولايةَ محمود الثاني سلطنة آل عثمان. (الخطيب).



ثم دخلت سنة ١٢٢٣: وفيها ورد الخبرُ بتسلطن السلطان محمود بن عبد الحميد، قمر الزمان وفحل بني عثمان باتفاق عدوه وصديقه، وهو الذي جدّد لبني عثمان ملكًا جديدًا بعد أن آلت دولة بني عثمان إلى الاضمحلال من الفِتن الدَّاخلية والخارجية، ولو لم يكن من فضائل السلطان محمود إلاَّ إزالة رأس المُبتدعة؛ وهو سعود وآله الوهابيون لكفاه فخرًا[١].

وذلك أن السلطان محمود لما تحقق عنده مقدار فتنة الوهابيين وما سَيَؤول إليه أمرها، وتحقق عنده أنهم مَلَكوا الحرمين الشريفين، ونهبوا أموالَ الحجرة الشريفة وذخائرها الملوكية، التي منها الكوكب الدري، وهو الحجر الألماس المُلصق جهة الرأس الشريف، وكان أهداه السلطان أحمد العثماني، فأخذه سعود بن عبد العزيز، ثم ردَّه منهم إبراهيم باشا لمّا حارب الدِّرعية، وأما باقي الذهب والمجوهرات

---

(١) المؤلف يُناقض هنا ما قرره واعترف به فيما مضى. أليس هو القائل في كتابه هذا: «ومن محاسن الوهابيين أنهم أماتوا البدع ومحَوها»، ومع ذلك فإن سلطنة آل عثمان هي التي أراد الله لها الزوال؛ لأنها لم تكن جديرة بالبقاء (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض). (الخطيب).



القديمة التي بعضُها من ملوك الهند التَيموريين، وبعضُها من ملوك بني عثمان، وبعضُها من ملوك الجراكسة، وبعضُها من ملوك بني سَلجُوق، فلم يَرجع من ذلك شيءٌ، ويقال إن سعودًا أرسلها إلى الهند وباعها هناك، فكأن ثَمنها صار عليه بالدَّمَارِ والبَوَارِ[1].

وبَلَغَ مَسَامِعَ السلطان محمود أن الوهابيين سَفَكُوا دِمَاءَ المسلمين، وكفَّروا مَنْ عداهم ممن قال لا إله إلاَّ الله[2]، وتيقن عنده أنهم منعوا حُجَّاج مِصرَ والشَّام، قائلين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[3]، فحينئذ شَمَّرَ عن سَاعِدِ

(١) كان الخلفاء الراشدون وأئمة الإسلام في القرون الثلاثة الأولى التي قال فيها النبي ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»، يرون تعظيمَ النبي ﷺ ومحبَته بإقامة شرعِه وتحقيقِ رسالته بقدر الإمكان، أما الملوك من ذرية تيمور وبني عثمان والشراكسة وبني سلجوق؛ فكانوا يتسامحون في تعطيل الشريعة وانحراف الدولة عن نهج الرسالة، ويُعربون عن تعظيمهم ومحبتهم بالألماس والمجوهرات والذهب! والله يعلم من أين اكتسبوا ذلك. (الخطيب).

(٢) هذا من أكاذيب المؤلف.

(٣) تقدمت رسالة سعود بن عبد العزيز عن تأمين الحجاج وغيرهم، ويقول ==

الجِدِّ، وأمر تابعه محمد علي باشا والي مصر بأن يُجهِّز جيشًا لمحو الوهابيين وإعدام دولتهم من الدنيا.

ثُمَّ إنَّ محمد علي باشا أرسل جيشًا إلى الحجاز من البَر والبحر، ورئيسُهم أحمد طُوسُون باشا بن محمد علي، فوصلوا إلى ينبع، وتَقَدَّمُوا لطرد الوهابيين من المدينة أولاً، فلما سافروا من يَنبع ووصلوا الصَّفَراء، فهناك التقى الجمعان، واشتد القتالُ بين الفريقين، فكانت الكسرةُ على عسكر محمد علي باشا، ورجعوا إلى يَنبع مهزومين، ولكن الذي كان منصورًا أولاً هم عسكرٌ مع علي باشا.

ولَمَّا ورد مَدَدٌ للوهابيين من طريق المدينة، وهو سَيفُ ابْنُ مُضَيَّان(١) ومَعَه عَرَبُ الظَّواهِر من بني حرب، فلما رأى عسكرُ

==

فيها: إنهم قاتلوا لأجل تحقيق الأمان، حتى جعلوا الأرض كلَّها لله، وجميع المسلمين مشتركين فيها، وصار الذئب لا يقدر أن يَضر الشاة. ولم ينس القارئ قول المؤلف نفسه: «ومن محاسنهم أنهم أمّنوا البلاد التي ملكوها، وصار كلُ ما كان تحت حكمهم من هذه البراري والقِفار يسلكها الرجل وحده على حمارٍ بلا خفر، خصوصًا بين الحرمين الشريفين». (الخطيب).

(١) أفادني الدكتور فايز بن موسى البدراني الحربي بأن الصواب: (مسعود ==



المصريين كثْرَةَ الرَّايَات ظنوا أن ابنَ سُعُودٍ بنفسه حضر؛ فانهزموا ورجعوا إلى يَنبع.

وهذه الواقعة كانت سنة ١٢٢٨.

ولما بلغت الهزيمةُ محمد علي باشا أرسلَ لهم مَدَدًا في الحال، وقوّى عَزَائِمَهم بالرجال والمدافع، فَنَهدُوا إلى الصَّفَرَاءِ مَرَّةً ثانية، وساعدهم على دخول تلك الجبال والمضايق قبائلُ بني حرب، خصوصًا الأَحامِدَةَ وشيخهم وَصْلا[1]، فَخَيَّم عَسكرُ المصريين في الصَّفراء، وصارت بينهم وبين الوهابيين حَرْبٌ ثانية، انكسر فيها الوهابيون وانهَزَمُوا، وقد داخلهم الخوف والرُعب من صوت المدَافِع تَرِنُّ بين الجبال ولها دَوِيٌّ، وما كانُوا سَمِعُوا مثلها قطّ، فَرَفعُوا

==

بن مضيان؛ لأن سيف بن غانم متأخرٌ عن هذا الحدث).ومسعود - رحمه الله- قتلته الدولة العثمانية في إسطنبول عام (١٢٢٧ هـ).

(١) هو: وَصْل بن عامر الأحمدي (توفي في حدود سنة ١٢٥٠ هـ)، وأفادني الدكتور فايز البدراني بأنه: (وقف هو وأخوه جِزا مع طوسون بن محمد علي باشا منذ البداية؛ لأنهما كانا مناوِئَين لابن مضيان والدولة السعودية، فهما لم يبايعاها أساسًا).

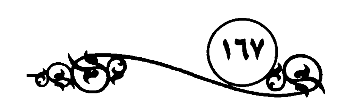


عَسكَرَهم من هذه الجهات، وحَصَّنوها في المدينة داخل القلعة وداخل السور الجُواني، وعلى زعمهم أنها تُحَصِّنُهم، وكانوا نحو العشرة آلاف يُسمونهم بالمُرابطيَّة - يعني المجاهدين -.

فلما لَمْ يَجد أحمد طُوسُون باشا مَن يقاتله: أرسلَ صالح آغا الكاشف ومعه ثلاثمئة خيَّال يستكشف له حالَ العَدُوِّ في الطُّرُقَات، فتوجه قاصدًا المدينة، ولم يَجِد في طريقه مَن يُعارضه، إلى أن وصل إلى ذي الحُلَيفة - المسماة الآن بأبيار علي بينها وبين المدينة ساعةٌ واحدةٌ - وهو مُتَعَجِّبٌ من كونه لَمْ يُلاَقِ أحدًا من الأعداء، وبقي في ذي الحُلَيفة مُتحَيِّرًا ماذا يصنع ؟

وكان من عجائب الاتفاق أن هذه الثلاثمئة خَيّال بانضمام أهل المدينة إليهم أخرجوا الوهابيين من المدينة وفتحوها من يد المرابطيّة عنوةً، وذلك أن الوهابيين لما علموا بقدوم عسكر محمد علي باشا إلى يَنبع: أمروا بإخراج جَميع أهلِ المدينة الجُوَّانِيَّة، وقالوا: مَن وُجِدَ في بيته بعد أربعة وعشرين ساعَةً فَدَمُهُ هَدَر!

فخرج جميعُ الأهالي بحالةٍ شنيعة، وما مَعَهُم من أموالهم إلاَّ ما خَفَّ حَملُه، وتَرَكُوا بيوتَهم بِفُرُشِها وأثاثها وما فيها من المآكل



والمشارب، ونزلوا في المَنَاخَةِ، فَمَن عِنْدَه مَعْرِفَةٌ أو قريبٌ نزلَ عند معرفته، ومن لم يكن عنده معرفة نزل في أيِّ بيتٍ مفتوح، وصار أهلُ المناخة يَقبلون أهلَ المدينة الجُوَّانِيَّة ويُرَحِبُون بهم، ويُدخلونهم بيوتَهم، ولو لم يكن بينهم سابقُ معرفة؛ لأنه أصاب الناس في تلك الشدة تَحابُبٌ ومودةٌ لم تَخطُر بالبال؛ لاتفاقهم في المصائب، ولا أحد يعلم ما يحدث بين العسكرين.

واشتد الغَلاَ على الناس؛ لأنَّ الوهابيين أخذوا جميع الأقوات نَهبًا، وحصروها عندهم في المدينة الجُوانية، وسكنوا في بيوت أهل المدينة على فُرُشِهم وأثاثهم ظُلْمًا!

ولكن صار هذا الطردُ وإخراجُ أهل المدينة الجُوانية من بيوتهم هو عينُ الرحمة لهم؛ لأنهم انجمعوا على بعضهم وأرسلوا رسولاً من طرفهم إلى صالح كاشف أن يَقدم عليهم ليلاً، وهم معه، وأظهروا له بُغْضَ الوهابيين وعداوتهم، ودلوه على عورات الوهابيين[1]!

---

(١) ذكر كوارنسيه في كتابه "تاريخ الوهابيين" (ص١٣٦) أنه أثناء قدوم قافلة الحج الشامي للمدينة، بِبدعها التي اعتادت عليها كلّ سنه، ومنعها من ذلك: (بدا في غمرة تلك الأحداث واضحًا: مدى الكُره ==



إلاَّ أنَّ الكاشِفَ لا زال قلبُهُ غَيرَ مُطْمَئن، ويظنُ أنها مَكِيدَةٌ من أهل المدينة، ويُرِيدُون بقدومهم عليهم أن يُسلِمُوه إلى جيش الوهابي.

ولَكِنْ: لما كَثُر الوفُودُ عليه من أهل المدينة؛ اطمأَنَّ قلبُه، ودخل المدينةَ بعسكره ليلاً، وسببُ دخولِه ليلاً أنه لو دخلها نهارًا يضربه الوهابيون من القلعة بالمدافع؛ لأن القلعة ومدافعَها كانت في يدهم، وهي مرتفعةٌ على جبل، وتصل مدافعها إلى ما بعد العقيق.

ولما دخل الكاشفُ في المدينة: تلقاه أهلُها بالترحيب والإكرام، وانضموا مع عسكره، وكان من أهل المدينة رجالٌ معدُودُون بالشجاعة، فصار مجموعُ عسكرِ الكاشف مع أهل المدينة نحو السبعمئة رامِي، وأهلُ المدينة مع شجاعتهم أَدْرَى بِمُخَبَّآتِ بلدهم وطُرقِها؛ كما يقال: " أهلُ مكَةَ أدْرَى بِشِعَابِهَا ".

ولكن في هذه المدة لا يُمكن لأحدٍ من أهل المدينة أن يظهر في

==

الذي يُكنه سكان المدينة المنورة للأتراك، ومدى حماستهم للدعوة الوهابية). وهذا يُناقض تهويل الحلواني! أو أنهم اضطُروا لذلك بسبب صولة الغزاة.



المناخَة؛ لأنّ كلَّ مَن لاحَ للوهابيين يضربونه بالرصاص من السور الذي عند سيدنا مالك، حيث أن أهلَ المدينة قد تظاهروا بالعداوة مع الوهابيين، وصاروا يبيعون ويشترون، ولهم سُوقٌ مخصوص في العنبرية، ولا يَمُرُّون إلاَّ مِنَ الأزقة والعطَفَات.

ومن لُطف الله بأهل المدينة أن الوهابيين لا يُحسنون ضرب المدافع على الوجه الأتَمّ، وإلاَّ لأهلكوا أهلَ المدينة.

ثم إنّ أهلَ المدينة اتفق رأيُهم مع الكاشف على أن يحفروا لَغَمًا من تحت الأَرض، فحَفروه من جهة مسجد سيدنا عَلي، قاصدين سور سيدنا مالك.

لما استشعر الوهابيون بذلك حفروا أيضًا هُم لَغَمًا من عندهم، وتلاقى اللَغَمَان تحت الأرض، وهناك تجَالَدتِ الأبطال.

ثم إن أهل المدينة لما علموا أن مكيدتَهم ظهرت عَدَلوا عن ذلك المحلّ، وشرعوا في حَفر لَغَمٍ آخَرَ من جهة أوَّل درب الجنائِز، ولكن قَصدُهم به أن يُشغِلوا أفكار الوهابيين ليُضَيِّعوا فِرَاستَهم، وفي الحقيقة أهل المدينة حفروا لَغَمًا ثَالِثًا من حوش النخاولة، يتصل إلى السُّور المجَاوِرِ للحَمَّام، واهْتَمُّوا به في مُدَّةٍ قريبةٍ، والوَهابيون

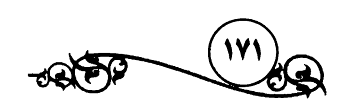


مستعدون من جهة اللَّغَمِ الذي في أول دَرْبِ الجَنَائز، فما يشعرون في يوم الجُمُعَةِ إلاَّ واللَّغَم الذي عند الحمّام قد طار وصار له صوتٌ هائل، وانقلب السور من هناك، وكان جميعُ أهلِ المدينة وعسكر الكاشف مُستَتِرين في حوشِ النَّخاولة من الليل.

فلما انهدم السورُ من هناك كَبَّر أهلُ المدينة مع عسكر الكاشف وهَجَمُوا على داخل البلدة، واستحر القتل بين الطرفين، ولِفَطَانةِ أهل المدينة ما صاروا يهجمون على الوهابية من الشوارع والأزقة، بل صاروا يَتَسَلَّقُونَ عليهم من أعلى البيوت، وينقبون عليهم السُّقُوفَ والحِيطَانَ، وأول المعركة صارت في ذَروان، ثم في البيوت التي حول الحرم، ولازالوا يَنقزون عليهم، ويهزمونهم، إلى أن حَصَرُوهم في القلعة، وقد أنزلَ اللهُ الخَوْفَ والجُبْنَ على الوهابيين في ذلك اليوم، مع شهرتهم بالشجاعة والإقدام.

وأمَّا في هذه المعركة فكأنَّ الله رَبط على أيديهم، حتى أنه صار المدنيُ الواحدُ يقتل جملةً من الوهابيين، وهم ساكتون لا يتحركون.

وانهزموا وتشتّت شملُهم، ودخلوا القلعةَ وانحصروا فيها، وأهل المدينة قَطَعوا عنهم العين والأقوات، تركوها في بيوت أهل



المدينة؛ فطلبوا الأمانَ لنفسهم، ونجوا إلى نَجد، وتركوا القَلعةَ مشحونةً بأموالهم التي نَهَبُوها من العالم في مدة سنين، واستولى أهلُ المدينة على القلعة والأسوار وضَبَطُوهَا، ودخلَ الأهالي المطرودُون في المناخة إلى بيوتهم، وذلك سنة ١٢٢٩، فمنهم الذي وَجَدَ أمتِعَتَه منهوبَةً، ومنهم الذي وجد أمتعةً زائدةً، أي أن الوهابيين نهبوا من بيت زَيد وكان مقرهم في بيت عَمرو، فنقلوا متاعَ زيد إلى بيت عمرو، وصار أهلُ الدِّيانة منهم إذا وجدوا متاعًا غيرَ متاعهم يُعَرِّفُونَ عنه إلى أنْ يَجِدوا صاحِبَه، وأقرَّ الله عيونَ أهل المدينة، بل وسائر المسلمين بفتح المدينة وإرجَاعِهَا إلى حوزة الدولة العليّة.

وصار الكاشف يتعجب من قُوَّةِ إقدام أهل المدينة، ومن شدة هجومهم وتَسَلُّقِهِم على الوهابيين بطُرُقٍ مثل البِهْلَوانيّة، إلى أن صار المدني يطلع على الوهابيين من وسط البئر، يعني أنَّ البئرَ تكون مشتركةً بين بَيتين، فيدخل المدني من البيت الآخر وينزل في البئر، ويصعد على الوهابيين من داخل البئر فيَنْبَهِرُون ويَظُنّونه جِنيًا؛ لأن أَغلب عسكرهم بَدوٌ هَمَجٌ، لا عقولَ لهم، ولا معرفةَ عندهم، ولكن اسْتُشهِد كثيرٌ من أهل المدينة مِمَّنْ رزقه الله الشهادةَ في ذلك اليوم المبارك.

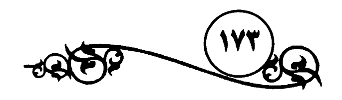


وكل هذا وأحمد طوسون باشا ما عندهم علمٌ بتلك المحاربَات، ولا بالمحاصرة ولا بالألغام، ولا كان يتصور العقلُ أن سبعمئة رجلٍ يُحاربون عشرة آلاف داخلَ الحُصُونِ والقِلاع، ويُخرجونهم من حُصونهم، وما أظنها إلاَّ مُعْجِزَةً نبويةً لطرد هؤلاء البُغَاة!

ولو عَلِم محمد علي باشا أن الأمْرَ هكذا أسهلُ؛ ما كان جَهَّزَ نحو العشرين الألف عسكري من البحر والبر.

وكان السلطان محمود مُهْتَمًا جدًا بأمر محاربة الوَهَّابِيين، ومُستعظِمًا جيوشَهم، ولا يعتقد أن محمد علي باشا بعسكر مِصر يَنْهَضُ بهذا الحِمل الثقيل، حتى أن السلطان عزم على تجهيز جيشٍ آخر من طريق والي الشام، وجيشٍ ثالث من طريق والي العراق؛ ليتساعد الكُل على طرد الوَهابيين من الحرمين؛ لِمَا كانوا يُشاهدونه ويسمعونه من قُوَّة الوهابي وضَخَامَةِ جيوشه، وإَطَاعَةِ جزيرة العرب بأسْرها له.

ثم إنه آل الأمر أن يَكسِرَ جيشَه سبعمئةُ رجلٍ -كما قدمناه-، ويُخرجونه من أعزّ الحصون لديه.



وبعد ذلك طارت النَّجَاجِيبُ[1] من المدينة بَرًا وبحرًا بالبشارة إلى محمد علي باشا والي السلطان محمود من طريق مصر ومن طريق الشام، وأرسلوا أيضًا مَفاتِيحَ الحُجرة إلى السلطان محمود؛ فتلقاها من أُسْكُدَار بالموكب والمباخر والعلماء والصَلوات علي النبي ﷺ، وصَنعوا زِينَةً في إسلامبول، وأرسلت الدولةُ إلى كلِّ ممالكها بهذه البشارة العُظمى، وصار يومُ خروج الوهابيين من المدينة عِيدًا عند جميع الأمةِ المحمدية!

ثم بعد ذلك قَدِم أحمد طوسون باشا بجيشٍ فخيم عُرْضِيُّه[2] خارج المدينة، وأقبل الخيرُ والرَّخاء على أهل المدينة، وأبْدَلَهُم اللهُ بعد

---

(١) جمع نجّاب، وهو حامل البريد على جناح السرعة. أخذوه من «النَّجيب»، وهو من الإبل القوي الخفيف السريع، فاصطلحوا على تسمية راكبه الذي يحمل البريد نجّابًا، ثم سُمي كلُ مَن يحمِل بريدًا سريعًا: نجّابًا. (الخطيب).

(٢) أي مُعسكره، وهو تعريب (أوردو) أي المُعسكر. ولغة الأوردو المنتشرة في الهند معناها (لغة المُعسكر)؛ لأن الهند ليس لها لغة واحدة، بل تزيد لغاتها على ٢٥٠ لغة، وتولدت لغة الأوردو في المُعسكر الذي يجمع أُممًا ولغات، فنشأ عن تفاهمهم بألفاظٍ متقارِبة ومشتركة، تولُد لغةٍ جديدةٍ فيها ألفاظٌ عربية وفارسية وهندية سموها «لغة الأوردو» أي لغة المُعسكر. (الخطيب).



العُسْرِ يُسْرًا؛ بسبب الذخائر المجلوبة مع عسكر المصريين، وتبدَّل الحُزْنُ بالفرح، والشِدَّةُ بالرَّخَاء، بعد ما صار أردبّ القمح بمئة ريال في مدة الحصار الأولى، أي عند تَمَلّك الوَهابِيين للمدينة، وعند مُدَّةِ الحِصَار الثانية، يعني عند إخراجهم من المدينة.

وكان مدةُ تملك الوهابيين للمدينة سبعَ سنوات.

ثم إن السلطان محمود لم يكتفِ بهذا الفتح، بل أمر محمد علي باشا أنْ يَسْتَأْصل مُلْكَ الوهابيين عن آخره، وأن يُبِيدَهم ويمحوَ ذِكرهم ورَسمهم من الدنيا، فحينئذ عَرَف محمد علي باشا أَنَّ ابنَه طوسون لا يَسدُ في هذا المُهِمّ؛ فأمره بالرجوع إلى مصر، وأرسل أَسَدَ الديار المصرية، ابنَه الآخر إبراهيم باشا، فجاء ومعه من عسكر الأكراد والأرناؤوط وعَرب مِصر الهوارة ما يَدُكُ بِهِ الجبالَ، وقصد نَجْدًا لِمُحَاربةِ عبدالله بن سعود، وذلك الحرب يطول شرحُه، **ولا يسعُه هذا المختصر**، وله تواريخ مخصوصةٌ به، إنما مُلَخَّصه أنه هَدَمَ الدِّرْعِيَّةَ، وقطع نخلها، وأسر عبد الله بن سعود، وأرسله إلى أبيه بمصر، وأبوه أرسله إلى السلطان محمود، وقد صَلَبَه السلطان!

وأما باقي عائلة ملوك الوهابيين الـمُعَبَّر عنهم بآل المُقْرِن، وباقي



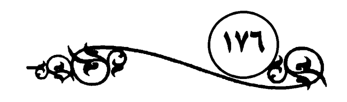
بيت الشيخ محمد بن عبد الوهاب الـمُعبَّر عنهم ببيت الشيخ، فإنه نقل الجميعَ إلى مِصر، وأسكنهم هناك، ورتّب لهم معاشاتٍ تكفيهم.

وبيانُ أخبار الوهابيين على الإجمال[1] : لـمّا أَسَرَ إبراهيمُ باشا عبدَ الله بن سعود، ونقله وعائلة الـمُلك إلى مِصر سنة ١٢٣٣: انفَلَتَ من يد إبراهيم باشا تُركي بن عبد الله بن سعود، وبقي مُتَنَقِّلاً مُستترًا من قريةٍ إلى قرية، ومن قبيلةٍ إلى قبيلة، والعساكر المصرية لازالت منتشرةً في أرض نجد إلى سنة ١٢٣٩؛ فثار تُركي بن عبد الله بن سعود طالبًا لـمُلك آبائه، وتبعه جمٌّ غَفِيرٌ، ومَلَكَ نجدًا، وجدّد مُلك أسلافه، وطَرَدَ منها عسكرَ المصريين، وبقي في مُلك نجدٍ عشرَ سنوات.

وفي أثناء تملُّكه فرَّ من مِصرَ ابنُه فيصلٌ، ولحق به في نجد، ثم إنه ثار على تُركي ابنُ أخته مشاري، وهو من عائلة آل مقرن، وقتل خالَه تركي بن عبد الله بن سعود، واستولى على إمارة نجد في ذي

---

(١) العنوان في طبعة الهند سنة ١٣٠٤ مُدرج مع ما قبله، وكلمة «بيان» التي في العنوان بأولها واو برسم «وبيان»، ولعلَّ أصل هذه الواو قوسٌ مما اصطلح المُختصِر الحلواني على وضعه في أول زياداته، وسيأتي ما يدل على أن هذا الفصل من كلام الحلواني، فيكون خطاط المطبعة الهندية أخطأ بجعل القوس واوًا. (الخطيب).



الحجة سنة ١٢٤٩؛ وبقي أميرًا على نجد أربعين يومًا، وكان إِذْ ذَاكَ فيصل بن تركي معه جيشه غازيًا البحرين، فلمّا بلغه قتلُ أبيه رجع مُسرعًا إلى الدرعية، وحاصر مشاري ابن عمته، وقتله، وتسلطن فيصل بن تركي سنة ١٢٥٠، وبقي أميرًا على نجد إلى سنة ١٢٥٣.

ثم إن محمد علي باشا والي مِصر خاف من رجوع دولة الوهابيين كما كانت؛ فأرسل جيشًا وعليه إسماعيل بيك، فلما وصل الجيشُ إلى الحَوطةِ حاربه أهل الحَوطة ومعهم عسكر فيصل؛ فانكسر إسماعيل بيك، وتشتت جيشُه؛ فَجَهّز محمد علي باشا جيشًا آخر، ورَيَّس عليهم خورشيد باشا، وكان من الدهاء ومعرفة الحروب وأساليبها على جانبٍ عظيم، فتوجه إلى نجد، ومَلَكه، وحاصر فيصلاً في بلدةٍ تُسمى الخَرْج، وأرسله إلى محمد علي باشا بمِصر، وبقي محبوسًا في قلعة الجبل، إلى أن هرب منها متدلِيًا بالحبال سنة ١٢٥٩.

وأمّا محمد علي باشا فإنه لما حبس فيصلاً: أرسل خالدَ بن سعود بن عبد العزيز أميرًا على نجد، وبقي أميرًا إلى سنة ١٢٥٧، ثم ثار عليه عبد الله بن ثنيَّان، وهو مِن آل المقرن أيضًا، وهو والد عبد الله باشا ابن ثنيان الـمُقيم الآن في إسلامبول.

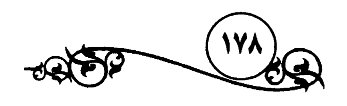


ففَرّ خالد هاربًا من الدرعية إلى الحَسَا، ومَلك نجدًا عبدُالله بن ثنيان، وبقي أميرًا إلى سنة ١٢٥٩.

فلما رجع فيصل هاربًا من مصر المرَّة الثانية، ووصل إلى جبل شمّر: ساعده أميرُ جبل شمّر عبدالله بن رشيد، إلى أن أوصله إلى عُنَيزَة من أرض القصيم، ثم وفد عليه قومُه أفواجًا، وشكّل منهم جيشًا، وقصد الدرعية، وحاصرها علي ابن ثنيَّان ستة أشهر، فمَلكها وقتل عبدالله بن ثنيان، وبقي فيصل أميرًا على نجد من سنة ١٢٥٩ إلى سنة ١٢٨٣، وقد وَفَدَ عليه والدي(١) سِفيرًا من طَرفِ أمير مكة: الشريف عبد الله بن عون سنة ١٢٧٩.

وسببُه أن فيصلاً منعَ خَراج الدَّولَةِ الذي كان مرتبًا عليه؛ فأرسل الشريفُ عبدالله والدي رحمه الله سفيرًا إلى فيصل؛ لنُصحه في إرسال الخَراج، فلما وصل والدي إلى فيصل أكرم نُزُلَهُ، ولاقاه بغاية التكريم والتبجيل، فحذّره والدي سَطوَةَ الدولَةِ العليّة إذا

(١) نُرجح أن المتكلم هو الشيخ أمين الحلواني، وأن سفيرَ شريف مكة إلى نجد: والده الشيخ حسن الحلواني، وانظر تعليقنا على أول هذا الفصل. (الخطيب).



التفتت إلى أحد، وأنه لا يُغترُّ من سكونها ومن حِلمها.

فَلَعَلَّه تَنوّر بتلك المواعظ! فإنه أرسل الخَراجَ المرتّبَ عليه.

وقد كتب والدي رحمه الله رِحْلَةً في سَفرته هذه، بجميع ما رآه من يوم خروجه من مكة إلى أن عاد إليها، نحو العشرة الكراريس.

ثم إن فيصلاً لما توفي سنة ١٢٨٣ ترك أولادًا؛ وهم: عبد الله ومحمد وسعود، ولكنهم تنازعوا ووقع الفشل بينهم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾، وبسبب منازعتهم مع بعضهم تسلّطت عليهم الدولة العليّة، ونزعوا الحسا من يدهم، ولم يبقَ في يدهم إلا بعضُ قُرَيّاتٍ؛ مثل الدرعية والوشم وما والاهما، ومع ذلك فتَسَلطُهُم فيها رسميٌّ فقط.

وجميعُ أخبارِ الوهابيين بعضُه نقلتُه من تاريخ الشيخ عثمان بن سند هذا، وبعضُه تلقيته من أفواهِ مَن لقيتهم من الـمُـعَمَّرِين من أهل تلك الجهات.

واعلم أنه بقي لعائلة الوهابيين بقيةٌ في مِصر، ظَلُّوا فيها برغبتهم؛ لأنه صار لهم أولادٌ وأملاكٌ في مِصر؛ مثل الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الوهاب النجدي، وله أولاد؛ منهم: أحمد



الأجزجي[1]، وعبد الله، كاتب في قلعة الوجه، ومن الذين بقوا في مصر: أحمد ابن الشيخ عبد اللطيف بن حسن[2] بن محمد بن عبد الوهاب.

وأمّا الشيخ عبد الرحمن المذكور؛ فقد أدركتُه في الجامع الأزهر يُدَرِّسُ مذهبَ الحَنابلة، وكان شَيْخَ رِواق الحنابلة سنة ١٢٧٣، وتوفي في عام ١٢٧٤، وكان عالمًا فقيهًا، ذا سمتٍ حَسَنٍ، يظهر عليه التقوى والصلاح.

ولنرجع إلى أخبار ولاة بغداد[3]:

ولـمّا تولى الوزارةَ سليمانُ باشا القتيل سارَ سيرةً حسنةً في أهل بغداد، ورغِب في الفنون، وانكب عن الأبحاث الفلسفية التي كان مشتغلاً بها في أول عمره، ومنعَ العُمَّال عن الرّشا والهدايا، وكان يُعاقب على ذلك أشدّ العقاب، ويتجسس على مَن يفعلها.

وممن حظي عنده بالتقرّب شيخُنا وأستاذُنا علاَّمَةُ العراق الشيخ

---

(١) أي: الصيدلي. (الخطيب).

(٢) الصواب: عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن.

(٣) لعلَّ هذا الموضع هو آخر كلام الشيخ أمين الحلواني. (الخطيب).



علي بن محمد السويدي[1]، ومن كمالاته أنه لما صدّره ذلك الوزير ازداد تَواضُعًا خصوصًا للفقراء، ولولا الشيخ السويدي لهلكت البصرة، وسبَبُه أن متسلِّمها كان ظالمًا جائرًا مُخَرِّبًا للأملاك، مُنفِّرًا للزارعين، ولكن من فضل الله أنه كلما جار عليها من جهة؛ نرفع الأمرَ إلى الشيخ السويدي، فكان يمنعه بواسطة الوالي.

وسمعته يقول إنه عَبَّاسِيُ النسب، وأفعاله دالّة على صحة نَسَبِهِ.

ودخلت سنة ١٢٢٤: فيها غزا الوزيرُ سليمانُ القتيلُ ديارَ بكر بجيشٍ عظيم؛ لتأديب آل الضَّفِير[2] وقبيلةٍ من عنزة،كبيرهم

---

(١) هو حفيد السيد عبد الله بن الحسين السويدي (١١٠٤ - ١١٧٤) الذي قام بمؤتمر النجف في شوال سنة ١١٥٦، تحت إشراف نادر شاه، واعترف فيه مجتهدو الشيعة بإمامة الشيخين أبي بكر وعمر، وولاية أصحاب رسول الله ﷺ. أما حفيده علي بن محمد بن عبد الله السويدي الذي تعرّض المؤلف لذكره؛ فإن له ترجمةً في "المسك الأذفر" للسيد محمود شكري الألوسي، وفي "غرائب الاغتراب" للشهاب الألوسي صاحب التفسير. توفي الشيخ علي السويدي بدمشق ليلة ٢٧ رجب سنة ١٢٢٧، ودُفن في سفح جبل قاسيون. (الخطيب).

(٢) هم من قبائل نجد التي هاجرت إلى العراق في أوائل القرن الثالث عشر ==



الدُرَيعِي، وكان خروجه من بغداد في الخامس والعشرين من محرَّم.

فلما جاوز الموصل شنَّ الغارةَ على أهل سِنْجَار فَصبَّحَ القريةَ المعروفة بالبَلَدِ، وغَنِمَ وقتلَ وسبى، وتحصَّنَ أهلُها بثنيةٍ من ثنايا سِنْجَار لا يُمكن الوصول إليها إلا بعُسرٍ شديد، ثم توجه الوالِي إلى آل الضَّفِير والعَنَزيين؛ فلمَّا وصل إلى البلدة المعروفة بالعَيْنِ -وهي كما في القاموس بَلَدٌ بين حَرَّانَ ونُصَيبِينَ جاءه رسولٌ من رئيس عسكره الذين في ماردِين يطلب منه المـَدَدَ ويَستَصرِخُه، فلم يكن له بُدٌ من إمداده بنفسه، وعند ذلك أَرسلَ أَخاه من الرّضاعة أحمد بيك بباقي العسكر إلى آل الضَّفِير، وتوجّه هو إلى ديار بكر، فلما وصل إلى

==

الهجري، قال الأستاذ عباس العزاوي في كتابه "عشائر العراق" (١: ٢٩٥): (وهم في الأصل قبائل متعددة تضافرت وكوّنت مجموعةً تمكنت من المحافظة على كيانها. وقال: إن القسم الكبير منها يتجول في الجانب الغربي من الفرات بين الزبير وأنحاء السماوة). وقد رسمناها في ص ٨٨ بالظاء «الظفير» تبعًا لكتاب «عنوان المجد في تاريخ نجد»، ثم عوّلنا هنا على تحقيق الأستاذ العزاوي. (الخطيب).قلت:وأبناء القبيلة-وهم أدرى بها-يختارون اسم الظفير.انظر: "تنوير المسير عن تاريخ الظفير"؛ للأستاذ عبدالله العسكر الظفيري.



قريةٍ يُقال لها دَيْزَك حَاصرَهَا؛ فأظهر أَهلُها الطاعةَ، وأدَّوا ما عليهم من الخَراج، وتوجّه منها إلى ماردين، ولَمَّا وصل قريبًا منها جاءه أخوه من الرّضاعة أحمد بيك، وقد كَسَرَه آل الضَّفِير، وقتلوا من عسكره خلقًا كثيرًا، فأراد الوزير الكرَّة على آل الضَّفِير، ولكنّ عَسكرَ الأكراد تَخَلَّفُوا عنه، فلذلك نأى عن قتالهم في هذا الوقت، وانفَتَل راجعًا.

ولما وصل الموصلَ أقام في الموصلِ ثلاثةَ أيام، وبلغ الوزيرَ أنَّ أكابرَ بني عبد الجليل أمراءَ الموصل الأقدمين أرادوا إخراجَ وزيرهم أحمد باشا، فأقام الوزير سليمان ليُصلح حالَ وزير الموصل، فاشتد الحربُ بين والي بغداد وبين أهل الموصل، ثم إن والي بغداد لَمَّا رأى تَصَلُّبَ أهلِ الموصل وعَصَبِيَّتَهُم، ونظر إلى عسكره فوجدها لا تقدر على صدِّهم: تأخر عن الموصل مسافَةَ ساعتين، فلم يُمكن لوالي الموصل الاستقرارُ بعده، فلحق بالوزير سليمان باشا.

فلما أَرَادَ والي بغداد العَود إلى بغداد: ترك مع أحمد باشا والي الموصل جملةً من عسكره ليشدُّوا أزرَه.

ولما وصل الوزيرُ إلى بغداد: غَرَّب خازندارَه عبد الله بيك، ونفى معه طاهر بيك إلى البصرة؛ لأمورٍ نقمها عليهما.



ثم أرسل سليمان باشا الكردي مُسَاعِدًا لأحمد باشا والي الموصل، وكذلك أمرَ متصرِّف العِمادِيَّة زُبَير بيك أن يُرسل عسكرًا لُمساعدة والي الموصل، فلما تكاملت العساكر عند أحمد باشا والي الموصل أخذ يُحارِبُ بني عبد الجليل؛ فنصره الله عليهم، وأَسَرَ الأميرَ عثمان أحد بني عبد الجليل، ولما كادَ أن يَتم الأمرُ لأحمد باشا ويملك الموصل؛ إلاَّ وقد أصابته رصاصةٌ من بعض عسكر بني عبد الجليل، كانت فيها منيته.

ولما بلغ الوزيرَ سليمان باشا قتلُهُ أرسلَ أخاه من الرّضاعة أحمد بيك الذي ولاَّه حكومة البصرة بعسكرٍ ليحاصرَ الموصلَ، وينتقم من الباغين على واليهم أحمد باشا، ولما وصل إلى إربِل أمرَ بعضَ مَن معه من العشائر أن يُغيروا على بعض قرى الموصل.

ثم وجهت الدولةُ إيالة الموصل إلى الأمير محمود بن محمد باشا، أحد بني عبد الجليل، فقَفَل أحمد بيك من إربِل، ودخلَ بغداد.

وفي سنة ١٢٢٥: بان للوزير سليمان باشا القتيل أن سليم بيك متسلِّم البصرة راسل الدولة العليّة طالبًا ولاية بغداد وشَهْرَزور والبصرة، فلما تحقق لديه ما بان: ضاقت عليه الأرضُ بما رَحُبَت؛

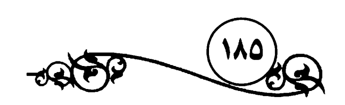


فراسل حمود بن ثامر طالبًا منه أن يُخرجَ سليمًا من البصرة، فتكاسل حمود عن ذلك ليتبين الحال؛ لأن سليم بيك أفهمه مِن قَبلُ أنَّ الرَّئيس أقبل من طرف الدولة بعزل سليمان باشا، وتوجيه إيالة بغداد لي.

وقد قيل إن حمودًا متباطنٌ مع المتسلِّم في ذلك، فكان من قدر الله أن حمودًا لَمّا استبطأ أَوَامِرَ الدولة مع تَرَادُفِ رُسل الوزير سليمان باشا إليه؛ قَرُب بجيشه من البصرة، وكان سليم بيك مُتحصنًا في المراكب، وله عسكرٌ أيضًا على أسوار البلدة وأبوابها، فَاستَنهَضَ حمود سُكَّان بلدة الزُبير من النجديين؛ فنهضوا معه وحاصَرُوا البصرة مع بَرغَش بن حمود، وخانَ بعضُ العسكر الدَّاخِلِيِّين، وفتحوا أبواب السور؛ فَسُقِطَ في يَدِ سَلِيم، وبقي في المراكب أيامًا، ثم سلَّمها وسافر في مَركَبٍ إلى بلدة أبي شِهر، وهي فرضة شِيرَاز على الخليج الفارسي[1].

---

(١) قال الشيخ بكر أبوزيد - رحمه الله- : (هذه التسمية الباطلة - تاريخًا وواقِعًا - من شعوبية فارس، فكيف يكون الخليجَ الفارسيَّ وكلُ ما يُحيط به أرضٌ عربيةٌ من لُحمة جزيرة العرب.. فلنقل: الخليج العربي). " مُعجم المناهي اللفظية " (ص٢٤٩).



وفي تلك السنة: ورد بعد ما فَرَّ سَلِيمٌ: أحمد بيك أخو الوزير متسلِّمًا للبصرة.

وفيها: ورد البصرة الشيخُ عليُّ بن محمد السويدي، أرسله سليمان باشا الوزير إلى حمود بن ثامر قبل فتح البصرة؛ لكونه من خواص الوزير المناصحين له، فكف الله به عن أهل البصرة ما عسى يتوقَّعُونه من حاكمها أحمد بيك؛ لكونه كان في غايةٍ من سوء التدبير.

ولَمَّا ورد المتسلِّم المشار إليه البصرةَ جاءَ خَبَرٌ بوصول الرئيس إلى بغداد، وأنَّ معه فرَمانًا بعزل الوزير سليمان باشا، ولكنّ الرئيسَ خاف من إظهار الخبر، لئلا يفتكَ به الوزيرُ (لأنَّ وزراء بغداد الكُولَمَانَ[1] ما كانت الدولةُ تَعزِلُهُم إلاَّ بالحِيَلِ والمخاتلة؛ لشدةِ بأسهم وشرِّهم).

فلما خاف الرئيس من فتك الوالي بِه إن اطَّلعَ على أسراره: فرَّ هاربًا إلى جهة الموصل، وصار يُكاتِبُ المتصرفين القريب منه على تنفيذ أوامر السلطان.

---

(١) أي: الذين أصلهم مماليك. (الخطيب).



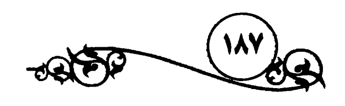
فأوّل مَن انتدب لمناصرته: عبد الرحمن باشا الكردي، وحَشَدَ معه أكرادَه، وسار مع الرئيس، ومعهم عسكر الموصل، ومعهم عبد الله بيك، وطاهر بيك، الذين كانوا مَنفيين إلى البصرة، ووصلوا بغدادَ لِيُظهِرُوا عزلَ الوزير، ويُنَفِّذوا أوامِرَ السلطان الواجبة الإطاعة.

فخرج الوزيرُ بعسكرٍ ليُقاتلهم، فترآى له أنه لا قِبَلَ له بجيوشهم فَفَرَّ قاصدًا حمودَ بن ثامر، شيخ المنتفق؛ ليحتميَ عنده، ولِيَستعين به على مقاتلة جيوش الرئيس.

فمن الاتفاق العجيب أنَّه مرَّ في طريقه على قبيلة الدَّفَافِعَةِ، فنزل عند شيخهم ضَيْفًا، فلما بلغ صاحبَ البيت أنه مهزوم، غَدَر بِهِ وقتله! (إمَّا طَمَعًا في سَلَبِهِ أو لِأَنْ يَجعَلَها يدًا عند الوالي الجديد)، وهذا عند العرب من أشر الخيانة التي تنفر منها طباعُهم، أي كون الرجل يخون ضيفَه أو يغدر بجاره ويقتله وهو على فراشه، بل حتى أراذل العرب وقبيلة هُتَيم لا يرضون على أنفسهم بمثل هذه الفضيحة التي تجرُّ الخِزيَ والعارَ إلى الذرية فيما بَعدُ[1] (ولهذا سُمِّي سليمان

---

(١) سبق إنصاف العلاّمة محب الدين الخطيب لقبيلة (هتيم)، التي يلمزها المؤلف.



باشا القتيل تَمِييزًا عن سليمان باشا الأول أبي سعيد، سَيِّد داود باشا)، فرحمه الله رحمة الأبرار، وأسكنه الجِنانَ، فإنه كان على جانبٍ عظيمٍ من الفضائل، وكان له مشاركةٌ في جميع الفنون، وكان يُحب العدلَ والإنصافَ، ولو خالف العاداتِ القديمةَ، وقد أخبرني الشيخ محمد أمين مفتي الحِلة[١] أنه اجتمع بسليمان باشا القتيل وصار بينهما مَبَاحث ومناظرات تقضي بأن الباشا من أهل الفضائل والعلوم[٢].

---

(١) هو الشيخ محمد أمين، الشهير بالمدرِّس، ابن الشيخ محمد صالح. وُلد سنة ١١٧٤، وتوفي سنة ١٢٢٦. له كتاب "النخبة في حل مشكلات صحيح البخاري" و "شرح على ألفية السيوطي في النحو" و "شرح شواهد ابن هشام على القَطر". له ترجمة في "المِسك الأذفر" (ص ٩٥-٩٦). (الخطيب).

(٢) أعجب شيءٍ في النهاية المحزنة لحياة سليمان باشا: أن عَزلَه كان خِلسة، وبرسالة يحملها رسولٌ جبانٌ دساس، لم يجرؤ على مواجهة الوزير بها، وراح يُثير الفتن الدموية لإحداث حربٍ محلية في العراق. وأعجبُ من ذلك أن يكون لمتسلِّم البصرة الجاهل السيئ التدبير دخلٌ في حمل عاصمة الدولة على اتباع هذه الأساليب في تولية ولاتها وتنحيتهم، وثالثة الأثافي إسناد هذا المنصب لشخصٍ ليس له مؤهلات سابقة تدل على كفاءته ==



وفي سنة قتله تولى وزارة بغداد عبد الله بيك الذي كان منفيًا إلى البصرة، وجعل طاهر بيك نَديمَه وصاحب مشورته، فَأَوَّلَ أمرٍ ابتدآ به أنهما قتلا سليم بيك الذي كان متصرِّف البصرة، ونَسِيَا إحسَانَه عليهما حين كانا مَنفِيَّين في البصرة، وقد كان ورد لَهُ أمرٌ من سليمان باشا بقتلهما؛ فأرسل إلى الوزير وتشفع فيهما، فعفى الوزير عنهما.

ثم إن سَليم بيك لما أضمر العِصيانَ على سليمان باشا أعطاهما مالاً جمًا، وهرَّبهما من الحبس، وأرسلهما إلى بلاد الأكراد، وأرسل معهما مكاتيب توصيات في حقهما.

فلما وصلت إليهما وزارةُ بغداد سافرَ من الدَّورَقِ وقَصَدَهُما في بغداد ليكافئاه على إحسانه، فما كان من مكافأتهما له إلاَّ قطعُ رأسه!

ولكن في الأمثال "من أحيا لئيمًا أمَاتَه"، ولاَ بأسَ، فإن سليم بيك أيضًا هو كفر نعمةَ سيّده سليمان باشا القتيل، فما كان جزاءَ الغَادِرِ إلاَّ الغَدْرُ؛ فإن الذي سعى في عزل سليمان باشا هو سليم بيك، وهو الذي كان يُراسل الدولة سرًا، وله يَدٌ طُولى في التَّحريرات

==

لذلك. وهكذا كان حال الدولة العثمانية في زمن السلطان محمود، الذي وصفه المؤلف بأنه قمر الزمان وفحل بني عثمان! (الخطيب).



التُّرْكِيّة؛ حتى جاء الأمرُ بعزل سليمان باشا، وجَرَّ ذلك العزلُ إلى قتله غدرًا عند الدَّفافِعة -كما مر ذكره-.

ولـمّا تولى عبد الله باشا وزارة بغداد أعطى قيادَه ورَسْنَه لعبد الرحمن باشا الكردي، فوقعت بينه وبين الرئيس فتنةٌ، قُتِل فيها من أهل البلدِ مَنْ أدْخل رأسَهُ فيها.

ثم دخلت سنة ١٢٢٦: وما حدث فيها من الأمور المهمة ما يجب ذكره، (ليتَ شعري ما مراده بالُمهمَّة؟ هل الُمهمَّة عنده أو عند عموم الناس؟ وإلاَّ كَيْفَ يُتصور أن مملكةً جسميةً مثل العراق يمضى عليها سنةٌ ولا يقع فيها حروب وفتن وحوادث مهمة؟).

ودخلت سنة ١٢٢٧: فيها غزا عبد الله باشا الوزير ديارَ عبد الرحمن باشا الكردي؛ لخروجه عن الطاعة، وتقاتلا بعد المصادقة والُمصَافَاة، لكن هكذا عادَةُ العَالَم الوَحْشِيّينَ الُمستَبِدِين، الذين لا ينضبطون لا بقانونٍ ولا بشرعٍ، فإنه لا ثَبَات لَمودَّتِهم ولا لعداوتهم، والتقى الجيشان في بلدة كُفْرى -بضم الكاف وسكون الفاء، كما هو دائرٌ على ألسنة العوام-.

ومِمَّن تَرَيَّس في جيش الوزير في هذه المقاتَلة: داود باشا المترجَم



لَهُ هذا التاريخ، فاشتد القتالُ بين الفريقين أَيَّامًا، إلى أن كانت الهزيمةُ على عسكر عبد الرحمن باشا الأكراد، وقُتل خالد بيك أخو عبد الرحمن باشا، وهلك أكثر رؤساء الأكراد الذين حضروا في تلك المعركة، وتشتت شملُهم، إلى أن انتهَوا إلى كِرمَان شاه من بلاد العجم، وعسكر الوزير طاردون في أثرِهم، وعمل الوزير من رؤوس القتلى مَنَايرَ؛ لِيُؤَذِّنَ عليها طيرُ النصر بِحَيَّ على خير العمل! (وبناءُ منارَةٍ من رؤوس القتلى كانت عادةً عند المتقدمين لِيُرهِبُوا بِها العدوَ)، وشتت اللهُ الأكرادَ لبغيهم، وعلى الباغي تدور الدوائر، ومكث الوزيرُ ثلاثةَ أيامٍ في محل المعركة، ثم توجه إلى كركوك، ومنذ وصلها حبسَ متسلِّمها خليل بيك ابن صاري مصطفى، وقاضيها عبد الفتاح أفندي، وجماعةً من الأعيان، وشَاطِئًا شيخ شَمَّر، وثلاثةَ رجالٍ من كبار عشيرته.

وتوجَّهَ إلى إربِل قاصدًا تنكيلَ والي الموصل سعد الله باشا؛ لتخلفه عن مساعدة الوزير، ولمُرَاسلاته مع عبد الرحمن باشا الكردي.

ولَمَّا بلغ سعدَ الله باشا والي الموصل تَوَجُّهُ الوزير إليه لمحاربته: استقبله واعتذر منه؛ فقبل عُذرَه وعفى عنه، ورجع الوزيرُ إلى بغداد.



ولما وصل الجَدِيدَة بلغه أن سعيد باشا ابن سليمان باشا الأول فَرَّ من بغداد إلى حمود بن ثامر، والتجأ إليه ليُساعدَه على ولاية بغداد؛ لأَنَّ آلَ المُنتَفِق كانوا هم ملجأ العصاة والفارين من الحكومة.

وفرَّ سعيد باشا في التاسع عشر من رجب.

وفي أول ذي القعدة خرج الوزير عبد الله باشا بجيشٍ يؤمَّ حمود بن ثامر، وأرسل إلى حمود بأن يُسلِّمه سعيد باشا؛ فأبى حمود وقال: إنَّ الموتَ دون تسليم جاري، فزحف عليه الوزير بجيشه، فلما وصل أرضَ المُنتفِق عَبَر من غربيِّ الفُرَات على الجزيرة، فوافقه على محاربة حمود شيخُ ربيعة مشكورٌ، وكان طليعةَ جيش الوزير، فأولَ من لاقاه صالح بن ثامر، فتقاتل مع مشكور الرّبعي؛ فَقُتِل مشكور، وانفَلَّ قومه، ومع ذلك حمود يُكاتب الوالي ويتَرَضَّاه ببذل ما صرفه على العسكر على أن يَرجع الباشا عنه وعن ضيفه، والوزير يأبى ذلك.

وقد كان قبل هذا عَزَلَ حمودًا عن إمارة بني المُنتفِق، ونَصَبَ مكانَه نَجمًا بن عبد الله بن محمد بن مانع، أخا ثويني المتقدم الذكر.

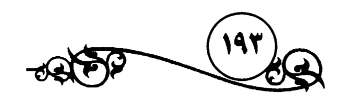
ولَمَّا وقع بين صالح بن ثامر وبين مشكور الرّبعي ما وقع، وقُتِلَ مشكور: زحف الوزير عبد الله باشا بعسكره إلى أن نزل قريبًا من



عرب المُنتفِق، وعند ذلك ضاق حمودٌ وأتباعُه ذرعًا، مع أنه عالمٌ أنَّ رؤساء عسكر عبد الله باشا كلهم غَرسُ نعمة سليمان باشا أبي سعيد هذا، وأنَّ قُلُوبَهم تهواه وتميل إليه؛ لكونه ابن سيِّدهم، ولكن لم يثق حمودٌ بمراسلتهم له، وانشبك القتال بين الفريقين، واستحرَ القتل والتحَمت الأبطال ببعضهم وتعانَقُوا، وطُعِنَ بَرغَشُ بن حمود بن ثامر، بعد ما روّى سِنانَه من الأبطال، وحَمَلَ عَلِيٌّ بن ثامر وقَتَلَ نَجمًا ابن عبد الله، المنصوب الجديد.

ولَمَّا كادت عشيرةُ حُمود تولي الأدبار، انهزم آلُ قَشْعَمٍ من جانب عسكر الوزير، فقويت شوكة بني المُنتفِق، وذهب مَنْ مَعَ عبد الله باشا من محبي سعيد باشا إلى بني المُنتفِق، فسُقِط في يد عبد الله باشا وطاهر بيك ومن معهما؛ فطلبوا الأَمانَ من حُمود، فأعطاهم الأمانَ، ولكن لَم يَفِ لهم به فيما بَعدُ؛ فإن عَشِيرةَ حُمود نهبت العسكر، ولم تُبق لواحدٍ منهم ما يستر به عورَتَه، ولا يَسُدُّ به رَمقَه.

واشتدَّ الكَرْبُ على العسكر فأَمَرَ حمودٌ بأسْرِ عبد الله باشا وطاهر بيك وثالثًا معهما، وربطهم في الحديد والسلاسل، وأَمَرَ أن يَذهبوا بهم إلى السوق (هو القرية المعروفة بسوق الشيوخ)، وحبسوهم هناك.



ولما مات بَرْغَش بن حمود من تلك الطعنة التي طُعِنَها خَنَقَهُم راشدُ بنُ ثامر - ثَلاثتهم -، وبَعدَما قُبِروا نُبِشُوا فقُطعت رؤوسُهم!

هذا؛ وما فُعِلَ بعبدِ الله باشا وطاهر بيك عقوبةٌ لهما؛ إذ قتلا سليم بيك ظُلمًا بَعدما منع عنهما القتلَ -كما مر ذكره -، وبعد أن حَلَفا له وعاهداه على أن يكون هو الوزير، وعبد الله بيك الكتخدا، وطاهر بيك هو الخازندار، نعوذ بالله من الخيانة والغدر، ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾.

ولما حصل على الوزير ما حصل، وتشتت الجيش شَذَرَ مَذَر، وقُتِلَ الوزيرُ عبد الله باشا وكتخداه طاهر بيك، وفي الحقيقة هو جيش الدولة العليّة؛ لأن الوزيرَ ما هو إلا أحدُ خُدَّامِ الدولة، أخذَ حمودٌ في الغرور والطيش والكبرياء والعظَمة، بحيث لم يَبقَ عنده لأميرٍ ولا لوزيرٍ حُرمةٌ ولا اعتبار، وصار أمرُ سعيد باشا بيده؛ كالطفل في يَدِ وَصِيِّة، ولهذا أعطاه سعيد باشا ما في جنوب البصرة من القرى جميعها، وهو يقارب ثلث إيراد العراق؛ فضَحِكَ لآلِ المنتفِق الزمانُ، وأطاعهم الحاضر والبادي، وقصدهم الشعراءُ من جميع النواحي، وأجَازوا بَجَوائِزَ ولا بني العباس، وكُنتَ لا تسمع في المجالس إلاَّ



صفاتِهم ومدحَهم بما هو زَائِدٌ عن حَدِّهم، بل من حَدِّ الملوك.

ثم إن حمودًا بَعدما نَظَّمَ أمور سعيد باشا: تَوجَّه معه إلى بغداد بجيوش المنتفِق، فكاتبَ سعيدُ باشا الدولةَ العليّة، فتوجهت إليه إيالة بغداد وشهرزَور والبصرة، فلما انتظمت أمورُ الوزير رجع حمود إلى مَقَرِّه، ولكن لا زال زمامُ سعيد باشا بيد حمود، وهو الذي يُسَيِّره ويُدبِّرُ أمورَه، ولا يفعل سعيد باشا جزئيةً ولا كليّةً إلا لَمَا يستأذنُ من حمود بن ثامر على فعلها أو تركها.

هذا أحوال الوزير، وأمَّا أحوال بني المنتفِق؛ فإنهم طَغَوا وبَغَوا وامْتَدَّت يدُ النَّهب منهم على سائر الأُمم، خصوصًا على البصرة، فإن بعض المنتفِق يدخلون بيوت أهل البصرة نهارًا فضلاً عن الليل، ويأخذون كلَّ ما تصل إليه أيديهم، ويبيعونه في السوق جِهارًا نهارًا، وصَاحِبُه يراه ولا يَقدر يَتكَلّم، وكُلُّ مَن اشتكى إلى حمود مِن بعض رجال المنتفِق لا يُصْغي إلى الشاكي؛ لأن عادةَ حمود نُصرَةُ الظَّالِم، ولكن كلُ هذا مِن سعيد باشا الذي سَلَّمَ الـمُلكَ لِمَنْ لا يَقدِرُه حَقَّ قَدْرِه.

ومِمَّا نَقِم النَّاسُ به على سعيد باشا إعطاءَه هذه الأراضي الطويلة



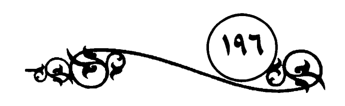
العريضة لحمود، بغير مالٍ ولا خَراج، وهذا تضييعٌ لممالك الدولة العليّة.

ومما نَقِم الناسُ به على سعيد باشا تَصدِيرَه حمد ابن أبي عَقلَينِ، وإعراضَه عن تدبير مُلكِهِ بنفسه، وتسليم أزمَّة الأمور إلى هؤلاء الأعراب الجُفَاة.

تولى سعيد باشا ابن سليمان باشا الأول سنة ١٢٢٨.

وفي سنة ١٢٢٩: جعل الوزير سعيد باشا كتخدا ورئيسَ عسكره: داود باشا، ذا الفضائل والكمالات التي تعجز عن وصفها الأقلام؛ فنَهد داود باشا بأمر الوزير سعيد باشا لغزو بعض الأعراب العاصين على الحكومة، وهم خُزَاعَةُ وزُبَيد وَشَمَّر وآل الضَّفير، فإنهم منعوا الخَراج، ونهبوا القُرَى، وقطعوا السبيل؛ حَتَّى أن بعضَهم حاصر كَربلاء، مَدفَنَ سيدنا الحسين رضى الله عنه، وكان إذ ذَاكَ في كَربلاء نحوُ الأربعين ألفًا من زُوار العجم، وفيها حَرَمُ شاه العجم، أتت للزيارة.

فلما بلغ الوالي فسادُ العُربان حَولَ كَربلاء: خاف أن يُصيب الزُوارَ ضَرَرٌ، فيرجع عليهم شاه العجم بالحَربِ والويل، وتلومُهم



الدولةُ العليّةُ على إهمالهم في الأحكام، حتى آل الأمرُ إلى هذه الحالة السيئة.

فتوجه داود باشا بعسكرٍ جَرَّارٍ، ونزل الحِلَّة، وصارت بينه وبين العُصَاةِ حُرُوبٌ؛ فانكسر العُصَاةُ وتشتتوا في القِفار، فأرسل بعضَ عسكره إلى كَربلاء؛ لتأمين الزُوار، ولخَفْر الزُوار من كَربلاء إلى النجف، ثم من النجف إلى بغداد، بعد قضاءِ وَطَرِهِم إلى أن يَقفِلُوا إلى بلادهم آمنين.

ثم تَوجَّهَ الكتخدا داود بعسكرِه إلى أرضِ خُزاعة، وفي أثناء الطريق عَزل شيخ زُبَيد، وأقام مقامَه شَفَلَّحَ بن شَلاَّل، وألزمهم بمحافظة الطريق، ثم استدعى بآل وادي، وبعد مجيئهم إلى عسكره عاقبهم على مساويهم القديمة، وشَنَّ الغارة على أهاليهم، وغَنَمَ مواشيهم، وسار إلى أن نزل بإزاءِ الدِّيوانِيَّةِ، مَقَرّ العشيرة الخُزاعيّة **الرَّوافض**.

ثم دخلت سنة ١٢٣٠: فلما طار صِيت داود باشا في الآفاق، ورَأَوا منه أفعَالاً ما عَهِدُوها مِن وُلاَةِ بغداد، ولا من أمرائهم، من الشجاعة والنُّصْحِ للأُمَّةِ، وعدمِ الطمع فيما في أيدي الناس، مع



العِفَّة وَالصِيَانة والدِيانة والأمانة، ولا تسمع لديه رشوى ولا هدية، ولا تسمع بالظُلم في جيشه، بل كلُ واحدٍ من العسكر عارِفٌ حَدَّه ووظيفته لا يتعداها، وإن اشترى العسكر شيئًا من الأعراب ينقدون لهم ثمنَه قبل استِلامِهِ، بخلاف رؤساء العساكر الذين كانوا قبله، فإنهم كانوا يأخذون من الأعراب والقُرَى كلَّ ما يحتاجونه بغير ثَمن، والفَضْلُ لهم!

ومع هذه الحروب ترى داود باشا مشتغلاً بالعلوم مع تلامِذَتِه في السفر والحضر.

فلما عرف العربُ هِمَّة الكتخدا داود: طَلَبُوا الأمانَ منه، وعلِموا أنه لا يُخلصهم منه إلاَّ الاستقامة والإصلاح؛ فأعْطَوا ما لزِمهم من الخَراج - وَالشَّفَلَّح كَعَمَلَّس، اسمٌ للفَرْج، عَلَمٌ منقول، سُمي به شَفلَّح الزُبيدي، وهُم قَبيلةٌ من مَذحِج رَهطُ عَمرو بن معدي كرب الزُبيدي-.

وفي سنة ١٣٣١: قُتِلَ بُنَيَّه ابن قُرينيس الجَربا الطائي، من بني طي قوم حاتم الطائي الجواد المشهور، الذي يُضرب به المثَل، وَأُتيَ بِرأسِهِ إلى الوزير سعيد باشا، - وبُنَيَّه بضم الموحّدة وفتح النون وتشديد الياء التحتية وهاء تأنيث - من رجال العرب وفُرسانها



وكرمائها، وله كَعَمِّةِ فَارِسٍ - أَيَّامَ الوزير علي باشا- أُبَّهَةٌ عظيمة، وصَدَارةٌ وشَجاعة، يُحَاكي بها فارسَ النَّعَامَة[1]، وأمَّا الكرمُ فهو البَحرِ الخِضَمّ، وأمَّا منع الجار، فهو في الذروة العُليا منه، والناسُ يَحْذُونَ حَذْوَهُ فيه، وأمَّا غَضُّ الطَّرف عن جاراته، فكان فيه البنتَ العذراء من الحَيا، وأمَّا النسَب، فهو من أشراف طي، قبيلة حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي.

واعلم أن بُنيَّه الجَربا عَبَرَ مِن الجزيرَة لغربي الفرات عندما تولى وزارة بغداد سعيدُ باشا؛ لِما بَيْنَ عَمِّه فارِسٍ وآل عُبَيدٍ الحِمْيَرِيِّينَ مِن الضَّغائن، لاسيَّما أميرهم قاسم بن محمد بن عبد الله بن شاوي الحِميري، وكان سعيد باشا ولَّى زِمامَ أمورِه إليه، فَلِمَا بَينَ قاسم وفارس المذكور من الضّغائن؛ لم يستقر بُنيَّه في الجزيرة، فنزل بعشيرته على خُزاعَةَ في تلك السنة، ليكتال، وكان بين الدُّرَيْعِي العَنَزِي الرُّوَيلي وبينه ضغائنُ؛ فاقتفى الدُّرَيعي أثرَ بُنيَّه، ونزل قريبًا منه، وأرسل إلى حمود بن ثامر، فاستنفر؛ لأنه صديقُ الدُّرَيعي، فنفر

---

(١) هو: الحارث بن عباد (ت ٥٠ ق هـ)، صاحب القصيدة الشهيرة: قرِّبا مربطَ النعامةَ مني، في حرب البسوس. والنعامة فرسُه.



بفُرْسَانِ عشيرته لمساعدة الدُرَيعي، وخرج عسكرُ الوزير سعيد باشا، وكبيرهم قاسم بن شاوي، ومعه عَفَارِيتُ عُقَيل النجديون، وهم من عسكر الوزير إذ ذَاك؛ لـمُساعدة مَن يحارب بُنيَّه، فقامت الحربُ على سَاق، وبُنيَّه يَكِرُّ على الفُرسان، كأنه الأسَدُ.

فبينما هو يَطرِدُ بِفَرَسِهِ إلاَّ وجاءته رصاصةٌ كانت فيها منيَّته.

فصل: في سبب خروج داود باشا من بغداد، وتوليته رئيسًا على العراق:

اعلم أن الوزير سعيد باشا لم يزل داود باشا ساعيًا له بالتأييد والنجاح والنُّصح والصلاح، مع الصدق والأمانة والعِفّة والصِّيانة، حتى كادَ يَعطب ويهلك من أسبابِ نُصحه؛ فإن كثيرًا من المنافقين الأعداء لَمَّا رأوا أن داود باشا مُتيقظًا، ويُنبه الوالي دائمًا على دسائسِهم، دَاخلهم الحَسدُ، وأرادوا إتلافَ داود بكلِّ ما في جَهدهم، ونَصبوا له حَبائلَ الغَدر والفتك، بجميع أنواعها ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ﴾.

وتحمَّل هذا الخطرَ العظيمَ شُكرًا؛ لِما لِوَالده سليمان باشا عليه من النِّعَم.



ولَمَّا اشتدّ غيظُ الحُسَّاد والأعداء لِداود: فَهَّمُوا الوزيَر أن مقصد داود باشا قتلَك؛ ليَليَ ولاية بغداد بالراحة بعدَك! خصوصًا والعساكر جميعُها في قبضة داود، ومطيعةٌ له، ومنقادةٌ لأوامِره، وأَتَوْا بِمَنْ شَهِدَ عند الوزير من خُدَّامِ الوزير أن داود باشا أوعدَني بكذا من الذهب إن قَتَلْتُ أفندينا، وأنا لِنُصْحِي لأفندينا وحُبّي له نَبَّهْتُهُ، وهو أعلمُ بنفسِه، ولابُدَّ أنه كما قال لي قال لغيري مثلَ هذا الكلام؛ فالحَذَرُ يا أفندينا أَسلم!

فحِينئذٍ داخلَ الخَوفُ والرُّعبُ سعيدَ باشا من داود، ودَبَّر مع مشيريه المنافقين على قتل داود، بأنهم يُحضِرُونه لمشورةٍ؛ فيقتلونه، إمّا خَنقًا أو صَبرًا.

فبلغ داود باشا جميعُ ما اتفقوا عليه، فعزم على الفِرار، والخروج خارج بغداد؛ ليكتفيَ شَرَّ سعيد باشا، وينعزل في أحد الجبال المُحصَّنة، إلى أن يأتيه أمرُ الله.

فخرج من بغداد، ولسان حاله يتلو: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾، وذلك في ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٣١، وعُمْرُ داود إِذ ذَاك أربعة وأربعون سنة.

ولـمّا وصل كَرْكُوك، ومعه من أتباعه نَحْوُ المئتين: رَاسلَ



الدولةَ العليَّةَ، وكشفَ لها عن سُوءِ سِيْرَةِ سعيد باشا، وشَنَاعةِ سياسته، وتقليدِه أَزِمَّةَ الممالك المُهِمَّة لأعرابِ البادية، أهلِ الظلم والغَشَامَةِ، الذين دَيدَنُهُم النَّهب والسَّلب، وهو فخرُهم في مجالسهم!

وكان داود باشا باقعةً في التحريرات التركية والعربية والفارسية، ينظم وينثر في الثلاث اللغات، ويشهد له فصحاءُ كلٍ من الثلاث اللغات بأنه إمامٌ فيها.

فلما بلغت رسائِلُه إلى الدولة: تَحيَّروا من فصاحتها وبلاغتها، وما اشتملت عليه من الأمور السياسية؛ فعلِموا أن الذي يَكتب مثلَ هذه التحريرات هو الجديرُ بالرياسة، وهو الأحقُّ بأن يتولى زِمَامَ السياسة (وكان الاصطلاح في القرون الماضية عند الدولة العلِيَّة أنَّ مَقَادِيرَ الرِّجال تُعَرفُ بمِقدار تقدّمهم في الكتابة والتحريرات والأسئلة والأجوبة المُسَدّدة)، خصوصًا وداود باشا له سابقةُ أيادي، ومعرفةٌ مع كبار رجال الدولة، وهو مشهور ومعروف عندهم بأنه هو الأَليَقُ لهذا الأمر من غيره من منذ عشرين سنة، ولكن الأمورَ مَرهُونَةٌ بأوقاتها، والحَبُّ الذي لا يَتِمُّ دَفنُهُ في أرض الزِّراعة، فلا يَحسن نباتُه ونَتاجهُ.



فما كان من الدولة العليَّة إلاَّ أنَّها أرسلت الفَرَمانَ العاليَ الشأن، الواجبَ الإطاعة على كل إنسان إلى داود باشا، ومضمونه عزلُ سعيد باشا عن ولاية بغداد، وتوليةُ داود باشا بَدَلَه.

فلما وصل الفَرَمَانُ إلى داود باشا قرأه على مجمَعٍ من وجوه دولته عَلَنًا، ثم أرسلَ صورَته إلى حمود بن ثامر؛ لأنه هو المُقيمُ المُقعِدُ في أرض العراق إذ ذاك؛ لأَجل أن يُصَدِّقَ بعزل سعيد باشا، ويَرتفع عنه الشكوكُ والأوهام، خصوصًا وهو الذي كان مضادًا لداود باشا، وبسبب إفساده ومكره خرج داود باشا من بغداد.

فلما وصلت صورةُ الفرَمان إلى حمود بن ثامر طَرَحَها وأهملها؛ فتعجَّب قومُه من إهماله لهذه المسألة، فنصحوه وقالوا له: إنّ أمرَ السُلطان واجبَ الإطاعة، وإنّ مخالفةَ أوامر الدولة أمرُها وخيمٌ، وعاقِبتها شُؤمٌ، وإنّ الأمرَ منوطٌ بِك، فمتى امتثلتَ أنت، فسعيد باشا في الحقيقة ما هو إلاَّ تابعٌ لرأيك، فالأولى أن تنصحه بترك القتال؛ لأن خَصمَه رجلٌ مُطَاعٌ، ولو قَدِمَ وَحدَه بـمُفرده على العراق يملكهُ بدهائه وعقله وحُسن سياسته، فما بالك لو جَرَّ معه عسكرًا من الأكراد وغيرهم وقَدِمَ إلى بغداد؟ فمَن الذي يُعَارِضه؟ والأهالي جميعًا يُحبونه كمحبة الولد للوالد.



فلمَّا أكثرَ على حمود النصائحَ أعمامُه وإخوانُه وأولادُه؛ لأجل حَقنِ دماءِ المسلمين، قَبِلَ منهم رأيَهم، وأرسل إلى سعيد باشا، ونصحه بترك القتال، والامتثال لأوامر الدولة العَليَّة؛ فأبى سعيد باشا أن يقبل كلامَ حمود ونصيحته؛ لِمَا غَشُّوه به أربابُ مشورته الخُوَّن، الذين ما مقصدهم من الحرب إلاَّ نهب الأموال وادّخَارها لهم من مصاريف العساكر والحروب.

وكان حمود بن ثامر معه قومه نازلين حَولَ بغداد، فلما رأى مخالفةَ سعيد باشا له، عرف أنه لا طاقة له بمقابلة داوّود باشا ولا بعسكره، وأنه لا يُنَازَعُ مَن دولتُهُ مُقبِلَةٌ؛ ففرَّ هاربًا، ورجعَ إلى مقرِّه ووطنه، وأَسْلَمَ سعيدَ باشا للهلاك.

فأمَّا داود باشا فإنه كان معه شرذمةٌ قليلةٌ نحو الألفين من الأكراد، ولكن لكونه هو الـمُدَبِّرُ لأمورهم ارْتَجّتْ منه البلادُ.

فلما قارب بغداد ثار الأهالي على سعيد باشا، وأرادوا إخراجَه من بغداد، فدخل القلعة وتحصّن فيها هو وأتباعه، فأرسل أهالي بغداد إلى داود باشا أنْ أَقْبِل ولا تَخَفْ إنّكَ مِنَ الآمنِين، وهذا البلد بلدُك بلا مُعَارِض ولا مُنَازِع.



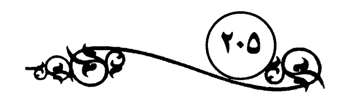
فدخل بغداد بعد الظهر خامس ربيع الثاني سنة ١٢٣٢، وهَنَّأه الشعراءُ، ووفد عليه العلماءُ والفضلاءُ؛ لأنه هو الذي كان يَعرفُ مَقَامَهم، إنّـما يَعْرِفُ الفَضلَ مِنَ النَّاسِ ذَوُوهُ؛ حيث أنه منذ الهجرة الإسلامية إلى يومنا هذا ما سُمِعَ أنه تولى العراق أعلم من داود باشا.

فلمّا استقرَّ في بغداد: خَمَدَتِ الشرورُ والفتنُ، وأَمِنَت الطُرُقاتُ بنفسها؛ لعلمهم أنّه ظهر الذي يُعاقب المجرمين، ويُحسن للمحسنين، فرفَعَ أهلَ الفضائل والعلوم، ونَفَّذ أوامرَ الدولة بقتل مَنْ أمَرُوا بقتله.

فَمِمَّن قُتِل بعد استيلاء داود باشا سعيدُ باشا الوزير السابق، وكان قتلُهُ على غير مراد الوزير داود باشا.

وفي سنة ولاية داود باشا على العراق: توجهت العساكر السُلطانية المِصرية إلى نجد لمحاربة الوهابيين، ولتدميرهم وإخلاء البلاد منهم، وذلك أن السلطان محمود -نصره الله- أمَرَ محمد علي باشا والي مصر بأن يُجهز عساكرَه إلى نجد، يَستأصل شأفة الوهابيين، ويمحوَ بدعتهم.

فأرسل محمد علي باشا ابنَه إبراهيم باشا، ووصل المدينة قبل ولاية المترجَم، وبقي إلى أن دخلت سنة ١٢٣١ فأَغَارَ في أوَّلِها على

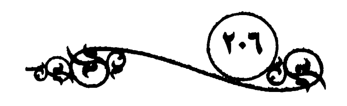


الرسّ ومَلَكها، ثم إن عبد الله بن سعود جمع جميعَ ما عنده من القوة والرجال، فكانت زُهَاءَ أربعين ألفًا من فُرسان العرب ومُجَرِّبيهَا في الحروب، فمِنْ شُؤمِ عبد الله بن سعود أنه أغارَ على عرب حَرْب، الذين حولَ المدينة نحو الحناكية؛ فزرع العداوةَ معهم -كما هي عادته مع سائر القبائل-.

وكان قريبًا منهم الأَميرُ أوزُون[1] علي الأُرْفَلِي الكردي، ومعه نحو المئتين وخمسين خَيَّالاً من فُرسان الأكراد، والمشهورين بالهجوم، فهجم أوزُن علي بعسكره القليلة في الظاهر، الكثيرة في المعنى، ودخل بخيلِه في وسط مقدمة عسكر عبد الله بن سعود، ولحِقه عربُ حَرب، مساعدةً له؛ لما ذاقوه من عبد الله بن سعود من النَّهْب والسَّلْب، واشتغل رصاص الأكراد على عرب ابن سعود مثل المطر، ودَهَمُوهم مثل القَضَاءِ الـمُبرَم، فمسافَةَ ما يفكُ الوهابي بُنْدُقَه من جِرابها ويُولِع الفتيلة، يكون قد أصابه خَمْسُ رصاصاتٍ، أقله!

---

(١) أوزون بالتركية بمعنى الطويل، أي علي الطويل، والأورفلي نسبة تركية إلى مدينة (أورفة) التي كانت تسمى (الرَّها) من أرض الجزيرة في شمال حلب، بين الموصل والشام الشمالية، وهي الآن داخل حدود الترك. (الخطيب).



فلما مضت برهة من الزمن إلاَّ وقد انكسر مقدمة عسكر عبد الله بن سعود، ورجع القَهقرى، وأخبرني من شاهد تلك الواقعة أن عسكرَ أوزُن علي، لولا أنهم اشتغلوا بجَزِّ الرؤوس؛ لكانوا أفنَوا منَّا نصفنا؛ لِمَا دَخَلَنَا من الرُّعب والخوف من اسم السُّلطان، ومن اسم التُّركِ، ومن صوت الـمَدَافع!

فمِن هذه الواقعة اسْتَسْهَلَ إبراهيمُ باشا محاربة الوهابيين، وعَرَفَ أنهم لا طاقة لهم بمقابلة الرصاص والنار، إنما هم ناسٌ يُحاربون بالرماح والسيوف على الطرز القديم، وشجاعةُ رجالهم في هذا المعنى فقط، ومعهم بعضُ بَنَادِقَ بالفتيل، وجودُها كَعَدَمِها.

فلما رجع عبدُ الله بن سعود مَكْسُورًا؛ تَحصَّن في عُنَيْزَة، ونزل عسكرُه حولَها من أرض القصيم وأرسل واستنفر من بلدانه جميعَ المجاهدين على زعمه.

وإبراهيم باشا نازلٌ في الرس بعسكره، فاتفق مرةً أن نحو الألفين فارسٍ من عساكر ابن سعود أغاروا على طَلِيْعةٍ من عسكر إبراهيم باشا، وقتلوا منهم، ونهبوا بعضَ خيلهم؛ فبلغ الخبرُ إبراهيمَ باشا؛ فأرسل ورَاءَهُم صُقُورًا من خيّالته الأكراد، والهَوَّارة أولاد



علي، والبَرَاعِص والجوازي عرب مِصر الـمَغارِبَة؛ فلحقوهم وقتلوا من عرب ابن سعود ما ينوف عن الخمسمئة -كما أخبرني به من حضَر الواقعة-.

فلمَّا رأى ابنُ سعود أنَّ قومَه لا قِبَلَ لهم بمحاربة الأسلحة الجديدة النارية، والمدافع؛ رحَل من عُنَيزَةَ، وقصد الدّرعية؛ لأنهم كانوا يُسمونها دارَ الهِجْرَةِ.

فرحل إبراهيمُ باشا خَلفَه، وقصد عُنَيزَةَ، فلما أناخ حولَها: أطاعَ جميعُ أهلِها، إلا قصرًا فيها يُسمى قَصْرَ الصَّفا، شاهِقَ البِناء، مُحكَمَة، كان مُتحصنًا فيه عسكرُ ابن سعود، الـمُعَبّر عنهم بالمُرابِطِيَّة، فلما دعاهم إبراهيمُ باشا إلى الطاعة، وامتنعوا، ظنًا منهم أنَّ حِصنَهُم ينفعهم، فرمى عليهم بالمدافع، وهدَمَ الحِصْنَ على رؤوسهم؛ فطلبوا الأمانَ منه، فأعطاهم أمَانًا على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، ووفى لهم به.

ثم إن إبراهيمَ باشا ارتحل من عُنَيزَة، ونزل بُرَيدَةَ، وأطاع صاحبُها بغير حَرْبٍ، واسم صاحبها حُجَيْلان - بضم الحاء وفتح الجيم- أَحَدُ بني عُلَيَّان -بضم العين وفتح اللام وتشديد المثناة-



قبيلةٌ من تَـميم[1].

وحُجَيْلان هذا من ذوي الرأي والدَّهَاءِ، وأخبرني مَنْ أقام معه في بُرَيدَةَ سنينَ، أيام حكم الوهابيين، فرأى حُجَيْلان في الظاهر اعتقدَ اعتقادَ الوهابيين، ويُبطِن خلافَه، وكان إذا رأى الغريبَ المسافِرَ يقولُ له: ابْعِد عَنّـي يا الـمُشرِك! يا المنافق! (ولكن هم ينطقون بالكاف من مخرج الجيم الفارسية، وكذلك القاف، ينطقون

---

(١) هو الأمير: حُجيلان بن حمد بن عليان، العنقري التميمي، ينتمي إلى عشيرة آل أبوعليان من العناقر من قبيلة تميم. كان أحد قادة ألوية الدولة السعودية الأولى المُخلصين منذ عهد الإمام عبد العزيز بن محمد وابنه سعود، وحتى عهد الإمام عبد الله بن سعود. وبعد سقوط الدرعية عام ١٢٣٣هـ أخذه إبراهيم باشا إلى المدينة المنورة، وكان شيخًا طاعنًا في السن، فمات فيها عام ١٢٣٤هـ.

ترجم له الشيخ محمد بن ناصر العبودي ترجمةً موسّعةً في "معجم أسر بريدة" (١/ ٨٦-١٨٩)، وقال عنه: (وكان حُجيلان بن حمد سديدَ الرأي، مأمونَ النقيبة في الحرب، وقد ازدهرت بريدة في عهد إمارته ازدهارًا عظيمًا)، (وحُجيلان تصغير حجلان، وهو الحُصان المُحَجّل). وانظر عنه: رسالة "بريدة في عهد إمارة حُجيلان بن حمد آل أبو عليان"؛ للباحث: عَمرو بن إبراهيم العَمرو، و (جريدة الرياض - العدد ١٦٠٤٢).



بها من مخرج الزاي) ويُرسل له سِرًا الـمَآكلَ والمشاربَ والتِّتن!

وكان يَرى أن حالةَ الوهابيين في نَشر بدعتهم، هي كحالة المجانين؛ لشدة جهل عُمَّالهم، وشناعة الألفاظ التي تصدر عنهم؛ فيوافقهم في الظاهر، ويُحارب معهم، وهو يبغضهم أشدَّ البُغض في الباطِن![1]

ولنرجِع إلى أخبار داود باشا والي بغداد المجعول له هذا التاريخ:

وفي أوّلِ عَامٍ من وزارته: أطاعه جميعُ القبائل والعشائر إلاَّ آل دُلَيْمٍ؛ فإنَّهم عَصوا وارتكبوا الفسادَ، فلما رأى عدَم إذعانهم إلى الطاعة: عزم على غزوهم، فأرسل إليهم عسكرًا، ورئيسُهم كتخداه محمد بيك، الذي عصى عليه فيما بَعْدُ -كما سيأتيك بيانه-.

---

(١) هذا من افتراءات ابن سند على واحدٍ من رجالات الدولة السعودية، التي كانت شجىً في حلقه وأمثاله من أهل البدع، وقد أحالها على مجهول!! ومن المؤسف أن يعتمد هذا الهُراء: الشيخ عبدالرزاق البيطار في ترجمته لحُجيلان في كتابه "حلية البشر" (١/ ٤٥٨)!

وقد جاء في "دليل الخليج" للوريمر: (حُجيلان أقوى رجلٍ في القصيم، كان مُخلصًا في ارتباطه بقضية الوهابيين). انظر: "تاريخ البلاد السعودية في دليل الخليج"؛ للدكتور محمد بن سليمان الخضيري (ص١٦٦).

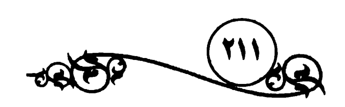


وفي سنة ١٢٣٣: لَمَّا قَرُبَ الكتخدا من عرب الدُّلَيم، وجَدَهم تَحَصَّنُوا في الآجام والأهوار، فحاصرهم، ولَمَّا اشتَدَّ عليهم الحصارُ طَلَبُوا الأمانَ والعفوَ من الوزير، فمنحه إياهم بشرطِ أداء الخَراج القديم والجديد، وأن يُعاهدوه بأن لا يرجِعوا إلى العصيان، ولا يُعاونوا عاصيًا، واستوفى جميعَ الأموال، مواشيًا من إبلٍ وخيل، ثم انعطف الكتخدا على الجَرْبَا، وأخذ منهم خمسمئة بعير، نَكالاً، عِوَضًا عن ما نهبه من الجديديين، وتأديبًا له أن يعودَ إلى النهب والغارة.

ثم في مُنْعَطَفِ الكتخدا ورجوعه أغار على آل يَسَار، ونَكّلَهم أيضًا، جزاءً لهم لكونهم أغاروا على بعض القبائل، حيث أن الباشا الوزير أمر أمرًا عامًا بمنع الغَزْوِيين الأعراب، وإبطال العَادَاتِ القديمة القبيحة التي كانت بين العُربان من غَزْوِ بعضِهم بعضًا وهم مسلمون!

وهذا تقليدٌ منه لأحكام الوهابيين، بل في الحقيقة هو الشرعُ المحمّدي، لا تقليدٌ للوهابيين.

ورجع الكتخدا إلى الزَوراء بالغنائم، ورَدَعَ كلَّ سالبٍ مخاصم.



ثم سنة ١٢٣٣: نهَد إبراهيم باشا المصري من بُرَيْدَةَ القصيم عازمًا على قتال ابن سعود في درعيته، فكان في طريقة كلُ قريةٍ تُسالمه يُصالحها على الأمان وكُلُ قريةٍ تُحاربه يملكها قهرًا، ويُخَرّبُهَا.

فمِن القُرى التي حاربت إبراهيم باشا: القرية المعروفة بشَقراء، مَقَرُّ بني زيد، فرماهم بأطوابه التي هي مثل الصواعق، تهدم كلَّ ما صادفته وتُحرقه، فطلبوا الأمان بعدما هدم سورَهم وقصورَهم، فمنحه إياهم، ومَن كان فيها من أهل الدرعية لم يتعرض لهم بِشرٍّ، بل أَذِنَ لهم أن ينصرفوا إلى دِرعِيَّتِهِم، ولم يبال بتقويتهم لبعضهم، وهكذا كان يفعل في كلِّ قريةٍ حاصرها وأخذها قهرًا، وكان دَيْدَنهُ أنه كلما فتح قريةً عَنْوَةً لم يتعرض لها ولا لأهلها بأَذِيَّةٍ، ولم ينهب أموالَهم، ولا عسكره تنوشُ أعراضَهم بسوء، بل كان يكتفي منهم بمجرد الطاعة فقط.

ثم ارتحَلَ من شقراء قاصدًا العارِضَ، فمَرَّ في طريقه على قريةٍ يُقال لها ضَرَمَة؛ فحاربته أيضًا؛ لأن فيهم جملةً مِن آل سعود، فصبَّ عليهم مِن مدافعه نبذةً، فهدمها، وأذعنت له القرية ومَن فيها بالطاعة، وعاملهم كمعاملة مَنْ قَبلهم، ثم رحلَ عنها ونزل حولَ العَارِضِ-



بلدة مُسَيلَمَةَ الكذّاب[1] -، فحاصرها، وقطع نخلَها، ودمّرها، وملكها، وشتت رجالَ الوهابيين في الصحاري والقِفار، وأخذ سلطانها

(١) ما علاقة مسيلمة بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله- ؟!
وهل يُذم المسلم بسبب وجوده في أرضٍ كان فيها كفار أو مشركون أو مرتدون؟! إذن؛ فليذم ابن سند جميع بلاد المسلمين، حتى مكة!
وما أحسن ما قاله الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن - رحمه الله - في رده على شبيهٍ لابن سند:
«ومَن عاب الساكن بالسكنى والإقامة في مثل تلك البلاد، فقد عاب جمهور الأمة، وسبَّهم، وآذاهم بغير ما اكتسبوا، وقد داول الله الأيام بين البقاع والبلاد، كما داولها بين الناس والعباد.
قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾.
وكم من بلدٍ قد فُتحت، وصارت من خير بلاد المسلمين، بعد أن كانت في أيدي الفراعنة والمشركين، والفلاسفة والصابئين، والكفرة من المجوس والكتابيين ؟! بل الخَرِبة التي كانت بها قبور المشركين صارت مسجدًا هو أفضل مساجد المسلمين بعد المسجد الحرام؛ ودُفن بها أفضل المرسلين، وسادات المؤمنين.
ولا يعيب شيخنا بدار مسيلمة إلا مَن عاب أئمة الهدى ومصابيح الدُجى بما سبق في بلادهم من الشرك والكفر المبين، وطَرْد هذا القول جراءةٌ على النبيين وأكابر المؤمنين».''مصباح الظلام..'' (ص٣٦٨-٣٦٩).



عبد الله بن سعود بن عبد العزيز أَسِيرًا مغلولاً، هو وعائلته، ما عدا تركي بن عبد الله؛ فإنه فرَّ من يد إبراهيم باشا -كما قدمناه-، وأرسله إلى المدينة لِيُفَرِّجَ عليه الناسَ الذين قَتَلَ آباءَهم وإخوانَهم بالأمس!

ثم أَمَرَ بإِرساله إلى مِصر لوالده محمد علي باشا، فوصل إلى مصر، ومحمد علي باشا أرسله إلى السُلطان محمود، وقتله السُلطان.

وفي تلك السنة: أرسل داود باشا عسكرًا من طَرَفِ العراق، ومَلَكُوا الحَسَا من أيدي الوهابيين، وذلك أن الوزير داود باشا أرسل محمدًا وماجدَ ابْنَي عَرعَر الخالدي الحُمَيدِي، وأرسل معهما عسكرًا ومعهما قبائلهما الذين كانوا فارِّين من الوهابيين، وقَطَنُوا العراقَ أيام غزو علي بيك على الحَسَا.

فقدِموا على الحَسَا، وفَتَحُوها، وفَتَحُوا القَطِيفَ، وطَرَدُوا منه الوهابيين، وكان ذلك قبل فتح إبراهيم باشا الدرعية.

فلما ملكَ إبراهيم باشا الدِّرعية: وَسْوَسَ له بعضُ الوهابيين، وحَسَّنَ له مُلك الحسا[1]، وأخبره بما فيها من الأموال والنخيل

---

(١) لعلَّ الذين حسَّنوا لإبراهيم باشا فتح الحسا كانوا يرون أن حكومة العراق باقيةٌ مهما تغير وزراؤها، لا سيما وقد وُسِّد أمرُ الحسا إلى الخالديين أصحاب ==



والزَّكَوات، التي كادت أن تحاكي بعضَ بلادِ النِّيل.

فأرسل إبراهيم باشا عسكرًا من طَرَفِه، وملكوا الحَسَا من يدِ الخَالِدِيِّيْنَ الـمُؤَمَّرِين من طَرفِ داود باشا، ولكنّ أهلَ الحَسا لم يُحاربوا عسكر إبراهيم باشا، بل سَلَّمُوا لهم البلاد بالراحة، وقالوا: إن البلادَ بلادُ السُلطان، وحيث أنَّ إبراهيم باشا هو خادِمُ السُلطان، فلا حاجة إلى محاربته وسفك دماء المسلمين بغير سبب، فداود باشا وإبراهيم باشا ونحنُ،كُلٌ مِنَّا ساعٍ في خدمة هذا السُلطان المُعَظَّم المنصور المؤيّد.

وكان الأميرُ على الحَسا من طَرفِ إبراهيم باشا اسمه عُثْمان كاشف، فلما بلغ الخبرُ إلى داود باشا، وأنَّ عَامِلَه رُفِعَتْ يدُه عن الحَسا، سَكَتَ وقال: إنَّ الأولى أن يشرب العاقل من أعلى النهر.

فراسل داودُ باشا الدولةَ العليّةَ، وطلب منها كفَّ يدي إبراهيم باشا عن الحَسا، وإرجاعها تحت إطاعة والي العراق داود باشا.

==

الدعوى القديمة بالحكم عليها. أما حُكم إبراهيم باشا فعملٌ عسكريٌ ينتهي ويزول، فتعود الحسا إلى النجديين بزواله. ولعلهم أيضًا أرادوا أن يُوحِّدوا مَن يواجهونه، فذلك أهون من أن يكون متعددًا. (الخطيب).



فحالاً أرسل السُلطان محمود فرمَانًا إلى محمد علي باشا أن يُرسل إلى ابنه إبراهيم باشا بأن يُخلي الحَسا وأطرافَها والقطِيفَ، ويُسلمها إلى مأموري داود باشا والي العراق.

فلما وصل الخبرُ إلى إبراهيم باشا امتثل الأمرَ بأسرع من البرق، وأمر عَسْكَرَه بالرجوع إلى الدِّرعية، وتسليم الحَسا إلى مأموري داود باشا.

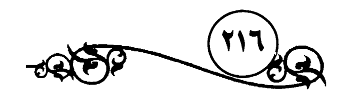
(واعلم أن أخبار الوهابيين ذكرناها متفرقة تبعًا للمصنّف، وكان الأولى أن نضم الأشباه إلى أمثالها، ولكن وجدنا الاتّباع أولى)(١).

وفي هذه السنة: نزلت قبيلة الصُّقُور من عَنَزَةَ غربي المُسَيَّبِ؛ للاكتيال والـمِيرة، فشرعوا في التَّعَدِّي والفساد، والإغارة على بعض القُرى، كما هي عادةُ الأعراب مع أهل الحضر، فلما بلغ الوزيرَ داود باشا أفعالُهم: أرسل إليهم عسكرًا ورئيسهم يحيى بيك خازنداره، وهو غُلاَمٌ شابٌّ، لم يُجرب محاربة الأعراب.

فسار بعسكره إلى أن رأى خيامَ الأعراب، هجم عليهم من غير

---

(١) المُتكلم هو الشيخ أمين الحلواني، صاحب المختَصَر. (الخطيب).



تَعْبِيَةٍ للعسكر؛ فصدمتهم الأعرابُ أشدَّ صَدْمةٍ، وُقتِل من عسكره جملةٌ، وانكسر بعسكره.

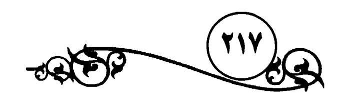
ولما بلغ الوزيرَ هذه الكسرةُ: أرسل له مكتوبًا بالرجوع، والخِيَرَةُ في الواقع، وأوعده أنه إن شاء الله سيغزوهم ويأخذ منهم الثأر.

ولما حصل ليحيى بيك ذلك الانكسار: عصا وطغا مشكورٌ الشمّري الزُّويني، وقطع السبيلَ، ظنًا منه أنّ كسرَ يحيى بيك يُحْدِثُ وهَنًا بشوكة الوزير داود باشا.

فأرسل الوزيرُ عسكرًا ثانيًا، ورئيسهم محمد بيك الكتخدا، فسافر مُسرعًا وصَبّح شَمّرًا؛ فوجدهم قد فَرُّوا لَّما علموا بقدوم عسكر الوزير إليهم، تاركين لأموالهم ومواشيهم؛ فغنمها الكتخدا، وكان فيها ثمانية آلاف شاة، وأكثر من مئتين من الإبل، ورجع إلى بغداد منصورًا.

ودخلت سنة ١٢٣٤: فيها أرسل الوزير عسكرًا ورئيسُهم صالح آغا الكردي إلى النَجَف؛ لأنه بلغه أن هناك أعرابًا أخذت في الإفساد، فأرسله إلى تأديبهم.

وفي ذلك اليوم: أرسل الكتخدا ومعه عسكرٌ إلى عِفك وجُلَيحَةَ والصُقُور؛ فإنه بلغه عنهم عصيان، فلما وصل العسكر إلى ذي



الكِفْل ورد عليه حَمْدان بن قُعيشيش وابن هَذال وابن أخيه فَوَّاز، وخمسة عشر رجلاً من كبار تلك القبائل؛ فلما رآهم الكتخدا أمَر عليهم فكُبِّلُوا في الحديد، وأُرسِلُوا إلى بغداد.

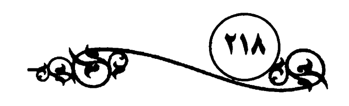
وأما صالح آغا الكردي فإنه لـمّا بلغ الـمَشهد: تقاتل مع ابن دُبَيس وعربه، فقتلَ ابن دُبَيس ورجلاً آخر مِن كِبار العُصَاة، وقطع رأسَيهما، وأرسلهما إلى الوزير في بغداد؛ فهدأت الفِتَنُ في جميع أنحاء العراق.

ثم أرسل الكتخدا خِلْعَةَ التولية على عرب النَجَف إلى محمد ابن طاهر؛ فقبلها ولبسها.

وبلغ الكتخدا أنّ ابنَ هذال وعبد الله بن حُريمِيس من عَنزة أقبلا مع قومهما ليكتالوا؛ فأمر شَيْخَي خُزاعَة والبُجيع أن يُغيرا على ابن هذال ومَن معه؛ فأغاروا على ابن هذال ورَبعه، واشْتَدَّ القتالُ بين الفريقين يومًا كاملاً من الصباح إلى المساء، ثم كانت الغَلبة والهزيمة على ابن هذال؛ فولَّى الفِرَارَ.

وأما العسكر فنزلوا بالدِّيْوانِيَة، واشتغلوا بنَصب الجسر.

وجاء شيخُ خُزاعة وعربُه إلى الكتخدا، وعبروا جميعًا إلى اليُوسُفِيَّةِ الحائلة بين جُلَيحَةَ وعِفك، وبين عسكر الوزير، فحينئذٍ



غزا الكتخدا وخُزاعة جُلَيحَةَ وعِفكًا لخروجهم عن الطاعة، فبعضُ العصاة فَرُّوا هاربين إلى الفَيَافي، وبعضُهم دخل قلعتَهم، وتحصّنوا فيها، وتُسَمى قلعة شُخَير.

فحاصرها الكتخدا، فلما هَجَمَ الليلُ أيقن العصاةُ أنه متى طلع النهار يَهدم القلعة عليهم بالأطواب؛ فَفَرُّوا في الليل مع عِيَالِهم، وتركوا أموالَهم وذخائرَهم؛ فلما طلع الصُبح، وعَلِم الكتخدا بهروبهم: دخل القلعةَ ونهبها، ثم هدَمَها، ومحا أثَرَها، وكتب إلى الوزير داود باشا بجميعِ ما حصل، وذلك بعدما سَدَّ اليُوسُفِيَّة سدًا مُحُكمًا، وانتظم أمرُ تلك الناحية.

ثم ألبسَ المشايخَ الطائعِين، والتزموا بأداء خمسين ألف درهم، وعيَّن لاستيفائها منهم شيخَ خُزَاعَةَ، وجعل على السد بعضًا من عسكر عُقَيْلٍ النجديين، وبعضًا من عسكر اللاوَنْد الأكراد، ورجع إلى بغداد منصورًا مُؤَيدًا، وذلك بهمة الوزير داود باشا؛ فألبسه الوزيرُ خِلعةً من السّمُور[1].

(١) فروٌ ثمين، يُتخذ من جِلد حيوانٍ يُسمى السَمُور.



ثم دخلت سنة ١٢٣٥: وفيها عصت قبيلةُ آلِ دُلَيْم[1]؛ فأرسل الوزير لها الكتخدا بعسكر، فلما سمعوا بقدوم العسكر نزلوا الأهوار والأغيال، وتحَصّنوا فيها، ولكن الكتخدا لم يُبَالِ بهم، وهجم عليهم بين الغَابات، واستحر القتل بين الفريقين يومًا كاملاً، وبعده تشتت العُصاةُ وانهزموا، وتركوا أموالَهم وذراريهم، بل أكثر العصاة غَرِقُوا في الفُرات؛ فأرسل الكتخدا نَجَّابًا مُبشرًا بصورة الحالة إلى الوزير؛ فرد عليه الوزير جوابَه ومَدَحَهُ وأثنى عليه، وأهدى له سَيفًا.

وبلغه أن قبيلَةَ زَوبَع وجُمَيْلَةَ وآل عيسى وقرية شُفاثَى لم يُؤَدوا خَراجهم؛ فعطف عليهم بخيله ورَجْلِهِ، فبعضُهم انهزَم إلى البادِية، وبعضُهم بقوا في أماكنهم، وأدَّوا الخَراج كاملاً، وطلبوا العَفوَ، فعفا عنهم الكتخذا.

ثم استأذن من الوزير في الرجوع إلى بغداد؛ فأذِن له، ورجع.

وفي تلك السنة: سكن محمد باشا بن خالد باشا كَركُوكًا بأمر الوزير، وجعلها دارَ إقامته، ولكنَّ خُدَّامَه صاروا يُسِيؤون المعاملة مع

---

(١) أكثر ما كان يُسمى في ذلك العهد عصيانًا هو تلكؤ القبائل في دفع الإتاوات المضروبة عليها، كما في الخبر الآتي بعد. (الخطيب).



بعض فقراء كركوك، فبلغ الوزيرَ ذلك؛ فأرسل أوامِره أن يَزجُر خُدَّامه، فلم يفعل؛ فغضب عليه الوزير، وأمر متسلِّم كَركُوك موسى آغا أن يُقَيِّد محمد باشا في الحديد؛ فقيَّده موسى آغا امتثالاً لأمر الوزير.

فلما تحقّق خُدَّامُه تكبيلَه بالحديد: أحاطَ منهم ثلاثمئة بالحبس، وكَسَرُوه، وأخرجوا سَيِّدَهم من الحبس؛ فخرج وقصد الفِرارَ إلى ديار العجم.

فحين بلغ داودَ باشا ما فعله محمد باشا: أمر على أبيه خالد بتكبيله في الحديد، وكذا على ابن عمه سليمان بن إبراهيم باشا.

فلما بلغ محمد باشا ما صار على أبيه وعلى ابن عمه من جريمته: ندم على ما فعله هو وخُدامُه، ولم يذهب إلى العجم، وأرسل إلى الوزير يطلبه العَفوَ؛ فعفا عنه، وأطلق أباه وابنَ عمه، وأمره بالنزول في كركوك؛ بشرط أن لا يتعدَّى خُدَّامُه لا على غنيٍ ولا على فقير، ورتّب لأبيه بعضَ معاشٍ ليَقْتَاتَ منه، وأخذ عليهم العهود بأن لا يرتكبوا المفاسدَ بعدها (إلى متى هذه العهود والصفح والحِلم الذي لا ينشأ عنه إلا زِيادَةُ الشرِّ والفساد، ويكثر منه قُطاع الطريق والبغاة؟).

وفي تلك السنة: خُتِنَ يُوسُف بيك، ابن الوزير داود باشا، فعمَل



له فرحًا لم يَعهَد مثلَه أهلُ العراق، وهَنَّوه الشعراء من جميع الآفاق، وأجاز كلاً على قَدْر مقامه.

ثم دخلت سنة ١٢٣٦: وفيها أرسل السلطانُ محمود -نصره الله- خمسةَ عشر مِدفعًا من الطرز الجديد بجميع آلاتِها وأدواتها هديةً إلى الوزير داود باشا، صُحبة مصلح الدين بيك، أحد رجال السُلطان؛ فأمر كتخداه وبعضَ رجال دولته بأن يستقبلوها من قبل أيام؛ فدخلت بغداد بهيئةٍ وأُبّهَةٍ جَميلة، وأدخلت الفرحَ على سائر المسلمين؛ لتمكّن المحبة والمودة بين السُلطان وبين ولاته.

ثم أمر الوزيرُ بإدخالها القلعة، وأكرم الذي جاء بصُحبتها.

واعلم أن محمد باشا الكردي ابن خالد باشا بعدما عفا عنه الوزير: رجع إلى الإفساد وظُلم العِبَاد، والنَّهب والسَّلب، وفَرَّ إلى بلاد العجم (لأنها هي مأوى كلِّ عاصٍ وكلِّ شقي)، والتجأ إلى والي كِرمان محمد علي خان القَجَرِي، وصار يُغِيرُ على بلاد الدولة وقُراها، ثم يرجع إلى محمد علي خان في كِرمان.

فحبس الوزيرُ أباه خالدًا؛ ليمنعه عن اللُحوق بولده في ديار الرفض؛ ثم تبين أن يحيى بيك الخازندار كان بينه وبين محمد باشا



الكردي روابِطُ سِرِّيةٍ، ومعاهداتٌ على العصيان.

وأراد الفرارَ أيضًا يحيى بيك الخازندار، واللُحوق بكِرمان عند محمد باشا الكردي؛ فاستشعر به داود باشا، فحبسه، وأَمَر بِخَنْقِهِ في الحبس.

وفيها: خرج الوزيرُ بعسكرٍ جَرَّارٍ مع كَمال الأُبَّهَة، وأثاث الـمُلك والسلاح والمدافع، ففي الظاهر أنه خرج للاصطياد، وفي الباطن مقصده أن يُظهِر قوَّتَه للأعداءِ؛ ليرتدعوا.

وأقام للصيد، وأرسل أخاه أحمد بيك إلى إربل.

ومُنذ عَلِم صاحبُ كِرمان خروجَ الوزير بهذا العسكر الجرّار، ظن أنه هو المقصود للوزير، واستعدَّ للقتال، وفي الحقيقة أنه لم يخطر للوزير على بَال.

ثم رجع الوزير إلى دار خلافته بغداد.

وأمَّا سليمان بيك بن إبراهيم بيك الكردي فإنه أيضًا فرَّ إلى العجم.

وأمّا خالد باشا الكردي فإن الوزير تحقق لديه أن لا دَخلَ له مع ابنه في الفساد، فأطْلعهُ، وبقي كما كان في بغداد.



وممَّن انهزم إلى بلاد العجم في تلك الأيام: عبد الله باشا الكردي، في مئتي خَيَّالٍ من أكراده.

ولما اجتمع أمراءُ الأكراد في كِرمان، وقَوِي عَدَدُهم، شرعوا في الفساد والإغارة على بلاد الدولة العليّة، والنَّهب والسَّلب وقَطْعِ الطُّرُقِ، ثم مأواهُم وملجؤهم كِرمان شاه.

وكلُ هؤلاء الأكراد ما فَرُّوا إلاّ من كون الوزير لا يُعجِبُه الفسادَ ولا المفسدين، ولا الظُلم ولا أهلُه.

وغايته أنه انضم والي كِرمان بنفسه وعسكره مع الأكراد، ودخلوا في حدود ممالك الدولة العليّة، ووصلوا إلى بلدة زَهَاب؛ قاصدين بغدادَ على زعمهم، وصاروا ينهبون ما يُصادفهم من القُرى؛ فمِن القُرى التي أُصِيبَت بهم: قُولاَي وعَلِيباد وخَانِقِين.

ولـــمّا بلغ الوزيرَ أفعالُ والي كِرمان: أرسلَ شِرذِمَةً من عساكره إليهم، فلما سمعوا بها رجعوا إلى كِرمان، ولم يمكن لعسكر الوالي الدخول في حدود العجم، لعدم الإذن من الدولة العليّة؛ فحينئذٍ أرسل الوزيرُ وأبلغَ الدولة العليّة أفعالَ العجم، والهاربين إليهم من الأكراد؛ فأرسل السلطانُ إِذنًا عامًا إلى داود باشا بمحاربة العجم

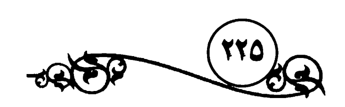


جهارًا نهارًا، صراحةً بالإعلان، وأرسلت له الدولةُ أيضًا ألفًا وخمسمئة عسكري؛ لمساعدته على والي كِرمان.

فلمّا وصل عسكرُ الدولة إلى البلدة المسماة بالزَّنكِباد: أرسل الوزيرُ معهم عسكر اللاوَند، ثم جمع الوزير كلَّ ما تصل إليه يده من العسكر، ومن شُجْعَان الأعراب والعشائر، وألحَقهُم بعسكر الدولة في زنكِباد، وتحقق الوزيرُ الأخبارَ سِرًا وجهرًا؛ فعَلِمَ أن مقصدَ والي كِرمان أن يجعل عبدَ الله باشا الكردي واليًا على بلاد الأكراد، ويعزلَ محمود باشا الذي نصَبه الوزير داود باشا عليهم.

فأمرَ الوزيرُ محمد بيك الكتخدا أن يَنْهَدَ بعساكره، وينضم إلى محمود باشا، ويُقَوِّي عَضُدَه، وأمره أن يُخبِر محمود باشا بأنه أتى لنُصرته ومساعدته، وأن الوزير بعسكره قريبٌ منهم في الزنكِباد.

فخرج الكتخدا يومَ الخميس ثالث رمضان، ونزل قريبًا من محمود باشا، وأقام هناك أربعين يومًا، فورد عليه من محمود باشا مكتوبٌ يستنجده فيه، ويقول له: إن والي كِرمان وجَّهَ مع عبد الله باشا أربعة آلاف خيّال؛ لِيَقصِدُوا السُّلَيْمانِيَّة ويفتحوها، ويُمَلِّكُوْهَا إلى عبد الله باشا، وأنَّ والي الجاف الذي هو تَبَعي قد خان ولحِق بعبد الله باشا.



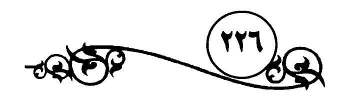
فسار إليه محمد بيك الكتخدا بعسكره، ونزل في محلٍ قريبٍ منه يُسمى بازيان، وعبد الله باشا بعسكر العجم مخيِّمٌ في محلٍ قريبٍ منهم يُسمى خَوَاجَائِي.

فلما وصل الكتخدا بعسكره إلى محمود باشا: تَقَوَّى عَضُدُهُ؛ فأرسل عبدَ الله باشا إلى والي كِرمان بأن الوزيرَ داود باشا قد أَمَدَّ محمود باشا، فالعسكر الذي معي لا تكفي، فحالاً ركِب والي كِرمان لمساعدة عبد الله باشا بنفسه، ومعه خمسة عشر ألف مقاتل، ما بين فارسٍ وراجل.

فلما بلغ الخبرَ داود باشا: أرسل أخاه أحمد بيك بعسكرٍ للمدَد، ثم خرج الوزير بعسكره لِيَحْضُرَ الحربَ بنفسه، وأرسل إلى الكتخدا يَمنعه عن الحرب حالاً، ويطلبه فيه للحضور عنده؛ ليتخابر معه في أمُورٍ سِرِّيةٍ، فما كان من الكتخدا إلاَّ أنّه اعتذر للوزير ولم يحضر عنده.

وظهر أنه خان واتفق سِرًا مع عبد الله باشا، ومع والي كِرمان، ولكن مقصده أنه أولاً يُتلِفُ العسكرَ الذي تحت يَدِه؛ ليُوهن بها قوة الوزير داود باشا!

فشرع في المحاربة مع عبد الله باشا، خلافًا لأمر الوزير، وعلى



غير تعبِيَةٍ، ولا نُصْح، حتى أن العسكرَ يَنهزم ويتلف، ثم يلحق هو بعبد الله باشا.

فتلاقى عسكر الكتخدا - وكانوا ثلاثةَ آلاف - مع عسكر عبد الله باشا، وعسكر العجم - وكانوا خمسة عشر ألفًا-، ومع ذلك صابَرَ أهلُ السُنة مدةً طويلةً، وآخِرُهَا أنهم انهزموا وتشتتوا.

وأمّا الكتخدا محمد بيك؛ فإنه لَحِقَ ببلاد العجم، مُؤَمِّلاً أن يَفُوا له بما وعدوه، فإنَّ رئيسَ العجم أَوْعَدَه إن تسبَّب في إهلاك عسكر الوزير؛ فإنهم يَهجِمُونَ على بغداد، ويجعلون الكتخدا واليَ بغداد.

وفي تلك السنة: حصل وَباءٌ عظيمٌ في البصرة، كاد أن يفني أهلَ البصرة، وكثيرٌ من البيوت مات أهلُها جميعًا، وقُفِلَت بالضَّبَّة[1]، وكثيرٌ من الأموات يجدونهم في الطُّرُقَاتِ، ولا يَعلمونهم من أي الجهات، وأغلبُ الناس فرُّوا إلى البادية، وهو طاعُون؛ كما ذكره الإمامُ النووي،

---

(١) الضَبة: قفلٌ خشبي فيه شِبه مسامير متحركة، وله مفتاحٌ خشبي ذو مسامير ثابتة بعدد مسامير القفل، وفي مثل وضعها، فإذا أُريد فتحُه أُدخل المفتاح لترفع مساميره الثابتة مسامير القفل -أي الضَبة- المتحركة فيُفتح. (الخطيب).



أن من علاماتِ الطَّاعون القَيءَ والإسهالَ، وهذا الوباءُ كان كذلك، يُبْتَلَى صاحبُهُ بالقَيْءِ والإسهالِ المُفرِطِ، وصاحبه لا يَبُول، فإذا بالَ سَلِمَ.

واستمر في البصرة من آخر شوال إلى آخر القعدة، إلاَّ أنَّ شِدَّتَه من أول القعدة إلى اثني عشرة منها، ثم تارة يشتدُّ وتارة يَخِفُّ، إلى أن انعدم.

وصاحبُه تعتريه حَرَارةٌ عظيمةٌ، ظاهرًا وباطِنًا، وقد ألقى بعضُ المصابين به نفسَه في الماء البارد، فلم يُغنِه شيئًا، وقضى نحبَه، وتَحَيَّرت فيه الأطباء، وما علموا له دَوَاءً أصلاً، كما أنهم لم يتحققوا أسبابه على اليقين، بَل كُلٌ من الحُكماء يُبْدِي سببًا للوباء يُخَالِفُ ما يقول له الحكيمُ الآخَر، وهذا دَلِيلٌ على عدم الوقوف على الحقيقة؛ لأنَّ الحقَّ واحدٌ، لا يُختلف فيه، وما هذا إلا لكون أدِلتهم ظَنِّيَةً.

ثم دخلت سنة ١٢٣٧: وفيها شرعَ محمد بيك الكتخدا في الإفساد، وجمع جموعًا وعساكِرَ، وطمحت نفسُه لولاية بغداد، والاستيلاء عليها، وساعده على ذلك والي كِرمان بجيوشه **الروافض**.

فساروا إلى كَركوك؛ فقاتلهم أهلُها أشدَّ القتال؛ لما جُبِلَ عليه أهلُها من وجوب طاعةِ السُلطان، وامتثالِ أوامره، ومُنَاواةِ مَن عَادَاه.



فلمّا لم يَقدر على أخذ كرَكوك: عدل عنها، وقصد بغداد، وصار ينهب القُرى التي في طريقه، إلى أن وصل إلى محلٍ بُعدُه عن بغداد ثمان ساعات، يُسمى دَلّي عباس.

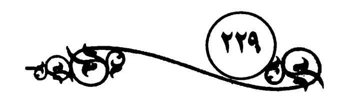
وقد كان الوزير داود باشا كتب إلى الدولة العليّة بجميع ما جَرى مِن عِصْيَان الكتخدا، وكَسْرِ العَسكرِ، ولحوقِ الكتخدا بالعجم، وما فعلوه بالمسلمين، وببلاد الدولة العليّة من المفاسد والتخريب.

فلما أبطأ على داود باشا جوابُ الدولة العليّة له: جَمَعَ عساكرَه، وحفِظ بها سورَ بغداد، ورأى أن هؤلاءِ عسكرٌ مُجَمَّعٌ مُلَفَّق، فكلما طالت عليهم المُدَّة تُزهَقُ نفوسُهُم، ويتفرقون عن الكتخدا من لدن أنفسِهم.

ثم إن عساكر الكتخدا صاروا يُغيرون على قبائل العُربان الذين حول بغداد؛ فأغاروا على عرب الخالص، ونهبوا منهم أربعين ألف رأس عنم، وخرّبوا بساتين الخالص وخُراسان[1]، ثم رجع الكتخدا ومَن معه من عساكر إلى بلاد الكُرد القريبة من حدود العجم، حيث

---

(١) في الهامش: «المراد بخُراسان هنا قريةٌ من قرى بغداد، لا خُراسان التي ببلاد فارس.

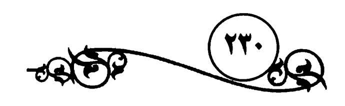


لم يظهر لهم أحدٌ من العثمانيين لمقاتلتهم، وخافوا من سكوت داود باشا ربَّما أن يكون لِمَكِيْدَةٍ، وأنهم إن بَقَوا حَوْلَ بغداد ربما يَظفر بهم، ويُهلكهم عن آخرهم، فلهذا رجعوا إلى قريبِ بلاد العجَم، واتفق أن عسكرَ العجم احتاجوا إلى الـمِيرَة؛ فأرسلوا نحوَ الألف خيّال لِيَكْتَالُوا لهم من بعضِ بلاد الدولة العليّة؛ فصبَّحَهم صَفُوق الجَربا بعربِه، وقتلَ الأكثرَ منهم، والذي نجا فهو القليل.

ثم إن الكتخدا مع عسكر العجم لـمّا رأوا أنّ المسألةَ طالت عليهم، ولم يروا مَن يحاربهم، وتجييشُ الجُيوش يحتاج إلى مصاريفَ كثيرةٍ، جَنَحُوا للسِّلم وللصُلح، وكتبوا بذلك إلى داود باشا؛ فرأى أيضًا داود باشا أنّ ظُروفَ الأحوالِ تقضي بأنّ الصُلحَ هو الأصلح؛ فأرسل من طَرفِه الفاضل الأكمل: محمد بن أبي دِبس، أحد ندماء الوزير، وأرسل معه أحدَ تلامذته؛ وهو محمد أفندي ابن النائب.

فساروا إلى والي كِرمان، وتفاوضوا معه في شأن الصُلح؛ فقبله منهم بشرطِ أن يعطي الوزيرُ داود باشا لواءَ بابان لعبد الله باشا، وأن يكون لواءَ كَوي وحَريرا لـمُحمد بن خالد بيك الكُردي.

فأرسل ابنُ دِبس وابنُ النائب بصورة الحال إلى الوزير؛ فرأى



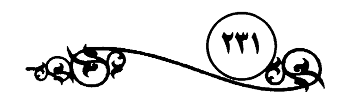
المصلحةَ في الصُلح الآن، وإن خالفَ فرمَان السُلطان القاضي بأن كلَّ مَن لَحِق ببلاد العجم، وعصى على مأمُوري الدولة؛ فهوَ مَحرومٌ من الرجوع مرةً أخرى إلى وطنِه، ولكنْ يرى الحاضِرُ ما لا يرى الغايب.

فوافقهم الوزيرُ على هذا الصُلح الذي لا يخلو من الذُّل، وأعطى الخِلَعَ على مراد والي كِرمان بشرط أن العجم يرحلون عن حدود الدولة العليَّة أصلاً، ورَدَّ السفيران بعضَ المنهوباتِ من الخَالِص، وهو عشرة آلاف رأس فقط، ورجعوا.

فلما عزم والي كِرمان على مفارقة ممالك الدولة العليّة ودخوله أرض العجم؛ اخترمته المنيةُ، فأراح اللهُ العِبَادَ والبلادَ منه، بلا حربٍ ولا ضرب.

وأمّا الوزيرُ فإنه عفى من الخَراج عن جميع القُرى التي أُصيبت من ضرر جيش العجم، ومن محمد الكتخدا في تلك السنة، وعَرَّف الدولة بذلك.

وفي أثناء انتشار عسكر العجم في أرض الدولة العليّة قامَ أهلُ الفساد، وصاروا ينهبون الضُّعفَاء، فمِن ذلك أن عَرَبًا أغاروا على



قُرى الدُّجَيل، وبعدما تم الصُلح أرسل الوالي عسكرًا لِردِّ منهوُبَاتِ رعايا الدُّجَيل، فاسترجعوا كلَّ ما أمكنَ رَدُّه، وبينما هو مُنْتَظِرٌ أوامرَ الدولة إلاّ وقد وردت فرمَاناتٌ من الدولةِ لأمين الـمَعدَنِ، ولوالي الموصل، ولوالي دِيار بكر محمد رؤف باشا، ولوالي بغداد داود باشا؛ بأن يتجمعوا ويقصدوا بلاد العجم، ويؤدبوا كُلَّ مُفسدٍ منهم، أو مِمَّن التحق بهم من بلاد الدولة العليّة، وأن داود باشا هو رئيسُ تلك العساكر بأجمعها.

وكان الأميرُ إذ ذاك على أطراف بلاد العجم من جهة كِرمان هو عباس خان بن شاه العجم.

وأكثرُ حَثِّ الدولةِ وأمرِها على إهلاك محمد بيك الكتخدا؛ لأنه هو أساسُ هذه الفِتن والحروب والشرور كلها.

ثم دخلت سنة ١٢٣٨: وفيها أمر الوزيرُ صَفُوق الجربا أن يغزوَ مع عربِه أطرافَ بلاد العجم، فركِب هو وقومُه إلى أن نزلوا بمرأىً من جيش العجم، فلما رأى عباسُ خان قُربَ خَيَّالة العرب منه، أمر نحو الألفَي خيّالٍ من جيشه أن يهجموا على عرب صَفُوق الجربا الشمَّري؛ فلما أقبلوا على عرب الجربا انهزم صَفُوق وعربُه استطرادًا



لهم، فصار العجم يتبعونهم إلى أن عبرُوا نـهرَ دِيَاله، وعَبَر العجمُ من فوق الجسر وراءَهم، ثم انعطف عليهم عربُ شَمَّر، واختلطوا بالعجم، وصاح الأبطالُ على بعضِهم، وتطايرت الرؤوسُ، وطاش عقلُ الجَبَان، فما كان إلا بُرهَةً وقد انكسر عسكرُ العجم بسبب ضيق الجسر، صار عبورهم منه في غاية المشقة، فازدحموا على العبور، وهناك صارت المقتلة على عسكر العجم التي أتلفتهم عن آخِرهم إلاّ النزر.

وأتى عربُ شمّر بخيل العجم وسلاحهم إلى الوزير.

وأخبرني غيرُ واحدٍ أن هذه الواقعة غير الأولى التي ذكرها المؤرخ التركي.

وصَفُوق، هو بفتح الصاد وضم الفاء، في اللغة: الـمُمتنع من الجبال، سُمي به هذا الكريم الشجاع الحاتمي.

ولَمَّا رأى الوزيرُ داود باشا نُصرةَ صَفُوق له؛ أقطعه بلدةَ عَانةَ وما والاها من القُرى، مكافأةً له على شهامته ونخوته وشجاعته وخدمته للإسلام.

وفي سنة ١٣٣٨ أيضًا: وقعت فتنةٌ بين سُكَّانِ بلدة الزُبير بعد أن كانوا يدًا واحدةً على مَن ناوأهم وعاداهم، فدخل بينهم المفسدون



والمنافقون الذين شأنهم نقلُ الأكاذيب، ولا توصَّلُوا إلى الغنى والثروة إلاّ به، فتفرقت كلمتهُم، وفسا بينهم الظَّرِبَانُ، وسببه الحسَدُ، وذلك أن محمد بن ثاقب بن وَطبَان يَحسِدُ ابنَ الزُهَيْرِ على مالِهِ، وعلى استِعْبَادِهِ أَشرافَ الناسِ بإحسانه وكرمِه، وانقياد أهل تلك البلدة له؛ لِما طَوَّقَهُم به من الأيادي، فادَّعى ابنُ ثاقب على ابن زُهير دَعوىً يُكذبها مَن له أدنى عقلٍ ودين، وهي أنّ ابنَ زُهَير أمرَ بسمٍّ راشد بن ثامر شيخ بني المنتفِق، وأنّ ابنَ وطبان وكيلٌ عن المنتفِق في أخذ الثأر لهم، وصدَّقه في دعواه كلُ منافقٍ يـُحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

فلما شاع أمرُ السُمّ ركِب ابنُ زُهير متنَ الحَذَرِ، وتترس في بيته مع عياله وأتباعه، وصاروا لا ينامون خوفًا من جماعة ابن ثاقب، فلما عَلِمَ ابنُ ثاقب أنه لا يُمكنه الغَدْرُ به، ولا الفَتْكُ به بالخِدَاع، أمرَ رِجاله أن يدخلوا بلدةَ الزُبير، ويَهجِمُوا على بيتِ ابن زُهير، ويأتوه به.

فامتثلوا أمرَ ابن ثاقب، وفي الليل هجموا على دار ابن زُهير، فصدّهم بالرصاص خُدَّامُه وأصحابُه؛ فحينئذٍ كَشَّرَ الشَّرُ أنيابَه، وتظاهروا بالعداوة والحروب، وتَلِفت ناسٌ بسببهم، وكل هذه المفاسد والحروب وسفك الدماء لا سببَ لها إلا الحَسَدُ والبَغيُ والبَطَرُ والأَشَرُ.



ثم إن عربَ ابن زُهَير تَغَلَّبُوا على جماعة ابن ثاقب، وطردوهم عن بلدة الزُبير، فخرجوا، ووصلوا البصرةَ، وأرادوا الدخولَ فيها؛ فمنعهم متسلِّمها محمد كاظم آغا؛ خوفًا من أنّ الوزيرَ يسمع بأنه مساعِدٌ للبُغاة، ولكن في الباطن هو مُسَاعِدٌ لابن ثاقب، وعَدُوٌ لابن زُهير.

فلمّا مُنِعَ ابنُ ثاقب من دخول البصرة؛ نزل على نَهر مَعقِل، فما زال ابنُ ثاقب على نهرِ مَعقِل إلى أن هَجَمَ عليه بعضُ الأعراب من اللُصوص للنهب والسلب، وقيل إنهم مدسُوسُون من طرفِ ابن زُهير، والكلُّ جائز.

وتقاتلوا معه، وقُتِل مِن الفريقين كثيرٌ، وانهزم ابنُ ثاقب وقومُه، وعَبَرُوا الفُراتَ، فصار يُكَاتِبُ كُلَّ مَن يعرفه، ويطلبُ منه المُسَاعَدةَ.

ولـمّا ورد حمود بن ثامر من البادية، خَدَع ابنَ زُهَير وأظهر له المودةَ.

فمنذ ورد عليه حَبَسَه وقَيَّده إلى أن مات، وقيل سَمَّه، فرحِمهُ الله، ولقد كان ذا صدقاتٍ وأعمَالِ بِرٍ، وعِفَّةٍ عن الـمُحرَّمات.

ومِن وقايع هذه السنة: الحرب الذي جرى بين عرب الدَّوِيش شيوخ قبيلة مطير، وبين بني خالد أُمَرَاء الحسا، وأنّ الدَّوِيش



انتصروا على بني خالد، بعدما امتَنَعَ الدَّوِيشُ عن الـمُحاربة، ورام الصُلحَ والـمُسالمةَ، ولكنّ ماجدَ بن عَرْعَر أبى إلاّ الحربَ معهم، فكانت الدَّبْرَةُ عليه، وفي الـمَثل: آبي الصُلحَ نَادِمٌ.

وغنِم مُطَير أمولاً كثيرةً من بني خالد بن عَرعَر، من خيلٍ وإبل؛ لأنهم قومٌ متمولون من نخيلِ الحسا ومزارعها.

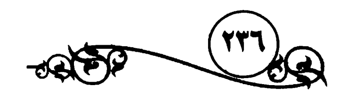
وقُتل في هذا اليوم المسمَّى بيوم الرُّضَيْمَةِ -بضم الراء وفتح الضاد- من مشاهير العرَب: حبّاب، أحَدُ فُرسان مُطَير، وأحَدُ سادة البِرْزان منهم، قَتَلَه مِشعَانُ ابنُ مُغَيْلِث، أحَدُ سادات آل هَذال من عَنَزَة.

ومِمّن قُتِل في ذلك اليوم: مُغَيلِث أبو مِشْعَان.

وقُتِل من سادات بني خالد: دُجَيْنُ بن ماجد بن عَرْعَر.

وأعظمُ الناس من جانب بني خالد قتلى: القبيلةُ المعروفة ببني حُسَيْن؛ فإنّ القتلَ استَحَر فيهم، فصابروا وجالَدوا بالسيوفِ حتى تكسرت.

ومِمّن قُتِل في ذلك اليوم: خُزَيِّـمُ بن لَحْيَان، وهو من كِبَارِ السُّهُول، القبيلة المشهورة من مُطَير، ومن فرسان العرَب المعدودين،



قتلَه أشجعُ مَنْ رَكِبَ الخَيْلَ في أيامه: ماجدُ بن عَرعر الحُمَيْدي، شيخُ بني خالد.

وبلغني من بعض الثقات أن المُطَيريين قالوا: لَسَلامةُ حَبّابٍ وخُزَيِّم السُهيلي أحبَّ إلينا من إدالتنا على بني خالد، ولَنَوَدُّ أنه لم يبقَ لنا خُفٌ ولا حَافِرٌ، ويَسلمان لنا ذَانك الرَّجُلاَن؛ لما فيهما من مكارم الأخلاق والنَّخوة والشجاعة وحماية الجار، والكرم والعفة عن المحرمات والجارات.

والذي شاع واستفاض على الألسنة أن نسَبَ السُهُول والمُطيريين يرجع إلى قحطان، ولكني لم أَرَهُ في تاريخٍ للمتقدمين، ولا في كتب الأنساب[١].

---

(١) سهول مطير هؤلاء غير سهول عَنَزَة الرّبعيين مِن ضنى عُبيد، المذكورين في كتاب "قلب جزيرة العرب" (ص ١٧٧ - المطبعة السلفية). أما مُطير والسهول - وهي منها - فتدّعي أنها من مُضر، والذي حققه الأستاذ فؤاد حمزة في "قلب جزيرة العرب" (ص ١٩٢) أنها مجموعة قبائل متحالفة، بعضها من قحطان وبعضها من عدنان، ومنازلهم من حدود الكويت إلى قرب القصيم غربًا. (الخطيب). قلتُ: أفادني الأستاذ فهّاد السهلي بهذا التعليق: (مُطير قبيلة عدنانية من غطَفان من ==



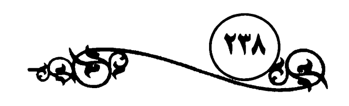
انتهت الحرب التي ما سببَّها إلاّ البَطَرُ والأشَرُ والطُّغْيَانُ.

ومن الوقايع المشهورة في تلك السنة: يومُ بَصَّالَةَ -بفتح الباء الموحدة وتشديد الصاد المهملة وألِفٌ بعدها-، وهو لِشَمَّر القبيلة المشهورة على آل هَذال من عَنَزَة، وكبيرهم عبد الله بن هذال، أحدُ مساعير الحرب، وكبيرُ شمّر صَفُوق بن فارس الجربا الشمِّرى الزوبعي، وكانت الغلَبة لشمّر على العَنَزيين، واستولى الشمّريون على هَوْدَجِ بنت ابن هَذال، ونهبوا أموالهم، واستصحابُ النساء الخرائد في وسَطِ جيوش الحروب هي عادةٌ جاهِليّة، وبقيت إلى الآن، لأجلِ أن يُشجِعن الفِتيان، وينتخين بأسماء الشجعان؛ فيَكُنَّ سببًا لِنُصرة قومهنَّ، فإن الفتيان تَدبُّ فيهم الغَيْرَةُ والحَمِيةُ على

==

مُضر - كما هو معلوم -، والسهول قبيلة عدنانية من بني سهل بن أنس من بني عامر بن صعصعة من مُضر. وإنما ذكرهم ابن سند معًا؛ لاشتراكهما في مناخ الرُضيمة المشهور عام ١٢٣٨هـ.

وأما سهول عنزة الذين أشار إليهم محب الدين الخطيب، فهم - كما يُذكر - منحدرون من قبيلة السهول. انظر: ضميمة من الأشعار القديمة، ص١٤٢).



العَار؛ فيُقاتلون العدوَ قِتال الـمُتهالك، ومن ذلك قول عمرو بن معدي كَرِبَ الزُبَيدِي في قصيدته الحماسِيّة:

لـمّا رَأيْتُ نسَاءَنا يَفحَصنَ بالـمَعْزَاءِ شَدّا[1]

وَبَدَتْ لَمِيسُ كَأَنّهـا بَـدرُ الـسّمَاءِ إذَا تَبَـدّى

وَبَدَت محَاسِنُها التي تُخفِي وكانَ الأمْرُ جِدّا

نَازَلتُ كَبْشَهُمُ ولَمْ أَرَ مِنْ نِـزَالِ الكَبْشِ بُدّا

ولـمّا عَبَرَ ابنُ هَذال الفُرات نَدَبَ قبائلَ عَنَزَة لِأخذ الثأر وغسل العار، فاجتمع العَنَزِيّونَ وعبروا الفُرات على الجزيرة، ثم ساروا بِقَضِّهم وقَضِيضِهم قاصدين شمّر، وذلك في سنة ١٢٣٩، فالتَقَوا في مَوضعٍ يُسَمَّى تَسبَيْحَةَ، وبقوا أيامًا، والفُرسانُ في مُطَارَدَةٍ ومُطَاعَنَة، ثم في آخر الأيام أَدْبَرت شَمَّر، وصارت الدَّالَةُ لعَنَزة عليهم، وغنم العَنَزِيُّون مِن أموال شَمَّر أموالاً كثيرةً.

ومِمّن قُتِلَ من الفرسان: مُطرِبُ بن حَمَد الأَسْلَمِي ابن حَطّاب -بفتح الحَاء أخت الخَاء-.

---

(١) الـمَعزاء: الحصى. (الخطيب).



ولمّا انكسرت قبيلةُ شَمَّر شدّ الوزير داود باشا عَضُد كبيرِهم صَفُوق الجربا، وأعطاه من الأموال والنقد والمواشي والقُرى والضِّياع ما لم يُسمَع بمثله إلاّ في زمنِ البَرَامِكَة، وهكذا كانت عادةُ الوزير داود باشا في الكرم، فإنه لما بلغه أنّ شيخَنا الشيخَ خالد النقشبندي مَدْيُونٌ، أمَر بِسَدِّ ديونه، وكانت ثلاثين ألفَ غازي محمودي كبير ذهبًا، وصرفها الوالي دفعةً واحدة، وهذا مما لَمْ يُسمع بمثله منذ قرون طويلة.

ودخلت سنة ١٢٤٠: فيها عصت بلادُ الـمُورَة على الدولة العليّة، وهي قطعة من بلاد الرُّومِيلي، كانت ولايةً من ولايات الدولة العليّة.

فلما أنّ السلطان محمود اقتضى نظرُه قتلَ اليَنجَارِيَّة(١)، وتبديلَ وجاقاتهم(٢) بالعسكر النظامية الموجودة الآن، ضَعُفَت عساكر الدولة وقَلَّت(٣)، وطمع فيها الأعداءُ مِن كلِّ جانب؛ فحاربها الرُّوسُ،

---

(١) أي: الانكشارية، وهو الجيش العثماني القديم.

(٢) الِوجاق: الجماعة من الجند.

(٣) فكرة تغيير نظام الينيشرية بالجيش النظامي كما هي الحال في الجيوش الأوربية: بدأ بها السلطان سليم الثالث -كما تقدم-، وحقّقها السلطان ==



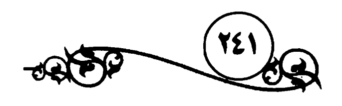
وملكوا بلادًا من أراضيها.

ومِمَّن ثار عليها في تلك المدة أهلُ الـمُورة، وطردوا وُلاة الدولة العليّة، وقتلوا أكثر المسلمين الذين كانوا في تلك البلاد مُتَولِّدِين ومتوطنين منذ قُرُونٍ طَوِيلة، وكان المسلمون هُم أهلُ الأراضي والأملاك والمزارع، وكان نصارى الـمُورة بِصِفَةِ خَدَّامِين عندهم، فلا زال أمرُ النصارى يَتَقَوَّى بواسطة الكنائس ورؤسائها، لـمّا يجتمعون في أعيادهم ومواسمهم، وينصحون أُمَّتَهُم بالاستقلال، وشرعوا في تعليمِ أولادهم الحُرُوبَ والرَّمْيَ بالرصاص، وأتقنوا أسبابَ الشجاعة بأنواعها سِرًا، وتعلَّموا الصنايع التي يتولد منها الغِنَى، وأرسلوا أولادَهم إلى بلاد أوربا لتعليم الصنايع.

والمسلمون في غاية الغَفلة والبَلاَهة، يتركون أولادَهم تَرْبِيَةً للنساء، أو لِلخاصي الـمُعَبّر عنهم بالأغَوَات، فلذلك ينشأ الأولادُ وعُقُولُهُم مِثلُ عُقُولِ تِلكم المخاصي، وأحسَنُ مَنْ وصفَ المخاصي: المتبني، بقوله:

==

محمود، وعند التحول من نظامٍ لآخر انتهز اليونان والروس هذه الفرصة لتحقيق مآربها. (الخطيب).



لَقَد كُنتُ أَحسِبُ قَبلَ الخَصِيِّ أَنَّ الـرُؤوسَ مَقَـرُّ النُهـى
فَلَـمّا نَظَـرتُ إِلى عَقلِـهِ رَأَيتُ النُهى كُلَّها في الخُـصى!

ولما ظهر للسلطان محمود ما صار على مُسلِمي الـمُورَة من القتل والسبي والنهب، إلاّ مَنْ فَرَّ منهم وهاجر إلى بلاد الإسلام: جهّز جيشًا عَرَمْرَمًا مِن عنده، وأمَر محمد علي باشا والي مصر أيضًا بتَجهِيزِ جَيشٍ من مِصْرَ؛ فاجتمع الجيشان في بلاد الـمُورة، وحاربوا العُصاةَ، وكسروهم، وهَزمُوهُم، حتى كادوا أن يجنَحوا إلى الطاعة، ولكن قام بَعضُ الدول الإفرنجية، وساعدوا أهل الـمُورة؛ أي بأنَّ الـمُورة تكون دَولةً مُستقلةً صغيرة، وجَبَروا السلطانَ محمود على ذلك، وأنَّه إن لم يُعطِهِم استقلالَهَم، وإلاّ فالإنكِليزُ يُحاربون السُلطان، فوافقهم على استقلال أهلِ الـمُورَة، وقَلبُه يَشتعِلُ نارًا مِن الغيظ، كما قيل

وَمَنْ لَمْ يَجِد إلاَّ الأسِنَّةِ مَرْكِبًا فَمَا حِيلةُ الُمضطَرِّ إلاَّ رُكُوبُـهَا

(فبقيت الُمورة من تلك السنة وهي دولَةٌ مستقلةٌ، ولا زالت تتقوى حتى آل أمرُها إلى أن صارت تُعَدُ من دول أوروبا[1]، وتُدخِلُ

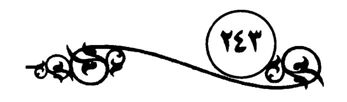
---

(١) وسُميت دولة اليونان. (الخطيب).



نفسَها في المجالس العمومية بين الدول الكبار، وصار لها سُفَرَاءُ في أكثر المدن العظيمة، وذلك سنة ١٢٤٣، وكان خروج الـمُورة عن الدولة العليّة أكبرَ وَهنٍ أصاب الدولة؛ لأن الـمُورة وما يتصل بها من بلاد الروميلي الشرقي، الذي هو من دَرَمَه وكَوَلَه، ومن بلاد الروميلي الغربي، يعني البلغار إلى حدود نهر الطُّونَة، جميعهم نصارى أروام، مُتَّحِدُون في المِلَّة، وخُطَبَاؤهم في المواعظِ والخُطَبِ لازالوا مجتهدين في الحَثِّ على الثَّوْرَاتِ، والدول الإفرنجية تساعدهم؛ لاتحاد المِلة، فيُخشى أن يَلحَقُوا ببعضهم في الثورات، وطَلبِ الاستقلال، ولَرُبَّما يَجُرُّ الحال إلى إخراج الدولة العليّة أصلاً من قِطعة أوربا (لا سمح الله[1]، إن لم تتيقظ هذه الدولة من نومتها. ولا تَقُل إن بعضَ الدول الإفرنجية تُسَاعِدُهُم كما قال المصنِّف، بل قُل إنَّ نارًا مُشتَعِلةً ترمي بشَرَرٍ كالقصر، أوَّلُها في اسْويج ونِرويج، وآخرها في البُلغَار، والأعاصيرُ تضربها على بلاد الدولة العليّة من الجِهَاتِ

(١) الصواب أن يقول: لا قدَّر الله؛ لأن لا سَمَحَ الله تُشعر بأن هناك مَن يُجبر الله على أن يَفعل. "المناهي اللفظية"؛ للشيخ ابن عثيمين - رحمه الله- (ص٩٤).



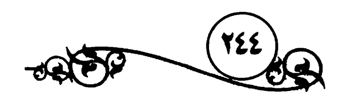
السِّت، فياليت شعري من أي جهةٍ تُخْمِدُها الدولة العليّة؟ ولو كان رُمحًا واحِدًا لاتَقَيتُهُ، ولكنَّه رُمْحٌ وثانٍ وثالثٌ. ويكون سببَها تلك الشَرارةُ الضعيفة التي هي الـمُورة، والتساهلُ في أمرِها).

ولنرجع إلى أخبار بغداد:

وفي آخر هذه السنة تحرّك محمد الكتخدا وجَمَع عساكرَ للإفساد، وحاصروا الحِلّةَ، البلدة المعروفة التي بناها صَدَقَةُ بن منصور دُبَيسٍ بن مَزيد، ودخل الحِلَّة، وادَّعى وزارة العراق (هذه الوقاحة بعينها)، وأطاعه بَعضُ العُرْبَان الـمُفسدين، ودخلوا في زُمرته، وعزموا على الهجوم على بغداد.

فلما بلغ الوزيرَ داود باشا خبرُهم، جهّز جيشًا وأكثرهُ من عَرب عُقَيل النجديين، وقصدهم إلى الحِلَّة مقر العصاة، فلما وصل الحِلَّة ثارت الحربُ بينهم، وحَمِيَ الوَطِيسُ، واستحر القتل بين الفريقين؛ فانهزم الكتخدا ومَن معه، ودخل الوزيرُ الحِلَّة، وعاقب كلَّ مَن اشترك في هذه الفتنة من أهل الحِلَّة بالقتلِ والصَّلبِ والنَّفي.

وأما الكتخدا فإنَّه فَرَّ والتجأ إلى حمود بن ثامر شيخ المنتفِق، فما قبِله، واعتذر منه، والله أعلم بالسرائر!



فهرب أيضًا الكتخدا ومَن بقي معه، ودخلوا الحُوَيْزَة، وتحصَّنُوا فيها.

وكانت هذه الواقعة في أول سنة ١٢٤١.

وفي السنة التي قبلها وفَدَ على الوزير أَحَدُ أعيان بني المنتفِق، وهو محمد بن عبد العزيز ابن مُغَامِس؛ فأَكرَمَهُ وأحسنَ نُزُلَه، وصار مع الوزير في الأمور المهمَّة.

ومحمد هذا من أجواد العرب وشُجعانهم، مع عَراقة أصله، وعلوّ همته، وضَخامَةِ عَقلِهِ، وكان له عند ثويني بن محمد بن مانع أُبَّهَةٌ وصَدَارَةٌ، وكذلك عند حمود بن ثامر بن سعدون بن محمد بن مانع أوَّلاً، ثم تَغَيَّر خَاطِرُهُ عليه، فلهذا قصَدَ الوزيرَ داود باشا؛ ليَسْتَظِلَّ بكرمِه.

ولما أكرمه الوزيرُ ترشَّحَ لشِيخةِ بني المنتفِق، فما وافقه الوزيرُ على ذلك؛ لأنه كان وعَدَهَا بَرّاكَ بن ثويني، حيث أنَّ أباه كان شيخًا على تلك القبيلة، وكذلك جدُّه عبد الله، وجدُ أبيه محمد، وجَدُّ جَدِّه مانع، والملوكُ من شأنهم رفعُ أقدارِ ذوي الشرَف، وفتح البيوت القديمة.

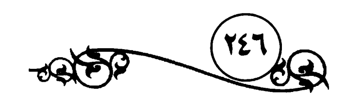


وفي هذه السنة، أعني سنة ١٢٤١: وفد على الوزير داود باشا حُنَيّان بن مُهنَّا بن فضل بن صَقر، أَحَدُ أكابر آل شبيب؛ فأكرمه الوزير، فلما اجتمع هو ومحمد بن عبد العزيز عند الوزير، عزم الوزيرُ على عزل حمود بن ثامر، وأن يُنَصِّبَ بَدَلَهُ بَرَّاكَ بن ثويني.

ثم قدِم على بَرَّاك بن ثويني جَمَاعَةٌ من كُبَرَاءِ قومه من آل صالح، وهم شَبِيبيون، وقدم عليه أيضًا محمدُ بن منّاع الأَجوَدِي العَقيلِي، أَحَدُ مَشايخ بني المنتفِق وفرسانهم، فقويَ عَضُدُ بَرَّاك بهؤلاء الجماعة، وتوجهت إليه أنظار الوزير، وكاد أن يوليه رياسة بني المنتفِق؛ إلاَّ أنّه أخَّرها لمصلحة.

ولما شَاعَ عَزْلُ حمود؛ طارَ عَقلُه، وطاشَ لُبُّه، وجاهر بالعِصيان على الدولة العليّة، وأرسل إلى محمد بيك الكتخدا وهو في الحُوَيزَة، فقدِم العراقَ لإثارة الفتن ونشر الفساد، وانضمَّ إليهم كلُ مُفسِدٍ باغٍ على الدولة؛ مثلُ آلِ قشعَمٍ، وآلِ حُمَيدٍ، وآلِ رُفَيعْ.

وفي هذه السنة: غزا بَرَّاكٌ ابن ثويني ومَن معه من آل شبيب عِفْكًا وقَاسمَ بنَ شاوِي بعربِه؛ لأن قاسِمًا وعربَه أيضًا عصوا على الوزير، وتحصّنوا بالمياه والأهوار، فخاض المنتفِقيون عليهم المياه،



وقُتِل من أكابرهم وفُرسانهم دُوَيحس بن مُغامِس بن عبد الله بن محمد بن مانع الشبيبي، وقُتِل أيضًا ابنٌ لثامر بن مُهَنَّا بن فضل بن صقر الشبيبي.

وكان مع برّاك بن ثويني شيخُ زُبَيْد، ولكنَّه ما أخلَصَ نيّته في ذلك الحرب.

وفي آخر تلك السنة: غَضِب أميرُ المؤمنين السُلطان محمود على الجند المسمَّين باليَنجارِية[1]، وقتل منهم ألوفًا، ونسخهم من ديوان

---

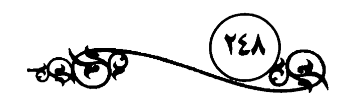
(١) كلمةٌ مركبة من كلمتين تركيتين (يني) بمعنى جديد، و (چـري) التي أصلها (چـيريك) بمعنى حيّ، وتُطلق على الجندي، وسُمي بهما جند المشاة الذي نظّمه العثمانيون في زمن السلطان أورخان سنة ٧٢٦هـ، وهذا السلطان ابن السلطان عثمان الذي تسمت الدولة باسمه، فصار جيشها يُسمى (ينيشري)، وكان عليه اعتماد الدولة في حروبها، وسجّل له التاريخ مواقفَ مجيدة. وكان هذا الجيش عند تأسيسه قد تبناه الدرويش الحاج بكتاش الذي يعتقد سلاطين الترك وأعيانهم بصلاحه، إلا أن طريقته تجنح إلى عقائد الباطنية والتحلل من تكاليف الشرع. وتطرق الفساد بالتدريج إلى نظام الينيشرية وقادتها وجُندها، ولا سيما بعد القرن العاشر، وانتشر منهم الشر والفساد في البلاد، وامتدت أيديهم إلى جيوب الناس وبيوتهم، وأصبحوا وبالاً كبيرًا. وكانوا يتدخلون في شؤون الدولة ==



الجند، وكتب إلى جميع ممالكه أن يعزلوهم، وأن يمحوا هذا الاسم من الدنيا، ولَعْنَتَهُ تنمى على كلِّ مَن ينطق بهذا الاسم (لأَنَّ عسكرَ الينجارِية لما قَدِمَتْ اصْطِلاحَاتُهم اعتراهم الخَلَلُ في الضبط والربط، وصاروا يتسلطون على الوزراء بالقتل، وعلى سلاطين آل عثمان بالخَلع والقتل، ويتنازعون فيما بينهم في المدن، حتى في حالة الحرب، وينشأ من ذلك فتنٌ داخلية، فكان هذا من جملة أسباب انحطاط دولة آل عثمان في القرن الثاني عشر، وفي أوائل القرن الثالث عشر، حتى ما بقي لملوك آل عثمان إلاَّ الاسمُ فقط، وجميع الفتك والعزل والخَلع والحرب والصُلح وكان بيدهم، فنشأ من ذلك تسلُّطُ أَهلِ أَورُبَا على ممالك الدولة العليّة، وتَقَسَّمُوها، ولولا ما أدركها الله به من هذا الشهم الهُمَام السُلطان محمود بتغيير العساكر إلى النظام

==

وتعيين رجال المناصب. إلى أن حاول السلطان سليم الثالث إحداث نظام جديد للجيش، ثم أمضى هذا الأمر السلطان محمود الثاني في معركةٍ نشبت بين رجاله من أنصار النظام الجديد وبين قوات الينيشرية في ميدان الخيل بقلب العاصمة (القسطنطينية) يوم ٩ ذي القعدة سنة ١٢٤١، انتهت بتحطيم الينيشرية وإبادتهم، ومطاردة أنصارهم البكتاشيين، وتُسمى هذه المعركة في تاريخ الترك (الوقعة الخيرية). (الخطيب).



الموجودين الآن؛ لكانت اضْمَحَلَّتْ هذه الدولة أصلاً منذ سنين طويلة، فنسأل الله أن يُؤَيِّد هذا الدِّين به وبذُرِّيَته، آمين).

وفي سنة ١٢٤١: غضب السُلطان أيضًا على الدَّدَوَات، الـمُعَبّر عنهم بالبكتَاشِيَّة[1]، وأيضًا طَرَدَهُم من تكياتهم؛ لمداخلتهم مع

---

(١) الددوات جمع «دَدَه» بمعنى الجَد، واستعيرت عند الترك لآباء الطريقة، خصوصًا طريقة المولوية وطريقة البكتاشية، وأكثر ما يُسمى الشيخ عند البكتاشية «بابا». وطريقة البكتاشية طريقة صوفية في الظاهر لكنها في الواقع طريقةُ إلحادٍ وتحللٍ وسفسطةٍ وإباحةٍ واستهزاءٍ بكُل حق وبكُل خير، ورجالها - على قدر ذكائهم أو غبائهم - يتخذون من التأويل والشطح والخيال والجهل تُكأةً للإيغال في كلِّ ما يَبعد بالمسلمين عن الإسلام وهدايته وأغراضه، وأهون ما فيهم من شرّ استحلالهم تناول الخمر، وما يتصل به مما يليق بأهله. وهذا ليس بشيءٍ في جانب عقائدهم الباطنية الخارجة عن دائرة الإسلام. وكان باباوات هذه الطريقة أصحاب السلطان المُطلق على نفوس الينيشرية. فلما قضى السلطان محمود على ذلك النظام العسكري أخذ يُطارد البكتاشيين ذوي السلطان الديني على الجيش المنحل، إلا أنه ويا للأسف لم يُنقذ عقائد البسطاء من هذا الوباء الذي استمر بعد ذلك في بلادٍ كثيرة. وإلى الآن يوجد منهم في ألبانيا، بل لهم معقل في جبل الجيوشي بالقاهرة، وفي كل عامٍ يدعو شيخه بناتِ الأجانب ورجالهم للاحتفال بذكرى مقتل الحسين على موائد
==



اليَنجارِية، **ولكون البكتاشية روافِض،** أرسل السُلطان فرمان إلى سائر الممالك الإسلامية بِطَردِ الدَّدَوات[1].

ولما وصل الأمرُ إلى الوزير داود باشا طَرَدَهم من تَكِيَّتهم، وولَّى عليها أَحَدَ خُدَّامِهِ خليل أفندي، فَوَلَّى خليل أفندي إمامَه السيد طه الحديثي القِيَام بتكِيّة الدَّدَوَاتِ في بغداد، فبعد أن كانت التكِيَّاتُ مَلْعَنةً للصَّحَابَةِ؛ أصبحَت دارَ الحَدِيثِ.

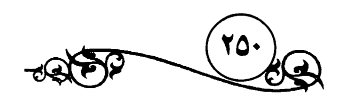
ولكن بعد أيامٍ قلائلَ عَزَلُوا منها السيد طه الحديثي؛ لتُهْمَتِه أيضًا؛ لأنّه من الدَّدَوات!

ومن وقايع سنة ١٢٤٢: أنه قَدِم بغدادَ الشيخُ عَقيل بن محمد ابن ثامِر؛ فأكرمه الوزيرُ، وتَخَيَّل فيه أنه هو الذي يَصلح لِرياسة بني

==

تحوي ما لذّ وطاب لأمثال ضيوفه من مأكولٍ ومشروب! ويجد من عظماء الأُسَر التي تمتّ إلى رجال هذه الطريقة بنَسَبٍ ومَشربٍ سخاءً في المعونة والبذل والإكرام. (الخطيب).

(١) يظنونهم روافضَ؛ لأنهم كالشيعة يُبغضون أصحاب رسول الله ﷺ، ويتظاهرون بتقديس آل البيت، لكنهم في الحقيقة يدعون إلى تأليه علي وبعض بنيه، لا حبًا بعلي ولا ببنيه، بل ليَنقضوا بذلك دعائمَ الإسلام وعقائده. (الخطيب).



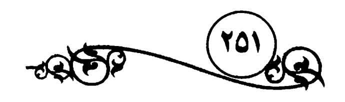
المنتفِق؛ فولاّه تلك الرياسة، وألبَسهُ خِلعتها، وأعطاه الوزيرُ أسلحةً كثيرةً، ودروعًا وبنادِقَ، وأَمَرَه بالتوجه إلى سُوق الشيوخ، وَطَنِهِ، ومحَلِّ حُكُومَتِه، ومنزلِ قومِه وعشيرته.

ثم أرسل الوزيرُ إلى متسلِّم البصرة أنـّا خَلَعنَا حمودًا عن إمارةِ المنتفِق، فأَظْهِر ذلك في أطرافِ أحكامِك، ووَلَّيْنَا بَدَلَهُ عَقِيلاً ابنَ أخيه، فأنت تحَفَّظ على البصرة، وعلى أطرافها، ولا تخشَ من غاراتِ العُصاة، فإنّ بَاطِلَهُم دُخَانٌ مآله إلى الزوال.

فلمّا أظهر متسلِّم البصرة عَزلَ حمود، وتوليةَ عَقِيل، خَفَّ عَقْلُ حمود، وطاشَ لُبُّه بعد الحِلم الذي كان مَشهورًا عنه.

فأَمَر ابنيه مَاجِدًا وفَيصلاً أن يَقصِدَا البصرة بجُمُوعهما، ويَستوليا عليها، ويستأصِلا مَن فيها، ونَدَبَا لمحاصرتها **كلَّ رافِضيٍّ من بني كَعْبٍ**، ومن ممالك العجم، واستدعَيا أيضًا إلى محُارَبَتِهَا ومحُاصَرَتِهَا: السيد سعيد، سُلطان مَسْقَط، ومعه عسكَرُه **الإِبَاضِيَّة**.

فأمّا ماجِدٌ فإنه نزل قريبًا من نهر مَعْقِل، وأمّا فَيصلٌ فنزل أبا سلاَّل، ومعهم الإِبَاضِيَّةُ عسكر إمام مَسْقَط السيد سعيد، **والروافض بنو كعب**، ومَن التَفَّ عليهم من محبي النّهب والغَارَات.



ولـمّا اشتد الأمرُ، وكاد أن يفتحوا البصرة؛ بَرَزَ إليهم عسكرُ عُقَيْل من عَرَب نجد، ونشَب القتالُ بينهم وبين عساكر فَيصَل، وكانوا على الرُبع من عسكر فَيصَل، فثار عليهم عسكرُ فَيصَل؛ فالتجأ عُقَيْلُ في النخيل، فهجم عليهم عسكر فَيصَل، ورموهم عُقَيْل بالرصاص وهم متترسون في النخيل، فما مضت سويعات إلاَّ وانكسر عَسكرُ فَيصَل، وانهزموا، وقُتِلَ منهم خَلْقٌ كثيرٌ بالرصاص، وعلى الباغي تدور الدوائر.

وأمّا عسكر عُقَيْل؛ فإنهم رجعوا إلى البصرة منصورين غانمين، فَقَوِيَ بهم عَضُدُ أهل البصرة، وثابَرُوا على الحصار والمقاتلة.

وهذه الكسرةُ فَتَّتْ مِن عَضُدِ ماجِد وفيصل، مع أنهما لم يُبْقِيا من طُلاَّب الشَّرِّ والطمَع واحدًا إلاّ نَدَباه، ولا عَدُوًا للدولة العليّة إلا استغاثا به، حتى أن السيد سعيد إمام مَسقَط ملأ بِسُفُنِهِ الشَّطَّ؛ لأنهما أوْعَدَاهُ أن يُـمَلّكَاه البصرة، فساعَدَهما.

وقد كسر اللهُ أنْفَ الجميع بهذه الواقعة التي لم تَخطر بالبال. ثم صار بعدها مُنَاوشاتٌ ومقاتلاتٌ، وتم الحَربُ والجِلاَدُ أكثر من شهرين.

هذا؛ ولما ضاق الحِصَارُ على مُتَسلِّم البصرة، واشتدَّ الغَلاَءُ؛



خاف من الفَشَلِ العمومي؛ فأرسلَ إلى سُلطانِ مَسْقَط السيد سعيد، وصالحه على مال، وحَذَّره من بطش الدولة العليّة وانتقامها؛ فنزع سُفُنَه، وسافرَ إلى مَسْقَطٍ بَلَدِهِ، وظل فيصلٌ وماجِدٌ بِمَن معهما من الأعراب فقط.

وهذه مصيبةٌ ثانيةٌ كسرت عَضُدَ فيصل وماجد.

وفي أول ربيع الأول: خرج عَقِيل شَيخُ المنتفِق الجديد من بغداد، متوجهًا إلى وطنه سُوقِ الشيوخ، وفي أثناءِ ارتحالِه مَرَّ على سليمان بيك المناخور[1] محاصِرًا للأقرع جند الشيطان، ومع الأقرع آلُ قَشْعَمٍ، ومحمد بيك الكتخدا العاصي القديم، ومعهم رستم خان رئيس **الروافض**، وما كان مع سليمان بيك إلاّ قبيلة زُبَيد المعروفة من كَهلان، وعُقَيْلٌ وشيخُهُم جعفر.

وكان عسكرُ سليمان بيك نَحوَ العُشْرِ مِن عسكر الأقرع، ولكنْ مع عسكر المناخور المدافِعُ والأسلحةُ الجيِّدة.

فلما التقى الجَمعان، وترآت الصُّفُوفُ، ورمى عليهم سليمان بيك

---

(١) قال الدكتور عماد رؤوف: (المناخور: لفظٌ مُحرَّف عن مير خور، ويعني أمير الاصطبل).



بالأطواب، فأزعجهم بأصواتها ودُخانها، وصار لها دَوِيٌّ في الجَوّ؛ جفَلت مِنه الخَيلُ؛ فحينئذٍ انكسر الأقرعُ بمَن كان معه، وانهزموا، ولزِم عسكر الروم أقفيَتهم وقَتلُوا منهم مَقْتَلَةً ظلّت الجيفُ مطروحةً في محلها أشهرًا، ويُقال إن القتلى أكثرُ مِن ألفين.

ولما ورَدَ الخَبرُ إلى الوزير داود باشا أمَر أن يُبنى من رؤوسِ القتلى مَنَارَتَيْن، فَبُنِيا على طريق الحِلَّة.

ولم يحضر هذه الواقعة الشيخُ عَقِيل، شيخ المنتفِق، ولا صَفُوق الجربا، ولكن حَضَرَا قلعة شُخَير، وأظهرا فيها من النُصح للوزير، ومن أنواع الحروب ما هو مأمولٌ فيهما.

ولـمّا وَرَد قَتْلُ الأقرع صَبَاحًا، زاد السرورُ بذلك للوزير، وعلِم أن سعدَه قد قام بِلا مُنَازع (والأقرَعُ فِرقَةٌ مِن الجُنُود من سُبَيْع) ولـمّا أمَرَ الوزيرُ داود باشا عَقِيْلاً شيخ المنتفِق بالسفر إلى محلِّ حُكْمِهِ قال له: لا تَعجل في سَفَرِكَ، بَل تأنَّ ما أمكنك، ولو تجعل الطريقَ أشهرًا فهو أولى؛ لأن العُصاة كلّما طالت عليهم الـمُدَّة تَشَتَّتُوا حيث أنه لا يقدِر على المُصابرة على القتال والمُداومة على الحِصَار إلاّ الدُّوَل الذين يجبُون الخَراج، ويصرفونه على العساكر، فيصابرون الشهورَ



بل الأعوام والدُّهورَ، ولا يَملّون، ولا يحتاجون، وأمَا مثل هؤلاءِ الطَّغَامِ؛ فمتى طال عليهم عدمُ المناجَزَة سَئِمُوا ومَلُّوا، وتفرقوا يطلبون القُوتَ، وتَجَمُّعُهُم ما هو إلاّ ساعات، وإذا طال وقَوِيَ واشتدَّ فيكون أيامًا لا غير.

فلهذا صار عَقِيلٌ ومَن معه كلّما مرّ على قبيلةٍ أقامَ أيامًا، وهو يَذبح الكَوْم السِّمانَ[1]، ويُكرم ويُنعِم، وكلُ هذا من خير الوزير عليه.

وكان مِمَّن صحب عَقِيْلاً بأمر الوزير صَفُوقُ الجربا بعَربِه؛ لتأييد عَقِيل.

وبعد واقعة الأقرع صَيَّر الوزيرُ المناخورَ سليمان بيك سردارًا أعلى عموم عساكِرِه؛ لِمَا رأى من قوة بأسه وعقله وشجاعته في حرب الأقرع.

وأمّا البصرةُ فبقي متسلِّمها مع عسكره يُحاصِرُ ويقاتِلُ ويهاجِمُ عسكرَ أولاد حمود، وشَدَّ عَضُدَ المتسلِّم سُكَّانُ قَصبة الزُبير من أهل نجد.

فلما سافرت سُفُنُ السيد سعيد إمَامِ مَسْقَط؛ ضاقت الأرضُ بما

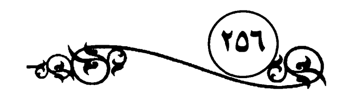
(١) الكَوم: قطيع الجمال.



رَحُبَتْ على فيصل بن حمود، وسُقِطَ في يده، فسار ينزل على أخيه ماجد في نهر مَعْقِل، وأشار عليه أن يذهبَا إلى والدهما ويستشيراه في مقاصده؛ فلم يقبل منه أخوه ما أشار به قائلاً: لا أرحَلُ حتَّى أملِكَ البصرةَ بالسَّيف، وأجعل عَالِيَها سَافِلَهَا، وأقتُلَ عَالِمَهَا وجَاهِلَهَا، أستبيح الفُرُوجَ، وأهدِم القصور والبروجَ[1]، وأُريق دِمَاءَ أهلِها، وأَصبغ من دمائهم أرضَ البصرة! (انظر في هذه الألفاظ الشنيعة التي تقشعرُّ الجلودُ من سَمَاعها فَضلاً عن رؤيتها، ويا عجبًا كيف تصدر هذه الألفاظ مِمَّنْ يَدَّعي الإسلام ؟[2] ويا ليت شعري ماذا

(١) هذه السَجَعات الأدبية وأكثر معانيها مما نظنُ أنه قد أملاه على المؤلف منزلتُه من داود باشا، وخِطته في تأييده والثناء عليه، والأخبار في أثناء الفتن والحروب تأتي مجملة، ويَبعد أن يكون فيها مثل هذا التنميق! ولا شك أن مُتسلِّم البصرة والسلطات التركية الحاكمة كان من مصلحتهم في ذلك الحين إذاعة مثل هذا الكلام عن لسان خصومهم؛ ليوغروا صدور الأهالي ويستجيشوهم معهم، وقد كانت خطة ولاة الترك في بغداد وعمالهم في العراق أن يقاتلوا العرب بالعرب. (الخطيب).

(٢) وهناك احتمالٌ كبيرٌ بأنها لم تصدر ممن نُسبت إليه. ونحن الآن نسمع رواية الخصم في خصمه. وأن حمودًا وابنه دُفعوا إلى هذا الموقف دفعًا من
==



صنع له أهلُ البصرة ؟ هل هم الذين عَزَلُوا أَبَاهُ ؟ ولو فرضنا أنهم عَزَلُوا أَبَاهُ، هل يستحقون مكافَأتهم بذلك ؟ لكن الطُغيانُ والطَيْشُ والبَطَرُ والأَشَرُ متى استَولَوا على إنسانٍ تَعْمَى منه البَصِيرَةُ لا البَصَرُ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تَعْمَى القلوب التي في الصدور، أعاذنا الله وإياك من كُفران النِّعم ومِن تَحَكُّمِ النَّفْس الأَمَّارَة).

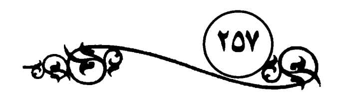
فلما سمِع فيصلُ من أخيه تلك الألفاظ الدَّالة على أن صاحبَها لن يُنصر قطّ؛ قام يَجُرُّ أَذْيَالَهُ مُوقنًا أنّ الله لا يَنصر مَن نَوى الشَّرَّ على عموم المسلمين، خصوصًا الأبرياء.

ورحل فيصل، وفارق أخاه، وقصد أباه حمودًا.

ولـمّا وصل إلى والده تصادف ورود محمد الكتخدا العاصي القديم على حمود أيضًا؛ لَيشُدَّ عَضُدَه على عِصيان الدولة، وعلى محاربة رجالها، وما دَرَى حمودُ أن محمد بيك الكتخدا أشأمُ مِنْ طُوَيس، فمتى

==

غير سببٍ يُوجبه، وكان داود باشا في غنىً عن أن يُثير عليه وعلى الدولة والأمة أناسًا كانوا راضين بالسِّلم، مُخلدين إلى السكينة. ومثل هذا التصرف مألوفٌ من الولاة الحمقى الأغبياء، أما داود باشا في عِلمه وعقله فمؤاخذٌ على هذا التصرف الخاطئ الذي كان في غنىً عنه. (الخطيب).



حلَّ مع قومٍ انهزموا وانكسروا، وقد قالوا العادةُ تثبت بثلاثِ مرات، وهذا المنحوسُ المغلوثُ صار له أكثر من خمسين كَسْرَةٍ تُجاهَ عسكر الدولة العليّة، وهلك بسببه أُمَمٌ من المسلمين لا تُحصَى، ولا زال الناسُ من غفلتهم يُؤوونه ويَقبلونه.

وأما ماجد بن حمود فإنه شمّر عن ساعد الجِدِّ، وجَمَع **عسكره الروافِضَ** وغيرهم، وصنع سَلالِمَ ليَصعَدَ بها على سُور البصرة، ونادى مناديه أنّ ماجِدًا أبَاحَ البصرةَ ستةَ أيام، لا يُصَانُ فيها فَرْجٌ، ولا يُغْمَدُ فيها حُسَام!

ولما بلغ أهلَ البصرة نيةُ ماجِد الخبيثةُ؛ خرج عليه سُكَّان بلدة الزُبير وتَرَامَوا معه، وشدّ عليهم بخيله ورَجلِه، وترك خيامَه وأثقالَه وأموالَه وراءه.

والحال؛ أن المتسَلِّم بعسكره كانوا كامِنين له، فلما رأوه توَجَّه إلى عرب نجد بِكُلِّيَته وكَلِيلِهِ أغاروا على خيامه وأثاثه وأمواله.

فلمّا بلغه الخبرُ سُقِطَ في يَدِهِ، فما كان إلاَ سَاعةً وقد ولَّى الأدبارَ، وترك جملةً من عسكرِه قتلى في الميدان، ورجع إلى أبيه مهزومًا مخذولاً منهوبًا.

فلمّا وصل إلى أبيه وجد أباه حمودًا قد فارق عِزَّه وسُؤدَدَه، وتفرّق



عنه قومُه وعشيرتُه؛ وذلك أن عَقِيلاً شيخَ المنتفِق الجديد لمَّا نزل البُغَيْلَة ورد عليه أعمامُه وأهلُه وعشيرتُه؛ فأكرمهم وخلَع عليهم، وأمّا حمود عمُّه، فإنه لما ارتحل عنه إخوانه عَلِمَ يقينًا أنّ دَولَته قد زالت، وتيقن أن جَدَّ الوزير في عنفوان شبابه، وفَرَّ هو وأولادُه وأهلُه إلى البادية.

فورد عَقيلٌ الوطنَ ومعه عسكر الوزير، واستقرّ على كُرسي حكومته، ونفَّذ أوامِرَه في رعيته، فحينئذٍ رجع المناخور بالعسكر إلى بغداد.

وفي هذه السنة: دخل الشَّفلَّح بغداد، واسترحم من الوزير أن يمنحه العفو، فعفى عن عِصيانه.

والشَّفلَّح هو كبير قبيلة زُبَيد، وكان شيوخ هذه القبيلة من أهل السُنة، **ولكن الآن هم رَوافِض**، وذلك بسبب أن الشيعة عندنا لهم دُعَاةٌ وخُطَبَاءُ يَدُورُون على قبائل العُربان، ويعِظُونهم، ويَدُسُّونَ عليهم دَسَائِسَ الرَّفض، والأعرابُ عوامٌ مُغَفَّلُون، لا يعرفون الدين ولا العقائد(١)، فلهذا ضَلَّ منهم خَلْقٌ كثير، وتمَذهَبُوا بسبب

---

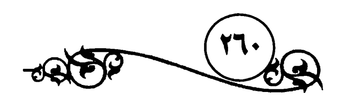
(١) بل إنَّ براعة أهل التقيَّة من دُعاة الرفض جعلتهم يدسون دسائسهم حتى على الخواص من رجال الأزهر في آخر الزمان؛ بحجة التقريب بين
==



الصَّحَابة، (فلَو أنّ الله يُلهِمُ الدولة العليّة أن تتنبه لِهذا الخَطب الجسيم، الذي عاقبته لا ترجع على الدين فقط، بل أكثر ضررِه على المُلك والسِّياسة، فإنّ الدولة متى كانت مُتَمَذهِبَةً بمذهب وخرج بَعْضُ رَعَايَاها عن ذلك المذهب، يُخشَى بأنهم يجرُّون عليها عَرَاقِيلَ وفتنًا داخليةً، تَعجز عن إطفائها، وربما تُفضي إلى تَدَاخُلِ الدول الأجنَبية، فإنَّك ترى المؤرَة والبُلغار لو كان جميعُ مَن فيها على دين الدولة العليّة لما ثاروا عليها، ولما طلبوا مُدَاخَلَةَ الدول الأرُبّاوية فيهم، وانظر إلى دولة إيران وكم صار بينها وبين الدولة العليّة من محاربات، ولم تزل المحارباتُ مَظْنُونَةً إلى الآن، وكلُ هذا بسبب مخالفة المذهَبين، فكان ينبغي للدولة العليّة أن تجعل جواسيسَ في البادية عند العُربان؛ لمنع دسائس الروافض عنهم، وتُرسل عُلماءَ من أهل السنة لتعليم هؤلاء العوام، حتى إذا تمسَّكوا بِمذهب أهلِ السُنة والجماعة يَصير نَقْلُهم إلى مَذهبٍ آخرَ بَطِيئًا لا بِسُرعَةٍ، كما هو

==

المذاهب! ودُعاة الرفض لا يملكون تقريبَ شيءٍ من مذهبهم إلى أيِّ مذهبٍ غيره، ولا يُقرهم أهل ملتهم على شيءٍ من هذا التقريب على فرض حصوله. (الخطيب).



مُشَاهَد في هؤلاء العوام الخالِي الذهن، وقد قال ﷺ: كُلُ راعٍ مَسؤولٌ عن رَعِيَّتِه[1]، ولا شَكَّ أن هذه المسألةَ مِن وظائف أمير المؤمنين).

باب: في مَنْ قرأ عليهم الوزير داود باشا العلوم:

أمّا القرآنُ فَجَوَّدَهُ على شيخ القُراء محمد أمين أفندي الموصلي، ومحمد أمين هذا كانت له دِرَايةٌ في التجويد والقرآن، واجتمعتُ به في بغداد في أيّام حكومَةِ الوزير سليمان باشا أبي سعيد، وداود باشا إذ ذَاك مهرداره، واجتمعتُ به مرّةً ثانيةً وداود باشا كان خازنداره، وعاش الشيخ محمد أمين الموصلي إلى سنة ١٢١٥، وبعده لا أعلم حالَه، وأعرف له ابنًا يُسمى سَعدِيًا لهُ شِعْرٌ، ورأيتُ له كتابًا في الأدَاء والتجويد، وعَزَمَ عليَّ أَنْ أُقَرِّضَه؛ فقرّضتُه جَبْرًا لخاطِرِه تقريضًا يُشعر بأنه على جهة التمليح، ولـمّا وردتُ بغداد سنة ١٢٣٤ أقسمَ عَليَّ إلاّ جئتَ إلى بيتي، وأكلتَ من طَعَامِي، فجئته وأكلتُ معه مِن طعامه إبرارًا لِقَسَمِه، وفيه سَمَاحَة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٤) ومسلم (١٨٢٩).



وأمّا علمُ النحو والصَّرف فأخذه الوزير داود باشا عن المنلا حسن بن محمد علي الزّوزُوجي، وقد اجتمعتُ به فوجدته مع قراءة داود باشا عليه هو أيضًا يقرأ المطوَّل بالمشاركة مع داود باشا على منلا محمد أسعد بن عُبَيْدالله، وقد شاركتهما أنا أيضًا في المطوَّل.

ولـمّا قدِم سليم بيك خَتَنُ سليمان باشا أبي سعيد متسلِّمًا للبصرة؛ قدم بالـمُلا حسن معه، فصار له في البصرة جاهٌ عظيمٌ، وكان له ميلٌ إلى المداعبة والمزاح، وكان حَيًا إلى سنة ١٢١٧، ولا أظن كلامَ أهل البصرة فيه صادقًا؛ لأن الناس لا يَسلم منهم أحدٌ، خصوصًا غالب مَن اتّصف بالعلم، فإنهم أكثرُ الناس غِيبَةً لبعضهم، فلا والله ما حضرتُ مجلسًا من مجالسهم إلا رأيتُ نُقْلَهم ومحادثَاتهم وملاطفاتِهم الغِيبَةَ والنميمةَ، وقد اصطلحوا على هذه المعصية الجسيمة، وصارت عندهم من العادات التي لا نَكِيرَ عليها، وقد استوى فيها الفقير والغني، والعالِـم والجاهل، والصالح والفاسق، إلاَّ الشَّاذ، ولا أدري ما عاقبة ذلك عليهم ؟![1]

---

(١) مِن عاقبة ذلك عليهم أنّ الدول الصليبية استعمرت بلادَهم، إما بجنودها أو بخططها الثقافية والفكرية، وتمكنت من تحويل الأذكياء الناجحين ==

ثم قرأ مولانا داود باشا على الحافظ أحمد، مُدرس السليمانية، علومًا جَمَّةً، خصوصًا التصوف وعلم الحقايق، وتوفي الحافظ أحمد سنة ١٢٣٩.

ثم قرأ داود باشا علم الرياضي على لُطف الله أفندي، كاتب الديوان لسليمان باشا أبي سعيد، وتوفي سنة ١٢١٣.

ثم قرأ داود باشا المطوّل وعلم آداب البحث والمناظرة وعلم البيان والمعاني وشرح المواقف على المنلا أسعد بن عُبَيْد الله بن صبغة الله، مفتي الحنفية والشافعية، وعليه تخرَّج في سائر العلوم، وبه عُدَّ من الرجال أهل الكمالات، الموصوفين بالدقة والمباحثة والمناظرة.

ثم قرأ داود باشا على صبغة الله ابن مصطفى الكُردي: الأصلين والتفسير البيضاوي، وصبغة الله هذا درّس في جملة علوم، واعترف له بالفضل معاصروه، وقد اجتمعتُ به، وتلقيتُ عنه بعضًا من الشِفا للقاضي عياض؛ فألفيتُه مع جلالته يَلحن في العبارة، والكمال لله،

==

من أولادهم إلى آلاتٍ تعمل في مناصب الحكومة وعلى صفحات الصحف والكتب لتحقيق أغراضها، التي في طليعتها سلخُ المسلمين عن الإسلام، وتصييرهم أعداءَ له بأسماء الأصدقاء. (الخطيب).



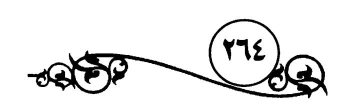
وقد رأيتُ له رسالةً يرد فيها على العَلاَّمة صبغة الله الحَيْدَرِي، دالةٌ على سعة باعه في المعقول والمنقول، وأن له يدًا طُولى في الاستنباط.

وكان هذا الفاضلُ صبغةُ الله ابن مصطفى الكُردي غَرْسَ نِعمة بيت عبد الرحمن باشا الكُردي؛ لأن العلماءَ من قديم الأزل لا يتعلمون وينجحون كمالَ النَّجاحِ إنْ لم يكنْ لهم مُسَاعَدَةٌ في أمرِ مَعاشهم مِن طرف بعض الأمراء، وإلاّ فالفقرُ المُطلقُ لا يَنشأ عنه إلاّ الخُمُولُ والجهلُ عادةً.

فصل: في ذِكر الإجازات التي كتبها العلماءُ للوزير داود باشا لـمّا أجازوه بعلوم شتّى:

فأفضلُ مَن كتب له إجازةً شيخُنا ومولانا السيد زين العابدين بن جمل الليل المدني، أبو عبد الرحمن، ابن السيد عَلَوي ابن السيد باحسن جمل الليل، عَلاَّمة الكون، ومُـحَدِّث العصر، بقيةُ العِترَةِ، ومُلْحِقُ الأَحفَادِ بالأجداد.

وهي إجازةٌ بليغةٌ، دالّةٌ على كمال مُنشيها في سائر العلوم، ودالةٌ على فضائل الـمُجَاز له، ولولا خوفُ الإطالة لسردتها بألفاظها، ومعناها أنه أجازه بجُملةٍ من كتب الحديث، وذكر سندَه، وأوصله



بأرباب المسانيد الحُفَّاظ المتقدمين، وتاريخ تلك الإجازة سنة ١٢٣٣ من الهجرة في بغداد دار السلام.

وتوفي السيد زين العابدين جمل الليل سنة ١٢٣٥، وله مؤلفاتٌ بديعة؛ منها كتابٌ في المُشتبِه والمفترق، وله مختصر المنهج؛ لشيخ الإسلام زكريا، ثم شرَحه أيضًا، في فقه الشافعية.

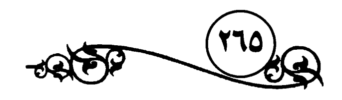
ومِمّن أجاز للوزير داود باشا: علاّمة العراق، الرُحَلة، المُحَدِّث، بقية السلف، شيخُنا الشيخ علي بن محمد السويدي البغدادي الشافعي، وهي متضمنةٌ للحديث المسلسَل بالمصافحة، وفيها علومٌ من الحديث وغيره، وتاريخ هذه الإجازة سنة ١٢٣٥، وتوفي شيخنا الشيخ علي بن محمد السويدي بالشام سنة ١٢٣٨.

ومِمّن أجاز الوزير داود باشا: الشيخُ صبغة الله ابن مصطفى الكُردي الزِيارَتِي الشافعي، أجازه في جملةِ علوم، وفي طريق القوم، بإجازاتٍ كُرْدِيَّةٍ مُطَوَّلَةٍ، يَمَلُ من طولها السامع.

باب: في ذِكر من أخذوا العلمَ عن داود باشا، واستفادوا منه:

وهم جماعةٌ يطول شرحُهم، ولكن ما لا يُذكر كُلُه لا يُترَك جُلُّه.

فمنهم: السيد الشريف بقية العِترَة، السيد محمود البَرزنجي،



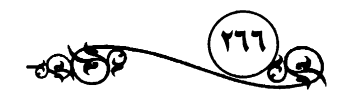
قرأ عليه جميعَ العلوم، وتخرّج على يديه، إلى أن صار هذا السيد من أرباب الكمالات، الـمُشار إليهم في العراق.

ومِمَّن أخذ عن الوزير داود باشا: محمد أفندي ابن النائب المتقدِّم الذكر، ولكن الظاهر أنه خرَج عن مَقُولة العلماء، ودخل في مَقُولة الأمراء والحُكام، وكان أمينَ الوزير داود باشا، وكاتِمَ سِرِّه.

وإلى هنا انتهى تاريخ العلاَّمة الشيخ عثمان بن سند البصري الوائلي، وما ذَكَرَ بعد هذا المحلّ إلاَّ حكاياتٍ على طريق الأحاجي والألغاز، جَعَلَها مِثلَ المقامات على لسان شخصٍ سَمَّاه مُقَاعِسَ بنَ مُزَاحِم، وصار يُطارحه في أخبار العرب وأشعارها وآثارها، ولا بَأس بها من مقامةٍ دالّةٍ على بلاغةِ مُنشيها، ومنبئةٍ على قوة باعِه، وسِعَةِ اطلاعِه، ولكنْ لا يسعها هذا المختَصر، فلهذا أضرَبْتُ صَفْحًا عن ذِكرها.

هذا ما تيسَّر جمعُه لكاتبه الفقيرِ إلى الله تعالى، خادم العلم بالروضة الشريفة: أمين بن حسن حلواني المدني، عفى الله عنه، وذلك في سنة تسعين بعد المئتين والألف من الهِجرة المحمَّدية، وصلى الله على سيِّدنا محمد، خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه هُدَاةِ الدِّين، وقُدوة المسلمين.

تمَّ طبعُ هذا الكتاب في مدينة بمبي في المطبعة الحسينية في غرة



شوال سنة ١٣٠٤ هجرية، وقد أخذ مؤلفُه أمرَ الرجستري من الحكومة، بحيث أنه صار الإقدام على طبع هذا الكتاب مرةً ثانية بإذن المؤلف لا غير، ومَن تجاسر وطبعَه بغير إذنِ مؤلِّفه؛ فالمسؤوليةُ عائدةٌ عليه، على حسب قوانين الدول المتمدِّنة، وصلى الله على سيِّدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم.

كتبه: الغريب: عبد الغني بن الشيخ محمد الخطيب، عفى الله عنه.



فِهرس المحتويات









